

سيرة

علي الشوك

الكتابة والحياة

20.7.2017



علي الشوك

الكتابة والحياة



الكتابة والحياة



Author: Ali Al-Shouk

Title: **Writing and Life**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2017**

المؤلف: علي الشوك

عنوان الكتاب: الكتابة والحياة

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة

Copyright © **Al-Mada**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

| | |
|------------------------|--|
| + 964 (0) 770 2799 999 | بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141 |
| + 964 (0) 770 8080 800 | Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141 |
| + 964 (0) 790 1919 290 | www.almada-group.com ✉ email: info@almada-group.com |
| + 961 706 15017 | بيروت: الحمراء- شارع لبون- بناية منصور- الطابق الأول |
| + 961 175 2616 | ✉ dar@almada-group.com |
| + 961 175 2617 | |
| + 963 11 232 2276 | دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار |
| + 963 11 232 2275 | ✉ al-madahouse@net.sy |
| + 963 11 232 2289 | ص.ب: 8272 |

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

إضاءة..

علي الشوك، الضعفُ حين يتحوّل إلى قوّةٍ خلقٍ وإعادةٍ ووعي ..

فخري كريم

حين كنتُ أكتبُ عن الزمن الجميل الموءود، الذي توسّدت أحلامنا ثنياه، كانت تراودني في كلّ مرّة رغبةٌ استرجاع بعض من بقايا ضفافه، لعلّي أعرّضُ علي حطام من موروثه، فأتشبّثُ به وأضمُّه إلى ما تبقى من حطام دنيانا، لعله يتحوّل إلى أيقونةٍ تُجنّبني الإحساسَ بالندم واللاجدوى، فيجرّفني تيارُ اليأس والحسرة إلى نسيانٍ ذلك الزمن نفسه.

في كلّ مرّةٍ أمسك خيطاً ينسلتُ منه، أمتي النفس بأنه قد يؤثّر لعودةٍ ماضٍ يكاد يُبشّرُ بالرجوع مغسولاً بكفاراتنا التي لم تكن مجرد أدعيةٍ أو نذور، بل أرواحٍ آلافٍ، لا بل ملايين نحرثهم الحروب، وألوان العسف والكراهية المنفلتة والإقصاء على اللون والفكر والنوع، ولربّما لمجرد العبث واللّهو فوق كرسّي السلطة، والمكابرة بوهم سحره ودوام سطوته..

لا مبالغة في التغني بزهو ذلك الزمن، ولا تعسف في تعفير جبين زمن القحط الذي نعيش، والعت يتسلل منه إلى كل مسامة من مسامات حياتنا، وهو أوه يتضمخ برائحة الموت وطعمه.. زمن تغير فيه حتى عزرائيل ملك الموت، إذ لم يعد يتأني كما كان عليه في الزمن الجميل، فلا يخطئ قراءة سجل ولا يتعجل، ولا يقدم أجلاً أو يندفع بلا ترو كما يفعل الآن، إذ يحصد أرواحاً لم تينع بعد ولم يحن قطافها..!

لم كانت لكل شيء في الزمن الجميل نكهة الحياة.. حياة إنسان سوي، وما تُعبر عنها من سلوك، يتمثل فيه أو توصف لمعانيه ومآثره وتجلياتها.. بل والجرأة في الإفصاح عن مكنوناته العميقة العvisة على البوح، حينما تجسّد جرحاً أو ما يُشبه العيب.

البطولة نفسها بطابعها التراجيدي ودلالاتها، أمست إحدى ظواهر ذلك الزمن، حفرت معانيها عميقاً في وجدان المجتمع العراقي وأضفت على سوية أجيال تعاقبت فيه أحزاناً وقهراً وشجناً مكبوتاً. وكأنّ القدر أراد للعراقي أن يظلّ مُنتهكاً، ترهلت وسائل فرجه وأشواقه وتجدرت في روحه مكامن اللوعة والأسى والفجيعة. فالمفهوم البطولي، تجاوز رمزيتة الفرديّة، بعد أن صار المجتمع موضوعاً له. ولم تُعدّ المآثر البطوليّة لزمن علي الشوك تتجسّد في قوّة تحمل التعذيب والاستعداد للموت والتضحية بمباهج الحياة ووهاد الاستقرار، وإنما الجرأة أيضاً على الاعتراف بالضعف في مواجهة عذابات الجسد، وتعرية الذات والقصور، في تجنّب الانكسار وما يُفرضي إليه من تداعيات وتساؤلات بين الأهل وفي المجتمع.

إنّ البطولة كقوّة إرادة واستعداد على المواجهة والموت، تجدّ تعبيرها

النقيض في الضعف، لئشكلاً معاً نسيجاً مترابطاً للكينونة الإنسانية، ولن تتكامل وتوازن من دون تداخل وتشابك مظهريهما

"القوة والضعف الإنساني" وهما يشكّلان معاً كيان الإنسان الطبيعي المتوازن...!

في رمزية البطولة، تلتقي المتناقضات كلها من دون أن تتشوّه المعاني. فالبطل إذ يواجه العذاب دفاعاً عن حقٍ أو صيانة سرّ قد يتسبّب الكشف عنه إلحاق الأذى بقضيبه أو تعريض مصائر آخرين إلى الخطر، يتشبّث بكل ما يستمد منه طاقة الصمود وهو يواجه نقاط ضعفه الإنساني ويتعالى على عذاباتِه: الإيمان العميق بالمبادئ، وقوة المثل والعقيدة، والقيم الاجتماعية، وأعراف العشيرة، ونظرة الحبيبة وهي ترى فيه عائداً، سحر حلمها المرتجى..

تفتّح وعيي على مشارف ذاك الزمن الجميل. إذ كنت مسكوناً بقيم مدينة صغيرة نائية تجتمع فيها تناقضات القرية وتجليات مظاهر الحضارة الآتية من وراء البحار. وحين أخذتني بغداد لتعيد تكويني، ولتغمريني في ضجيج تجاذباتها الاجتماعية والسياسية والثقافية وصخب فوضاها، وفيوض جمالياتها الآسرة، عمّدتني كرحالة يبحث عن ذاته، ويريد لها أن تتكوّن على وقع ينفّض عنه ما علّق بها من غبار طفولة ظلّت تبحث عن حدود الله وراء أسوار المدينة الصغيرة النائية التي يبدو كل شيء فيها موضوعاً للتساؤل..!

يومها لم أسمع أو أقرأ لعلّي الشوك وعشرات الأصوات المبهرة من زمن التوهج والتكوين، بل شاءت الصدفة أن أكون على مسافة منهم، يفصلني عنهم فرق العمر وخزين الثقافة والمعرفة، وهم القلق والتردد

في البحث عن سبيل للنفاذ إلى عوالمهم لعلّ بالإمكان اختزالها وتحويل
كوامنها إلى زوادة عمر آت، بعضه مضمّر وأكثره سرّ يحتويه الغيب،
ولا سبيل للتعرف على متاهاتها..

كان على الشوك علماً، يتوهج بثقافة، تميّز بالتنوع والغنى المعرفي
والثقافي، والتعدّد في الاهتمام باتجاهاتها الفكرية ومدارسها الفنية،
غير هيّاب في تطويعها والتفاعل معها وهو يكتب ويؤلف ليبتكر
لنفسه أسلوباً يميّزه، وينحسّ مسألة جمالية قوامها السرّد والموسيقى
ونقد النقد، متكئاً على معرفة بالعلوم والرياضيات ملتقطاً شذرات من
كلّ ميدان من ميادينها متماهياً في بحورها وتحليلاتها.

توهجت ثقافة الشوك في زمن الصعود والانتصارات التي شهدتها
البشرية بعد الحرب العالمية الثانية والانتصار على الفاشية والنازية،
وتركت بصماتها في كلّ ميدان من ميادين العلوم والثقافة والمعرفة
بتنوعها وتعدّد حقولها وتطبيقاتها ومنجزاتها في المجتمع والطبيعة
وسبر أغوار الأكوان البعيدة. حيث غزا الإنسان الفضاء الخارجي، ودار
گاگارين لأوّل مرّة حول الكرة الأرضية. وشهد الناس كلّ يوم على
الأرض ما يجعلهم أقرب إلى أن يكونوا أسياد مصائرهم، وما يوحى
لهم بقرب اعتناق العالم من أسر عبودية التخلف والجهل والاستغلال
وصروفها وأرزائها وتداعياتها على الحياة وتحديات المستقبل.

احتوى ذلك الزمن الواعد تناقضات عصر التحوّل الذي قيل إنه
يشارف على كسر سياق نظام الاستغلال، مع ما يثيره من تساؤلات
محيّرة عن سيرورته، وتجاذبات لم يكن من السهل تمثّل أبعادها، ولا
تجنّب التورط في استقطاباتها، من دون إحكام الفكر وما تبلور من

اندفاعاتٍ أو انحيازاتٍ ليست محكومةً في كلِّ حالٍ بما تعكسه من مصالحٍ طبقيةٍ أو اجتماعيةٍ أو تكرّسه من يقين، فالعصرُ بِسماتهِ المهيمنةِ كان شديدَ الالتباسِ، تعصفُ به قيمُ التحرّرِ والعدالةِ الاجتماعيةِ والتشوّفِ الإنسانيِّ لعالمٍ يندفعُ ليتجاوزَ كلَّ قديمٍ بالٍ، وتفكّك آلياتِ إعادة إنتاج منظومته، بفعل تناقضاتِ النظامِ التناحريةِ..

كان علي الشوك نموذج المثقف المهوم بقضايا عصره المتحوّل، وهو الآتي من مجتمع تظهرُ فيه كلُّ تلك التناقضاتِ بوضوح كافٍ ليتمكّن مثله من التقاط الأبعاد التناحرية المستحكمة في النظام الرأسمالي المتطوّر، حتى يبدو "نظرياً" كأنه على "عتبة الانتقال إلى النظام الجديد الواعد"! وقد وجد في مجتمعه العراقيّ، وهو يعودُ ليتفاعل فيه مع الجديد، صراعاً مكشوفاً بين القديم المترهّل المثقل بارتكباته، وقوى التحوّل والتقدّم وما تُبشّرُ به من تحرُّرٍ ومساواةٍ وعدالة اجتماعيةٍ وانعتاقٍ من أسرِ التحريم والموروثِ المخاتل. لم تكن قد اتّضحت في تلك المرحلة المبكرة بعد، مظاهرُ الصراعِ المستورِ والمواجهةِ المُضمرّةِ بين القوى السياسيّة المتحالفة المضادة للنظام القديم، والمصالح التي تربط بعضها مع قوى وامتداداتِ ذلك النظام، ممّا قد يجعل منها أدوات ارتداد، و"حصان طروادة" مُجهّز عمليّة التغيير والتحوّل الثوري. وكان صعباً على المثقف في ظروف الصراع الوطني التحرري المحتدم، أن يُميّط اللثام عن الأبعاد الاجتماعية والطبقية التي تتحكّم في الاصطفافات السياسية في وضع "محكوم بتناقضات مرحلة تداخل المصالح" التي تلتقي حول أهداف التحرّر واستعادة السيادة والاستقلال الوطني. وفي مجتمع تتحكّم فيه قيم وأعراف وتقاليد ما قبل الدولة، ولم تبرز فيه المعالم الطبقيّة المعبرة عن نزعات ومصالح طبقاتها وحواملها السياسيّة

التي تميّز بعضها عن البعض الآخر. وما كان سائداً في المجتمع العراقي في مشارف خمسينيات القرن العشرين، عشية ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ نهوض جماهيري معبر عن القوى المعنوية بالثورة والتغيير، يتداخل في إطاره تجمّع غير متجانس من حيث التركيب الطبقي والسياسي كان من شأنه إضفاء مزيد من التعقيد على المشهد ولوحة الصراع السياسي.

ولعب النظام السياسي الملكي شبه الإقطاعي شبه الاستعماري، دوراً في التمويه والاستقطاب والتمايز، فغياب الحريات السياسية - الحزبية وتفاقم مظاهر الاستغلال وانعدام العدالة الاجتماعية، وتمرکز الهدف الوطني العام حول إنهاء نظام التبعية والانصياع للأجنبي، لم يترك خياراً حراً مفتوحاً في الانتماء والانحياز للشرائح والأوساط الاجتماعية الأكثر وعياً واستعداداً للانخراط في الفعل الوطني العام، غير الانضمام إلى الحزب الشيوعي العراقي أو حمل مشروعه وشعاراته. فالاستقطاب تمحور في الخيار بين الحركة القومية العربية التي لم تنطو على برنامج اجتماعي جذري يلامس نبض أغلبية المجتمع المتسم بطابعه الفلاحي السائد، والفئات الطبقيّة من شغيلة اليد والفكر. وانعكس هذا الواقع بكلّ ملامساته وتداخلاته على المثقفين بشكل خاص لكونهم الأكثر وعياً وحساسية إزاء مظاهر الظلم الاجتماعي والقمع السياسي وانعدام الحريات. وجعل الغالبية منهم تنحاز إلى المشروع التغيير الذي كان الأكثر وضوحاً ببرنامجه الاجتماعي الاقتصادي وأهدافه وشعاراته السياسيّة في التعبير عما يتطلعون إليه من إصلاح وتقدم وتحولات اجتماعية وتطلعات شعبية، جسدت مبادئ وقيم الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعيّة والنزوع الإنساني. وزادت في قوّة المشهد وتعبيراته، الموجة العالميّة المُنبتة بانبثاق عصر جديد وانعطاف حادّ دشنته

ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا، وكرسته منجزات دولتها في سائر ميادين التطور والتقدم.

عاد علي الشوك من الولايات الأميركية إلى العراق، وهو مُشبع بالمعادلات والمنحنيات والأرقام التي أتت بها آخر علوم الفيزياء والرياضيات، وتكاملت مع انشغاله بمصادر الإلهام الإبداعي الثقافي كرافد آخر يُعمق إحساسه بالواقع الاجتماعي وما يسود فيه من أسباب التمايز والظلم ومصادرة الإرادة.

انضمَّ علي الشوك، وهو مهموم بكل هذه الهواجس، إلى الحزب الشيوعي، وصار من أبرز مثقفيه، وتحوّل إلى كادر قيادي منظم للمثقفين، وهو لم يكن بانتمائه هذا شذوذاً عن القاعدة السائدة، وإنما تعبيراً عن ظاهرة سادت الوسط الثقافي، بمفهومه العام والإبداعي، حيث بدا كما لو أنّ كل مثقف ومبدع، كاتباً كان أو روائياً، فنّاناً تشكلياً أو مسرحياً وممثلاً، طبيباً ومهندساً وأستاذاً جامعياً أو معلماً، عضواً في الحزب الشيوعي أو على مقربة منه. وصار المشهد يتسم بطابعه الغرائبي، وهو يوشّر إلى احتواء الحزب في تلك المرحلة لأبناء الإقطاعيين والملاكين الكبار وأبناء العوائل من الطبقة الوسطى والبرجوازية النافذة من دون استثناء أبناء النخبة الحاكمة وأصفياء طبقتها.

ابتدأت تلك المرحلة في وقت مبكرٍ مع الإرهابات الأولى لانبثاق بواكير الحركة الفكرية الماركسيّة منتصف العشرينيات من القرن العشرين وظلت تنمو وتوسّع لتصبح ظاهرة طاغية في الخمسينيات منه، لتبدأ مسيرة الانكفاء والضمور بعد الانتكاسة المروعة في انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ الدموي، حيث بدأت عمليات الانتقام الارتدادي

من الشعب العراقي على ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ من قبل حزب البعث العربي الاشتراكي بالنيابة عن حاضنته، المخابرات الأميركية، وكانت تلك لحظة الانهيار الذي لم يتوقف حتى يومنا هذا، أدت إلى تدمير كلّ بُنى التطوّر والتحديث، وتفتيت نواتج التحوّل والتقدّم الاجتماعيّ - الاقتصاديّ السياسيّ للعراق، وإجهاض حركتها وإفراغها من نزوعها التقدميّ.

كان علي الشوك ومجايلوه من الكتاب والمثقفين والفنانين يُعْنُونَ الحركة الثقافيّة ويمدّونها بكلّ ما يثريها بالجديد، مما يُعمّق من وعي المجتمع ويستنهض فيه عوامل التمرد على واقعه المشوّه المتخلف. وليس بمعزلٍ عن نهوض الحركة الثقافيّة السياسيّة، شهدت تلك السنوات منذ أوائل الأربعينيّات من القرن العشرين، ازدهاراً غير مسبوقٍ في كلّ ميادين الثقافة والمعرفة والتعليم، حيث انبعثت من العراق الحدائثُ الشعريّة ممثّلةً بريادة نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، وريادة المدارس الفنيّة في الحركة التشكيلية ممثّلةً بجواد سليم وفائق حسن ومحمود صبري، ونهوض المسرح بريادة حقي الشبلي ويوسف العاني وزينب و خليل شوقي وناهدة الرماح وسامي عبد الحميد. وقد كان بين أبرز مظاهر التقدّم في تلك المرحلة التطوّر في التعليم الجامعي، حيث برزت قاماتٌ تركت بصماتها في جيلٍ ظلّ مثلاً يُقتدى حتى يومنا هذا، إذ لن تنسى الذاكرة العراقيّة أسماء عبد الجبار عبد الله وعلي الوردي ومهدي المخزومي وعلي جواد الطاهر وصفاء الحافظ، ونخبٍ علميّة في ميادين الطبّ والعمارة والهندسة والقانون والصحافة والأدب وهي تحتلّ مواقع الصدارة في تاريخ العراق الحديث.

لم يستطع علي الشوك تحمّل التعذيب المروّع الذي تعرّض له في قصر

النهاية على أيدي زبانية الحرس القومي الفاشي البعثي، كما تعرّض له الآلاف من العراقيين، استشهد منهم من استشهد وتحوّل البعض الآخر إلى حوامل لجراحات جيل لم تكن جذوة الإيمان قد انطفأت في أعماقهم، بل ظلّت مصدرَ عذابٍ قد يفوق في لحظات استذكارٍ وبقظة، معاناة التعذيب والقسر، ومحاولات كسر إرادة الإنسان وهو يُحاول جاهداً الاحتفاظ بنقاوة ضميره ووجدانه.

لم تكن جريمة البعث تتمثّل في التعذيب والموت الذي غيّب الآلاف في قصر النهاية وأقبية أجهزة الأمن والمخابرات طوال عهدي حكمه فحسب، بل تجسدها أيضاً كسر إرادة الآلاف من أفضل العقول والكفاءات من المثقّفين والناس الأخيار، وجعلهم أسرى الإحساس بالذنب والانقطاع قسراً عن عوالم الحلم الذي راودهم، بسبب ضعف إنسانيّ أمام قطعانٍ من وحوش ضارية في هيئة بشر. وقد دفع المجتمع العراقيّ ثمناً باهظاً لتلك الجريمة، سواءً بشكل مباشر عبر حرمانه من طاقاتهم الخلاقية، أو ما انعكس في أوساطه من الآثار الجانبية التي أصبحت في حالاتٍ غير قليلة مظاهرَ مرصّية خلفتها حالات الانكسار الداخلي لمن حولتهم الوحشية البعثية إلى أفراد يتوارون في حواشي المجتمع، وينكفون على جراحاتهم الداخلية.

واصل علي الشوك، بعد خروجه الدامي من مجزرة قصر النهاية حياةً أراد لها أن تكون تجاوزاً وليس انقطاعاً عن ماضيه المضيء، محاولاً بكلّ ما فيه من طاقة الإبداع والتوق الإنسانيّ أن يُرّمّ انكساراته، خيباته، شكوكه وهو واجسه وتساولاته التي صارت كلّها عبئاً مضمناً في محيط يبعث على مزيدٍ من الشكوك. وكما كان عليه دائماً صار أكثر انكباباً على القراءة، لكنّ الموسيقى ظلّت المحرّك الذي يتسلّل إلى أعماقه

المُحِبَّة، فيعيدُ إليها السكينةَ والأحاسيسَ. بمعنى الوجود، وسحرِ الحياة وعنفوانها، وبقي الشوك رغم انشغالاته بترميم ما انكسرَ في روحه مشدوداً إلى عمليّة إبداعٍ خلاقٍ تشكّلُ قوّةَ تجديدٍ واستعادة عافية، فبدأ في كتابة الرواية، محاولةً منه بتجريب بناء حيواتٍ رأى في بعض أبطالها انكساراً قابلاً للمعافاة، وفي البعض الآخر كائناتٍ متمردةً على التقاليد، مرفوضةً بحكم العادة والمألوف.

قد ينسى علي الشوك في لحظات استذكاراته، وهو يرسم أبطاله أحياناً محكوماً بدواعي التمرد على كلِّ مألوفٍ، كما لو أنه يعيد صياغة بيئةٍ مضادةٍ لقوى كانت سبباً في أنكسارِ جيله، ولكنه إذ يفعل ذلك يُضفي ظلالَ شكوكٍ حول مدى براءة دوافعه الإبداعية، ويُعمّقُ عزلةَ أبطاله عن محيطهم التاريخيِّ وقد يُشوِّه دوافعَ سلوكه كروائيٍّ بإسقاط رغبته الشخصية على بعضهم وتلبيسهم طابعاً متخيلاً غريباً يضيق بهم زمن الرواية وأمكنتها..

انتقل علي الشوك إلى الرواية أملاً في بناء مختبرٍ لتشريح أبطالِ رواياته وإعادةِ تخليقهم مُضفياً على نماذج منهم، مجازاتٍ مقتطعةٍ من لوحة حياته وإسقاطاتها، فاته أن يعيش تجاربها، متحرراً من قيودِ فرضها انحيازُه الآيديولوجيِّ والتزامه الحزبيِّ.. وكان التشددُ والتزمُّتُ والازدواجيةُ السلوكيةَ معيارَهما ومحدداتِهما المفهوميةَ..

في أواخرِ السبعينيات، حين توضححت معالمُ سياسةِ نظامِ البعث الكارثيةِ، خرج علي الشوك من العراق إلى حيث يجدُ الحمايةَ الذاتيةَ من احتمال انكسارٍ جديد. وكأنه بموقفه هذا يُعيدُ إلى ذاكرته مشهدَ مواجهةِ جلادهِ في قصرِ النهايةِ، فيتحدّاه ويُظهره مجردَ شبهِ إنسانٍ،

مسخ، يتضاءل أمام ناظره فيسقط تحت ثقل جرائمه، مكسور الإرادة،
فيتعرى وينهار...

كان خروجُه من العراق تعافياً وإعادة تكوينٍ مُبرءٍ من عوالم زمنِ
التعثر والانكفاء وتجاوزاً للقطيعة مع قامته كإنسانٍ يسترده ما اغتصب
منه، والعودة إلى زمنِ التوهج..

يقول علي الشوك، كلما أراد أن يتوقفَ عند محطات إبداعه
الفكري والأدبي، ان كتابه " الأطروحة الفنطازية " يظل يحتل موقعا
أثيراً في مسيرة عطائه، فريداً من نوعه في العالم العربي، ويجد في
اعتراف كل من أدونيس ومحمود درويش بقيمة الأطروحة دالة تكرر
قيمتها وسعة تأثيرها. ويرى الشوك أن " الأطروحة الفنطازية " كرسته
كاتباً ذاع صيته بين أبرز مجاليه من الكتاب والمبدعين وجواز مرور إلى
عالم الكتابة والأدب. والأطروحة قد تصلح مفتاحاً لفهم شخصيته
التي تجمع بين الانفتاح على العلم المجرد المغموم بالمعادلات الرياضية
ومتاهات نظريات الفيزياء والإبحار في عوالم الأدب والفنون، ومنهما
تمكّن من تطويع علم الرياضيات لصياغة عمل أدبي رفيع المستوى.

علي الشوك، إذ يكتب في مذكراته أنه صار نزيراً "قاعة المعترفين"
تحت التعذيب، ويُقر بأنه لم يستطع الصمود أمام التعذيب، يُظهر زاوية
أخرى من سمات ناسِ الزمن الجميل وفضائله... إنه لم يُكابر ولم يدع
أو يُبرز ويسوق أكاذيب ليزين صورته كضحية نهج أو سياسة خاطئة
أو ممارسات فظة، بل اكتفى بأنه " اعترف " ..!

لكن هذا الاعتراف لا يكفي، فهذا هو يصف مشهد قائد شيوعي
جاء به من قاعة الصامدين بشموخ أمام الجلاد، محاولة في كسر إرادته

ليتفرّج عبر شاشة التلفزيون على اعترافات قياديّ انهار ؛ يقول علي الشوك: "لم يبق سوى دقائق ثم طلب بتعالٍ إعادته إلى محبسه"، مشمئزاً من دون أن يتشفّى..!

علي الشوك، وقد اختارَ المنفى، حاول أن يسترجع كل ما هو مُمكن من ماضيه قبل الانكسار، وإذا لم تكن رواياته تعكس عودة الوعي هذه أو أن بعضها خدش سريرة أصدقاء له ومُحبّين وأثارت في ما بينهم تساؤلاتٍ خارج سياقاتِ العمليّة الإبداعيّة، فإنّ مذكراته تردّ على هواجسهم إذ تعكس كينونة عصيّة على الانكسار.

بغداد / ١٤ كانون الأول ٢٠١٦

الفصل الأول

كانت الرواية هاجسي الأكبر طوال حياتي، وعلى مدى علاقتي بالكتابة. فأنا حين اتخذت قراراً في ان أصبح كاتباً، لم أفكر في كتابة أي شيء سوى الرواية. الكتابة عندي كانت تعني القصة أو الرواية. ولا أذكر ماذا كانت قراءاتي الأولى، لعلها كانت تافهة. فأنا بدأت أقرأ خارج إطار الدراسة المدرسية عندما كنت في السادسة عشرة أو السابعة عشرة. لكن الكتابات التي استهوتني كانت الأعمال القصصية، بعد ذلك بعام أو عامين، أي بداية السنوات الجامعية. كنت الآن أقرأ مجلة (الرواية) المصرية، وإصدارات دار الكاتب المصري. في مجلة (الرواية) تعرفت إلى عالم القصة الفرنسية، مثل كتابات موباسان، وفرنسوا كوبيه، وألفونس دوديه، وأندريه تيريه، الخ. واستهوتني كثير قصة (الراقصة الأندلسية) لأندريه تيريه. لا أزال أذكر المقاطع الشعرية فيها التي قالها بطل القصة الراهب الذي وقع في حب راقصة أندلسية:

كان أول أسباب ضياعي امرأة

ولا ضياع في الدنيا، يا حبيبة القلب

أجل لا ضياع

لا يأتي من النساء.

وقد تعلقت كثيراً بهذه القصة لأنني كنت مراهقاً. وفي هذه المرحلة أيضاً تعلقت بقصة (الحب الأول) لإيفان تورغينيف. ووجدتها أعذب وأحب عمل قصصي قرأته. وقد استهوتني كثيراً الغرابة موضوعها. فهي تروي قصة حقيقية عاشها المؤلف عندما كان في السادسة عشرة من عمره، وأحب ابنة جارتهم، الفاتنة زينايدا، كان عمرها ٢١ سنة. ثم يكتشف أنها كانت عشيقة والده. وشاهده يضرب بالسوط على ذراعها، ثم تقبل موقع الضربة. أذهلتني هذه القصة يومها، وأصبحت من أحب مفردات ثقافتي القصصية أو الأدبية. ثم قرأتها حديثاً، أي بعد أكثر من ستين عاماً على قراءتها الأولى. ولم تفقد روعتها. وقرأت عنها أن الكاتب الفرنسي غوستاف فلوير كان معجباً بها. وذكرت كونتيسة مقربة إلى تورغينيف أن إمبراطور روسيا نفسه قرأ القصة للإمبراطورة وأعجبت بها. لكن تورغينيف كتبها في سن النضج. وهذا يقدم تفسيراً لتسرعي في التفكير في كتابة شيء على غرارها عندما كنت في العشرين من عمري.

وقرأت قصصاً وروايات أخرى كانت تشدني أكثر إلى عالم الرواية. قرأت (قصة رجل مجهول) لأنطون تشيخوف، و(رسالة من امرأة مجهولة) لستيفان زفاينغ، و(دير بارم) لستندال، و(المقامر) لدستوفسكي، الخ. وهذه القراءات زادني حباً للرواية، ورغبة في أن أجرب كتابتها. لكنني كنت أدرك أنني أكاد أنشد المستحيل، لأن هذه

الروايات لا تمنح نفسها لحالم مثلي كان محدود الموهبة والتجربة. ثم عندما قرأت رواية (الأحمر والأسود) لستندال خيل إلي أنني قرأت المستحيل، وأني تعرفت إلى بطلة ليس لها مثل في كل الدنيا والتاريخ، بما أسبغه عليها المؤلف ستندال من مزايا استثنائية من بين كل النساء. أنا أشير هنا إلى شخصية البطلة (ماتيلد). وأثار فضولي واهتمامي ما قرأته عن الشخصية الحقيقية التي أوجت لستندال بشخصية ماتيلد. وأعني بها (ماتيلد دمبوفسكي) التي لم أحصل على معلومات عنها. لكن قصتها أدخلت في روعي أن كتابة العمل الروائي الرائع تتطلب أن تكون على معرفة بامرأة نادرة المثال في جمالها ومزاياها الأخرى. أيعني هذا أنك لكي تكتب عن شخصية روائية استثنائية مثل ماتيلد دي لامول، يتعين عليك أن تجد في الواقع امرأة يمكن أن تستنهض عندك القدرة على كتابة المستحيل أو المتعذر؟ إن المخيلة وحدها ليست قمينة بأن تخلق شخصية روائية مذهلة. لأنك لن تستطيع أن تقنع نفسك بمصادقية عملك الروائي. أنت ستخلق بطلة روائية مفتعلة إن كنت ستصنعها من عالم المخيلة فقط. لكنك ستشعر أنك أمسكت بالحلم إذا كان هذا الحلم له خلفية من واقعك المعاش... وأين هي تلك المرأة التي ستكون ملهمة؟ فأنا لا أعتقد أنني أستطيع أن أكتب رواية دون أن أعرف إلى امرأة ذات مواصفات خاصة، حتى لو كانت روايتي عن الرجال المعصوبي العينين.

لكن واقعي المعاش كان ما يزال ضئيلاً بأجواء الرواية التي أريد أن أكتبها، وسيتعين علي أن أوصل قراءتي وإطلاعاتي على الحياة. في بيروت قرأت أشياء من الأدب الروائي الفرنسي والروسي، وتعلمت شيئاً جديداً عن عالم اللغة، شيئاً مثيراً جداً للفضول: اشتقاق الكلمات،

معنى الوصول إلى جذورها الأولى. وكان أستاذاً الدكتور أنيس فريحة هو الذي غرس في هذه الهواية. سأقول: إن أحب درس في حياتي كلها كان درس التاريخ الإسلامي (باللغة الانكليزية) الذي درّسنا إياه الدكتور أنيس فريحة في جامعة بيروت الأمريكية، مع أننا ذهبنا لدراسة الهندسة. كان أنيس فريحة من الدارسين في جامعة شيكاغو العظيمة في دراساتها الاستشرافية. وكان هو متحرراً يوماً ذاك. فنسي أو تناسى تعليمات جامعة بيروت المتحفظة في تحررها. كان يفسر التاريخ من وجهة نظر علمانية. وكنت أنا أصغي إليه بمزيد من الاهتمام والارتياح، في اشتقاقه كلمة «الصراط»، وكلمة «الجن»، إلى آخره. ولفت نظري في تفسيره آية ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾... وإخترت هذه المعلومات والإستطرادات إلى يوم صرت أفكر في التعامل مع اللغة بصورة أخرى. وسأعترف بأن بيروت كانت مدرستي الأولى في التعامل مع اللغة ومع التاريخ ومع الأسطورة، وذلك بفضل البروفسور أنيس فريحة.

أما في بيركلي فكنت ذاهباً إلى الهندسة، على حدّ قول ماكس فريش في مسرحية (دون جوان عاشق الهندسة). لكنني لم أذهب إلى الهندسة بمحض إرادتي، بل اختاروها لي. لذلك تنغصت حياتي في السنة الأولى لأنني لم أكن عاشقاً الهندسة مثل دون جوان. كان هناك خطأ في فهم مزاجيتي العلمية. وأنا لم أكن كائناً عملياً. لم أفك برغياً في حياتي. بل كنت عاشق كتب. لذلك لم أنفَس الصعداء إلا بعد أن انتقلت من الهندسة إلى الرياضيات. وعند ذاك وجدت بيركلي أجمل مدينة في الدنيا. وأحببت بائعة الاسطوانات الموسيقية (زيدا) في محل (Tupper and Reed) وشغل بالي موضوع ميكانيك الكم

ومبدأ الاحتمية. وظل شاغلاً بالي طيلة حياتي. ولم يهدأ بالي إلا بعد أربعين عاماً، حين اكتشف أن مبدأ الاحتمية كان مبنياً على تجربة نظرية وليست مختبرية. وقد تم تنفيذ هذا المبدأ فيما بعد. وأنا كتبت كتاباً علمياً تحدثت فيه عن ملاسبات ميكانيك الكم في الفيزياء. ولست في صدد أن أدخل الآن في تفاصيل هذا الموضوع، بل أحب أن أتحدث عن توطد علاقتي بالموسيقى في بيركلي. أنا حين تحررت من كابوس الهندسة المعمارية، والهندسة المدنية، وأية هندسة أخرى، وانتميت إلى الرياضيات، صرت أحل المعادلات الرياضية على أنغام موسيقى: (آلام القديس ماثيو لباخ)، أو باليه بتروشكا لسترافنسكي، أو خماسية شوبرت، وأشعر بلذة ميتافيزيقية. وصرت أترنم في طريقي من البيت إلى الجامعة بأنغام بتروشكا، ولا أتوقف عنها. وفي واقع الحال إن سترافنسكي أصبح مقترناً عندي مع بيركلي والشوارع المؤدية من بيتي إلى حرم الجامعة. فأنا عشقت الموسيقى في بيركلي. وابتليت بلوثة موسيقية. ثم لازمتني هذه اللوثة الموسيقية طوال عمري، وفي أيام بيركلي كنت أذهب إلى دار الأوبرا في سان فرانسيسكو كل نهاية أسبوع. كنت أستقل القطار من شارع (شاتك) كل يوم أحد ليقلني إلى (الديبو) عبر الجسر في سان فرانسيسكو، ومن (الديبو) أذهب إلى دار الأوبرا. أوه، لقد شاهدت معظم أوبرات فيردي، وفاغنر، وموتسارت، وروسيني، وحتى أوبرا (بوريس غودونوف) الروسية، لموزورغسكي.

وعشقت مغنية الأوبرا الشقراء للي بونز. آه، نسيت أوبرات بوتشيني. وبالذات أوبرا (مدام بترفلاي). وفي الأيام الأخيرة من مدة بقائي في بيركلي ودعت كل شوارعها، لاسيما شارع (اللزورث)

الذي كان بيتي يقع عليه، وشارع تلغراف المؤدي إلى الحرم الجامعي،
ومخزن إسطوانات Tupper and Reed .

كنت في تلك السنوات الثلاث التي أمضيتها في بيركلي، وقبلها في
السنين اللتين أمضيتهما في بيروت، في إجازة عن الدنيا إلى اليوتوبيا،
وهذه الإجازة الفردوسية لم تتكرر في حياتي.

هناك شيء في سيرة حياتي لا أريد أن أنساه، أعني به السياسة. كنت
أنا ذا نزعة يسارية منذ أيام بيروت في الأربعينات، ومنذ أيام أميركا.
وعندما عدت إلى العراق تلقفني «الرفاق»، وأرادوا أن أكون واحداً
منهم. وأنا لم أبادر في أن أنخرط في عمل سياسي. كنت متجاوباً مع
الفكر الماركسي. ثم لا أدري كيف وجدتني منتماً إلى الحزب. وفيما
بعد أعطوني اسماً حزبياً. أردته أن يكون بعيداً عن مضامين النضال.
ومع ذلك بقيت أخجل من استعمال اسم آخري. وعندما علمت
أن اسم ستالين يعني «فولاذ» لم أرخ لهذا التبجح الكفاحي. ثم إني
لم أكن أنسجم مع طقوس العمل الحزبي كلها، ولا العمل السري.
لكنني تقبلت هذا العمل (عن غير قناعة فطرية)، بعد أن التحقت برفاق
مثل الدكتور صلاح خالص، ومحمود صبري (في مناسبات مختلفة).
ولاشك أنني كنت مقتنعاً بوجود خلل في حياتنا السياسية. فلم يكن
متاحاً لنا أن نمارس حياة ديمقراطية. ففي ١٩٥٤ جرت الانتخابات
البرلمانية. وذهبت أنا لأدلي بصوتي لممثل الحزب الوطني الديمقراطي،
وحوال خروجي من المركز الانتخابي، تقدم مني شرطيان يحمل كل
منهما بندقية، واقتاداني إلى مركز الشرطة. فرحت أردد: «هذا حكم
قرقوش» طوال الطريق، وفي داخل مركز الشرطة. فصرخ مفوض
شرطة من الطابق الأول المطل على الباحة: «اخرس»، قالها بالعامية،

التي تبدو أكثر إهانة. فرددت عليه بالمثل. فلم يكن منه سوى أن يهرع إليّ ليضربني بكف في وجهي. لكنني عاجلته وضربته أنا بكف. وهنا انبرى أفراد الشرطة ليعادوا بيننا. واقتادوني إلى غرفة معاون الشرطة، وكان من أسرة القريشي، وهو يعرف من أنا، ويعرف عائلتي. فافتعل الغضب، وأوقفني أمام أحد جدران الغرفة. ثم اغتتم المفوض المهان الفرصة، وانتقم لنفسه، فضربني بكف على وجهي. لكن هذه الحادثة لم تدم أكثر من ساعة، أطلق سراحي بعدها. وقد فاز في تلك الانتخابات عشرة نواب وطنيين. لكن نوري السعيد لم يحتمل فوزهم، فألغى الانتخابات، وأعلن الأحكام العرفية. وقد قرأت في مذكرات عبد الكريم الأزري، الذي فاز عن جبهة الحكومة، أن السفير الأمريكي فيليب آيرلاند، زاره فور صدور نتائج الانتخابات، ولعله كان قد زار الوصي على عرش العراق، وربما نوري السعيد أيضاً، ليقنعهم بضرورة إلغاء هذه الانتخابات، خوف أن يظهر بين المرشحين الوطنيين مصدق آخر.

ومن مظاهر الخلل الأخرى منذ تلك الأيام أن حزب البعث العربي الاشتراكي أصرّ منذ تأسيسه على أن يلعب دوراً تخريبياً في الساحة. فعندما عقد الحزب الوطني الديمقراطي مؤتمره (ولعل ذلك كان قبيل الانتخابات المشار إليها)، بدأ حسين جميل بالكلام. وهنا انبرى أربعة صبيان من أربعة أركان الصالة، وأخذوا يهتفون: «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة». وظلوا يهتفون بهذا الهتاف بلا انقطاع، إلى أن قرر حسين جميل إلغاء الاجتماع.

ومن مظاهر الخلل الأخرى أن حرية النشر والتعبير عن الرأي لم تجد متفهماً لها في أيام الحكم الملكي (أو نوري السعيد). فقد اتفق عدد من

مثقفي اليسار على إصدار مجلة ثقافية تحت عنوان مجلة الثقافة الجديدة. وصدر العدد الأول منها. وكان صدور هذه المجلة حدثاً في تاريخ الثقافة في العراق. وقد ساهم في تحرير هذا العدد مثقفون عائدون من أوروبا، مثل الدكتور صلاح خالص، والدكتور صفاء الحافظ، وإبراهيم كبة، وغيرهم. لكن السلطة عطلت المجلة، وعطلت كل شيء آخر. وبعد تعطيل البرلمان، أعلنت الأحكام العرفية. ودام إعلانها حتى ١٤ تموز ١٩٥٨، وهو تاريخ قيام ثورة تموز.

إنهم يتحدثون الآن عن تلك المرحلة، مرحلة العهد الملكي بحنين طاع. ونسوا أن حلف بغداد انعقد في تلك الأيام، أيام الأحكام العرفية، حيث تتعطل الحياة السياسية. ونسوا أيضاً أن العراق كان فيه نظام إقطاعي هو الأسوأ في العالم.

لكن الشرّ كان أهون بكثير مما هو عليه الآن. فأنا تعرضت إلى التنكيل في أواخر عام ١٩٥٦، لأنني لم أستجب إلى طلب الوزارة (طلب هذا من كل المدرسين) بتقديم قائمة بأسماء الطلاب الذين تظاهروا انتصاراً لمصر في قرارها تأميم قناة السويس. ونقلت إلى ثانوية عنة (نفيت في واقع الحال). لكنني أعدت إلى بغداد بعد ستة أشهر، بعد أن جربت الحياة في بلدة لم تكن فيها إسالة ماء، بل كنا نتزود بالماء من الفرات - وكان أحلى وأعذب من ماء دجلة - بواسطة ساق.

في تلك الأيام بدأت تصدر ترجمات منير البعلبكي الجميلة، وترجمات دار اليقظة في دمشق، الضخمة، أعني أعمال دوستوفسكي وتولستوي الكبيرة. سوى أن ترجمات دار اليقظة كانت مهملة في طباعتها الحافلة بالأخطاء المطبعية، ليست كمطبوعات دار العلم للملايين الأنيقة. وكنا نتلقف الإصدارات الأخرى من مصر ولبنان.

لاسيما إصدارات الألف كتاب. وكانت سعادتني طاغية بعد صدور ترجمة (الأحمر والأسود) المصرية. إلى جانب ذلك كله كنت أتابع بلهفة الإصدارات الشهرية لكتاب (الأغاني لأبي الفرج).

أما حياتنا في تلك الأيام التي سادت فيها الأحكام العرفية، فكانت بليدة ومملة، لكن ليس إلى حدِّ الاختناق، وأنا بدأت أشاغل نفسي في كتابة خواطر ليست للنشر، بل لي فقط، للتسلية أو للتجربة. ولم أطلع عليها أحداً، لأنني كنت أكتب بحرية مطلقة تقريباً. وبقيت أكتب هذه الخواطر على مدى سنوات. وبدأ لي يومئذ أن حياتنا لم تكن تستنهض الرغبة لكتابة شيء قصصي؛ أو لعلني أنا كنت ممتنعاً على هذا العالم. ثم إنني لم أكن قد تعرفت بعد إلى المرأة، التي ستصبح ملهمتي في كتابة الأعمال الروائية.

وصادف في تلك الأيام أن تنشأ لي علاقة مع شخص كانت نقطة تحول في حياتي، وحياته، كما أكد هو أيضاً. وأعني به الدكتور نوري السعدي. وكان واسطة التعارف زميلاً لي في التدريس كان صديقاً له، وقد حدثه عني بارتياح كبير على ما يبدو. فأحب نوري أن يتعرّف إليّ. أنا لا أدري إذا كانت قد حصلت علاقة صداقة في مجتمعنا في مستوى العلاقة التي حصلت بيننا. لكنني أملك أن أقول إن العلاقة الصداقية بيني وبين الدكتور نوري السعدي كانت لامثيل لها في الانفتاح الذي تم بيني وبينه. ولعلي عبرت عن هذا الموضوع جيداً بتوكيدي على كلمة «الانفتاح». فأنا كان وأصبح لي معارف و«أصدقاء» آخرون، لكن أيّاً من هذه العلاقات لم تكن منفتحة في مثل مستوى انفتاح العلاقة بيننا، فنحن أصبحنا نسر الآخر بما يدور في عقلنا الباطن. لم يكن هناك شيء محظور بيننا.

كان معجباً بثقافتني. وكنت أرشح له الكتب التي يحسن به قراءتها. كل قراءاته تقريباً. وعندما شاهد كستناءات موجودة على رف في مكتبتني، سألتني عنها. فأخبرته بأنني التقطها مما كان متساقطاً في حديقة لوكسمبورغ في باريس. فقال: «تعجبني مزاجيتك الرومانسية».

قلت له: «أنا أجد سعادتي في عالم القصص التي أقرأها. وكان اسم حديقة لوكسمبورغ في باريس، وكذلك غابة بولونيا، يتكرر كثيراً في القصص الفرنسية التي كنت أقرأها، وعندما زرت باريس في طريق عودتي من الولايات المتحدة أحببت أن أزور هاتين الحديقتين، وأحتفظ بشيء منهما للذكرى. أنا إنسان رومانسي بالفعل. ووجدت سعادتي في العالم الغربي، في آدابهم، وموسيقاهم، وفنونهم، إلى جانب تقدمهم العلمي الهائل».

«لكنك تستطيع أن تخلق عالمك الذي تريده هنا».

«نعم، هذا في الحد الأدنى، إذا تغلبت نزعتك الوطنية على النزعة الكوزموبوليتية. كما كان الحال معي. لكنني ضحيت بحياة أفضل وأسعد من حياتنا هنا».

«هل عدت لكي تساهم في بناء الوطن، أو تحريره إذا شيءنا الدقة؟»

قلت له: «نعم، مع إنني لست ممن يحبون العمل السياسي».

«أنا لأفهمك»

«أنت على حق. لكنني أنتمي إلى بيركلي أكثر من بغداد».

«هل وجدت أو تجد صديقاً مثلي في بيركلي؟»

«لا، لكنني أتحدث عن الحياة».

«ماذا تقصد؟»

فقلت: أنا عشت في مدينتين في فترة من حياتي، أعتبرهما من أفضل مدن العالم، هما بيروت، وبيركلي. هما متماثلتان في مواصفاتهما الجغرافية، لكن بيركلي ألطف كثيراً في الصيف. وقد وجدت سعادتي في بيروت والمدن اللبنانية التي زرتها كلها. لكنني سأفتقد بيركلي بلوعة. (أنا الآن أكتب هذه الصفحات وأنا أبكي، لأنني لم أعد إلى أحب مدينة إلي، ولم أزرها مرة أخرى. ودمعت عينايا حين قالت لي قريبة لي: إنها كانت في زيارة كاليفورنيا هي وأخوها، وزارا بيركلي، ثم قال لها أخوها: هذا كان بيت علي الشوك).

آه، يا إلهي. كيف يكون الحب. وكيف يكون الحزن حين تفتقد الشيء الذي تحبه؟. بيركلي كانت أحب إلي من كل النساء اللواتي أحببتهن.

قلت لصديقي نوري: في السنة الأخيرة من إقامتي في بيركلي كنت أجوب شوارعها في الليل في صحبة البروفسور الهندي الزائر كاليانبور، وأحياناً نفترق في نحو الساعة الرابعة صباحاً. علاقتي معه كانت علاقة تلميذ بأستاذ، ثم سرعان ما أصبحنا صديقين. وهو الذي أهداني كتاب (الدون الهادي) لميخائيل شولوخوف. وأحببت أن آخذ درساً (في الرياضيات) على يديه في السنة الأخيرة. وترك لي أن أقرأه وحدي. وعندما حان موعد الامتحان، اتصل بي، وأعفاني من الامتحان، وأعطاني B. كان ألمع بروفسور في جامعة بيركلي في علم الاحتمالات الرياضية. وكانت الجامعة توفده ليمثلها في المؤتمرات.

وعلمت أنه توفي بعد بضع سنوات. لكنني لا أذكر أنه كان يسعل.
كان شيوخياً؛ وكان عمه (أو خاله) الشخص الثاني في الحزب الشيوعي
الهندي. وكان من بين مودعيّ في محطة القطار عندما غادرت بيركلي.
«أنت تجعلني أشعر بالغيرة منه».

«لا، مطلقاً، أنا وهو لم نكن نتبادل الحديث عن مشاعرنا».

«وما هي الأشياء العزيزة الأخرى التي تفتقدها في بيركلي؟»

قلت له: كل ألوان السعادة. وكل الفرص التي تُتاح في واحدة من
أرقى المدن الجامعية في العالم. في اعتقادي أن السنوات الثلاث التي
عشتها في بيركلي قد تكون أجمل سنوات عمري. بالمناسبة أن أولى
محاولاتي في الكتابة كانت في بيركلي.

«أنت تكتب؟ كنت أتصورك كذلك. سوف نعود إلى موضوع
الكتابة، فأنا أريد الآن أن تشبع فضولي عن هذه المدينة الجميلة التي
صنعتك. أنت لا يبدو عليك أنك عراقي».

نعم، أنا لم أذهب إلى أبعد من كراة مريم، وباب المعظم، أو ربما
الإعدادية المركزية، منذ ولادتي حتى عام ١٩٤٧. ثم بعد ذلك
شاهدت نصف العالم، النصف المهم، وحطت رحلي على قيد
خطوات من المحيط الهادي. كانت رحلة طويلة جداً، عبر البحر
المتوسط، والمحيط الأطلسي، ثم عبر الأرض الأمريكية كلها. في كل
البحر المتوسط، من بيروت إلى لشبونة لم أقرأ سطرًا واحداً، لأن دوار
البحر لم يرحمني. لكن المحيط الأطلسي كان أرحم، فاستطعت أن
أتناول طعام الدرجة الثانية الفاخر، بعد أن كنت أتبلغ بالكليجة التي

زودتني بها أُمِّي، وأنا طريح الفراش. وقرأت كتاب (كل شيء هادئ في الجبهة الغربية)، وكتاب (عناقيد الغضب). وكانت الأيام الأربعة التي أمضيتها في القطار، من نيويورك إلى بيركلي، رحلة إلى اللانهاية. إلى أين أنا ذاهب؟ لقد أرسلوني من بغداد إلى الجانب الغربي من الولايات المتحدة لدراسة الهندسة المعمارية، بعد أن كفلني أبي بمبلغ خمسة آلاف دينار (في حساب تلك الأيام)، لأسددها إذا فشلت في دراستي.

سأتجاوز سنة الصعوبات التي واجهتها في دراسة الهندسة، التي لم أخلق لها ولاي شيء عملي، وأتوقف فقط عند درس الرسم الذي كنا نرسم فيه امرأة عارية، ذكرني بالقصص التي كنت أقرأها عن الرسامين وموديلاتهم العارية. ولدى انتقالني من الهندسة إلى الرياضيات وجدت طعاماً لحياتي في بيركلي.

ضحكت على طبيعة النظام الرأسمالي في أمريكا حين قرأت كتابة بالبرونز على بوابة الحرم الجامعي تقول: «هذه ملكية أعضاء مجلس جامعة بيركلي في كاليفورنيا». لكنني ذهلت حين قرأت إعلاناً - منذ اليوم الأول لوصولي - عن محاضرة يلقيها توماس مان عن روايته (دكتور فاوستوس) في قاعة الجمنازيوم. قلت: أية فرص ستتاح لي؟

«من هو توماس مان؟» سألني نوري.

«لعله أبرز كاتب في كل تاريخ ألمانيا».

كنت سأحضر محاضراته وأنا لم أقرأ له شيئاً بعد. كان عمري عشرين عاماً. وقلت: كم سيتعين عليّ أن أقرأ قبل أن أكتب. ومن المخجل أنني لم أقرأ شيئاً لتوماس مان إلا بعد ذلك بعدة سنوات. وكان أول شيء قرأته له (موت في البندقية). أشعرتني أنني لن أستطيع على الإطلاق أن

أكتب شيئاً يرقى إلى مستواها وكانت لغتها مستحيلة. واتضح لي فيما بعد أن (موت في البندقية)، و(دكتور فاستوس)، هما من أكثر كتابات مان وعورة. وهنا أذكر أن توماس مان ذكرني بأبي العلاء المعري بشكل ما.

لكن الأدب لم يكن صحيحة تلك الأيام، الفيزياء كانت صحيحة تلك الأيام. ربما كنت رجل علم في المقام الأول، أما الأدب فكان هواية مع أنه سيتجذر عندي فيما بعد. لكن الفيزياء ستشدني إليها هواية وفلسفة. فأنا بدأت أسمع وأقرأ عن ميكانيك الكم. وكانت جامعة بيركلي ملتقى لفيزيائيين مهمين جداً، مثل روبرت اوبنهايمر مهندس مشروع القنبلة الذرية. وأمامنا، على التل، السايكلترون الذي كان أول سايكلترون صنع. وأنا شاهدت العالم Serber الذي قال لطلابه - قبلي بعامين -: إنه شاهد الله في الحلم (لعله يقصد المسيح) وقال له الله: «ألا تذكرني؟ لقد تلقيت على يديك درساً في ميكانيك الكم!».

هذه هي أجواء بيركلي. وبالمناسبة كان أوبنهايمر يسارياً ومحسوباً على الشيوعيين. وهو قال للرئيس ترومان بعد إسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما وناغازاكي: «يديا ملطختان بالدم». فقال ترومان لوزير خارجيته أتشيسون: «لا أريد أن أرى ابن القنبرة ذاك في هذه الدائرة مرة أخرى».

لكن ميكانيك الكم كان مالى الدنيا وشاغلها، والثرثرة حول مبدأ الاحتمية. وهذا جعلني أرضي لنفسي عدم تخصصي في الفيزياء. وأعترف بأن الفيزياء أقلقني بالي يومذاك، لأنني كنت أو من بمبدأ الحتمية. فأين هو الخلل؟ هل هو في الماركسية، إذا كانت الفيزياء منيعة على الخطأ؟ لكنني وجدت ملاذي في الرياضيات والموسيقى.

وتعاميت عن فلسفة ميكانيك الكم ولكنني لم أستطع فيما بعد الوقوف على التل بالنسبة للأفكار المثالية التي كانت تبشر بها الفيزياء، فدرست ميكانيك الكم عن كثب، وبصرتني بالحقائق أيضاً التجارب التي أثبتت خطأ مقولات هايزنبرغ ونيلز بور حول مبدأ الاحتمية، وما يسمى بالمبدأ التكميلي، الذي يضرب على الوتر نفسه.

مع ذلك ستبقى الفيزياء شاغلة بالي إلى هذا اليوم، لأن المؤسسة العلمية الرسمية تبقى تصر على تبني المواقف والنظريات المثالية. وأنا أقول بهذا الصدد إن بيركلي عززت عندي المزاجية العلمية أكثر من النزعة الأدبية، إذا أخذنا بنظر الاعتبار دراستي الرياضيات. لكن بيركلي غرست عندي أيضاً الولع الهائل بالموسيقى. فأنا أصبحت كائناً موسيقياً بالرغم من أنني لا أعزف على أية آلة. وهذا الولع جمع بيني وبين الدكتور نوري السعدي.

هل إبتعدت عن الموضوع في استطرادي السابق. فأنا قلت لصديقي الدكتور نوري إن بيركلي كانت مدينة طوباوية في طبيعة الحياة التي كانت تحياها المدينة. إنها مدينة بلا آثام أو منغصات. فنحن كنا نضع أجور الحليب مع القناني الفارغة أمام باب الدار في الليل ليأتي بائع الحليب ويستلمها في الصباح دون أن يطرأ على باله أو بالنا أن يبدأ أخرى ستمتد إليها.

قال لي نوري: «غرامك الهائل بمدينة بيركلي ينقصه شيء، أو يضعفه. هو أنني لم أجدك في صحبة امرأة من بيركلي. ألم تقع في حب فتاة؟»

«وقعت وخاب ظني.»

«وتركت المحاولة؟»

قلت له: «أنا خجول؛ وأنا لم أستطع أن أتعلم الرقص».

«صراحتك تعجبني. لكن ألا ترى أن المدينة يمكن أن تفقد روعتها بدون امرأة، أو بدون حب».

«بقيت أحب التي خذلتني، وأحب بيركلي من أجلها».

«هذا يجعلني أرثي لحالك وكيف كنت تدير حالك؟»

«هذا موضوع مخرج».

«حدثني بلا مخرج».

«ذهبت ثلاث مرات إلى محلات بنات اللذة».

«ثلاث مرات فقط؟»

«نعم».

«وماذا تفعل الآن، تعاشر يدك؟»

«نعم».

ثم سألتني إن كنت شاهدت امرأة سوداء راجعته اليوم في العيادة. كنت أنا في انتظاره في العيادة إلى أن يفرغ من عمله. لاحظت تلك المرأة السمراء بعباءتها كانت مليحة الوجه. قال لي انها كانت تقوم بأعمال منزلية عندهم لقاء أعطيات مالية وعينية. وهي نظيفة، ولها جسد جميل. فإذا استلطفتها، فسيحدثها عني. وهي لا ترفض له شيئاً.

الفصل الثاني

اتصل بي نوري السعدي، وأخبرني بأن (ط) ستكون في العيادة ليعرفها بي. والتمس أن أحمل له نماذج مما أكتب. كان قد علم أنني أكتب خواطر لِنفسي فقط، واستبد به الفضول لقراءة سوانحي. وأنا كنت الآن قد كتبت عدداً من هذه السوانح. كتبتها بغير تحفظ، كنوع من الكتابة «العارية» أو «الإباحية». والحق أنني كنت أتردد في كتابتها. لكنني تخليت عن ترددي بعد أن أدركت أن أحداً لن يقرأها. وعندما أخبرت نوري السعدي بطبيعة هذه الكتابات استبد به الفضول لقراءتها. ولم أمانع.

كانت (ط) موجودة معه في غرفة العيادة عندما أخبر الفرّاش بأن أتفضل بالدخول. وكنت أنا أحمل أوراقِي في ملف.

قال لها نوري السعدي: «هذا (الأستاذ علي)، لا مثيل له بين كل العراقيين. ولو كنت تقرئين لاستأذنت منه بأن يتيح لك قراءة أوراقه، التي أنتظرها بلهفة».

قالت: «أنا سعيدة في كل الأحوال بالتعرف إليه».

وأصبحت (ط) من معارفي المفضلات.

التواضع يمنعني من أن أنقل انطباع نوري السعدي عن أوراقي، سوى أنني سأعترف بأنه ذهل بها. وأكدت له بأني سأكتب له وحده، ما دام هو الوحيد الذي يتفهم هذه الاعترافات. كنت لا أعرف أن أكتب للآخرين. فبقي هو قارئ الوحيد، إلى أن حدث ما لم يدر في الحسبان.

وسأتطرق الآن إلى ذكر صديق عزيز آخر تم التعارف بيني وبينه منذ أيام الدراسة في جامعة بيروت الأمريكية. وسأحجم عن ذكر اسمه تجنباً للحساسيات. هذا الصديق أصبح ثالثنا. وأصبح مثلي يزور بيت نوري السعدي. وتعرف إلى أخواته، مثلما تعرفت أنا إليهن. ولست أدري كيف سبقني إلى خطبة أخته الصغرى، التي سأطلق عليها اسم «إفروديت»؟. ربما لأنني لم أكن أفكر في الزواج يومئذ. فماذا فعل صديقنا نوري السعدي؟ أخبرني برغبة صديقنا المشترك في طلب يد أخته «إفروديت». ثم قال لي: «لكنني أتمنى أن تكون أنت زوجها، فما رأيك؟».

عند ذلك شعرت بحب فوري وطاغ لإفروديت. وأنا سميتها إفروديت لأنها تشبه الفتاة في لوحة بوتشيللي (إفروديت تخرج من القوقعة). وعلقت نسخة مصورة عن اللوحة على أحد جدران غرفتي.

قال لي نوري السعدي: «أنا لا أحب أن أرفض طلب صديقنا. فهل تستطيع أنت أن تخبره بأنك تود أنت أن تطلب يدها؟».

قلت: «نعم، رغم حرجي».

وعندما فاتحت صديقنا المشترك بأنني كنت متعلقاً بإفروديت بصمت، ويسعدني أن تنازل أنت لي عن طلب يدها. قال لي على الفور: «لك ما تريد». ولم أنس هذه البادرة النبيلة منه. وصرت أكتب إلى الصديق نوري السعدي خواطر كلها غزل بأخته. وكان هذا شيئاً عادياً بيننا. وإفروديت كانت الآن قد أنهت الدراسة الثانوية بتفوق. ورشحت لدراسة الرياضيات في بريطانيا على نفقة الدولة. وأنا رحت أفكر في أن أقدم لدراسة الدكتوراه في الأدب العربي في بريطانيا إذا تم اقتراي بها. ثم فاتح الصديق نوري السعدي أمه وأباه برغبتي في طلب يد «إفروديت» وعندما شاع الخبر في العائلة، ثارت ثائرة شقيقتها الأكبر منها لأنني تجاوزتها. والظاهر أنها كانت على علم بموضع أوراقتي التي كنت أكتبها إلى نوري السعدي فأعطتها لأمه لكي تعطيتها إلى أبيها، ليرى كيف أتغزل أنا بأختها الصغرى أمام أخيها ويتقبل ذلك.

وبعد أن قرأ أبوها أوراقتي، انهيار كل شيء، بعد أن كنت في أمل أن يتم قراني بإفروديت، وأفكر في مرافقتها إلى بريطانيا لدراسة الأدب العربي، لمرحلة الدكتوراه. فتصدعت أحلامي وانتكست آمالي، ولا أذكر كيف تماسكت. حدث هذا في ١٩٥٨. وربما كان لتداخل الأحداث يومذاك دخل في تماسكي. ففي تلك الأيام صدرت مجلة (الثقف) التي كنت أحد أهم مؤسسيها. وحدثت ثورة تموز. وأنيط بسي. بمركز مهم في مديرية معارف لواء بغداد. هذه الأحداث شغلتنني وانقذتنني من الانهيار. لكن الجرح لم يندمل. وقررت الامتناع عن الزواج بعد أن خسرت إفروديت.

هل وجدت ملاذي في الأدب؟ وماذا كان يضمه لي مستقبلي

الأدبي؟ كان ممكناً أن أحقق حلمي في كتابة عمل روائي أو قصصي على غرار (الحب الأول)، في إطار القصة التي وجدتها متورطاً فيها. لكنني لم أستطع أن أكتب فضيحتي. وماذا كان مصير أوراقي؟

انتهت الخواطر التي كنت أكتبها للصديق نوري السعدي وأصبحت كاتباً أكتب للقراء، بمعنى الآخرين. وسأكتشف أن طريق الكتابة طويل وبطيء. فأنا مستعد للتكرار لكل ما كتبه في الخمسينات والستينات. بما في ذلك كل ما نشرته في الصحف وفي مجلة المثقف. هذا مع أن مجلة المثقف نالت حظوة بين الكتاب والمثقفين العراقيين. لكن ما هي قيمتها الآن؟. حقاً إن نتاجنا الثقافي كان متواضعاً في تلك السنوات. وقد استثنى الشعر العراقي الذي قدم إنجازاً مهماً في الشكل. لكنني لا أعتز به كثيراً.

أنا الآن نشرت أكثر من عشرين كتاباً، كلها كانت بعد عام ٧٠، باستثناء كتاب (الدون الهادي) الذي أسهمت في ترجمته مع أمجد حسين، وغانم حمدون. نشر هذا الكتاب في الستينات، وأظنه طبع ثلاث طبعات، وحقق رواجاً بين القراء. أنا لا يحق لي أن أعتز بدوري، لأنني لم أكن أفضل من أمجد وغانم في ترجمتي، ولأن أمجد قام بترجمة جزأين من الكتاب. أما الجزآن الآخران فقد قام كل من غانم ومني بترجمة جزء منهما. وكانت مراجعتنا الترجمة من أحب الأيام التي كنا نلتقي فيها في منزل أمجد حسين، على سطح داره في أيام الصيف السابق لانقلاب ١٩٦٣ المريع.

وربما كانت أيام العمل في مجلة (المثقف) شيئاً مسلياً بالنسبة لي، لأن المجلة كانت في إطار ما «مجلتي». وهذا الإحساس أعاد إليّ ذكرى كتابة خواطري، مع فارق الحرية.

كان هناك شعور بالطمأنينة المؤقتة طوال حكم عبد الكريم قاسم، لأن الصراع بين اليسار واليمين بدأ منذ اليوم الأول للثورة (أنا أسميها ثورة بتحفظ رغم أن جورج بطاطو اعتبرها ثورة). من المعلوم أن تنظيم الضباط هو الذي قام بالثورة. لكن هذه الثورة حظيت قبل قيامها بتأييد ودعم من أحزاب الجبهة الوطنية المحظورة، وهي الحزب الشيوعي، والحزب الوطني الديمقراطي، وحزب الاستقلال القومي، وحزب البعث. أما قائد الثورة عبد الكريم قاسم فلم يكن ذا اتجاه معين، سوى أنه لم يكن ذا نزعة «قومية»، وبالتالي لم يكن من المؤمنين بحكومة الوحدة مع عبد الناصر. وهنا انقسم الضباط ففتين، وكذلك الشارع، فئة قومية تؤمن بالوحدة (ربما إيماناً ديمagogياً، لأنها لم تنفذ شعار عندما وصلت فيما بعد إلى الحكم)، وفئة لا تريد الانضمام إلى وحدة عبد الناصر بعد أن لمست فشلها بين مصر وسوريا. أنا أدخل في هذه التفاصيل لأنها دخلت في شرايين كل عراقي. وجرت محاولات قومية لقلب نظام الحكم، كانت أخطرها محاولة عبد الوهاب الشواف في الموصل، التي حظيت بدعم من حكم عبد الناصر، لكنها قمعت وقتل الشواف. وهنا شهد الشارع انفجاراً يسارياً هائلاً أورث الرعب في نفس عبد الكريم قاسم، والدول الرأسمالية، وربما حتى الاتحاد السوفييتي الذي لم يكن يريد ثورة «شيوعية» قد تخرجه.

منذ ذلك الحين شعرت أنا في خلفية أعماقي أن الشيوعية العالمية حلم لن يتحقق. لقد حدثت ثورة في كوبا، لكنها كانت خارج إرادة السوفييت، رغم أنهم ناصروها. وكان من الممكن، بمزيد من الثقة، أن تتحقق ثورة اشتراكية في العراق منذ النصف الأول من عام ١٩٥٩. لكنها لم تحدث، ربما لأن السوفييت لم يكونوا على استعداد للدخول

في مأزق مع الرأسمالية في منطقة حساسة جداً. وإلا لماذا لم تتحقق
الاشتراكية في العراق، مع أنها أيسر من شرب قدح ماء كما يقول المثل
العراقي؟

بعد فشل محاولة الشواف أبعده عبد الكريم قاسم العناصر القومية عن
المراكز الحساسة في الدولة. لكنه لم يتح للشيوخ عيين أن يحلوا محلهم،
باستثناء الدكتورة نزيهة الدليمي التي تم تعيينها وزيرة للبلديات.
وتم تعيين ضابط ديمقراطي النزعة، هو محيي الدين عبد الحميد وزيراً
للمعارف، وهذا الوزير عين موظفين ديمقراطيين. وأنا كنت من بين
من أشغلوا مراكز حساسة في وزارة المعارف. لكن هذا العرس لم يدم
طويلاً. فقد ارتعب قاسم من الطوفان اليساري، وقلب لليساريين ظهر
المجن. وأنا كنت من بين من تم التنكيل بهم. نقلت من مركزي كمعاون
مهم لمدير تربية لواء بغداد، إلى مدرس في ثانوية الديوانية، تحت رحمة
حاكم عسكري سيء الصيت، إلا أنني رفضت الالتحاق بوظيفتي
الجديدة، واعتبرت مستقيلاً من المهنة. وتفرغت للعمل السياسي،
والكتابة الأدبية للصحافة والدوريات.

و ذات يوم، بينما كنت في جلسة غير رسمية مع أدباء زملاء، كان من
بينهم الدكتور علي جواد الطاهر، في صالة اتحاد الأدباء، وقد فاتني أن
أشير إلى أن مقر اتحاد الأدباء العراقيين، كان مقرّ حلف بغداد. أقول:
بينما كنت في صحبة عدد من الزملاء، دخل الصالة رجل بلباس مدني،
وتوجه مباشرة إلى مجموعتنا، وقال: «من هو الأستاذ علي الشوك،
رجاء؟».

فقلت: «أنا».

قال: «ممكن أن تفضل أستاذ للكلام مع السيد المعاون لمدة خمس دقائق».

فرفضت الإستجابة.

إلا أن الدكتور علي جواد الطاهر تدخل واقترح أن أذهب مع هذا القادم الثقيل. فأدركت أنه ليس من صالحني ان أصر على عدم الاستجابة، ما دام أحد أعضاء الهيئة الإدارية ينصحني بذلك، وبالتالي لم يكن علي استعداد لنصرتي. واستغرقت هذه الدقائق الخمس مع المعاون واحداً وأربعين يوماً أمضيتها في المعتقلات.

لكن القصة كانت أبعد من أن تدخل في حسابي. فأنا الآن أتعرض إلى أكبر إساءة ومهانة في حياتي. وأنا أحمل عبد الكريم قاسم مسؤولية هذه الإهانة التي ارتكبت في حقي. لقد اقتادوني إلى دائرة الأمن. وتركوني في معتقله مع صبيان. وفي صباح اليوم التالي نشر الخبر التالي بالخير الأحمر وبالخط الغليظ في واحدة من الصحف المأجورة، العنوان الآتي، علي الشوك يسرق أسئلة الامتحانات الوزارية، ويبيع السؤال الواحد بمبلغ خمسة دنانير في ساحة التحرير.

لكن هذا الخبر المخلوق لم يفبرك بشيء من المصادقية. إذ كيف يجروا أحد على بيع أسئلة محاطة بسرية تامة في أشهر ساحة في البلد؟ وماذا يعني هذا؟ ألا يعني انحطاط مستوى مديرية الأمن في العراق، وانحطاط مستوى المسؤول عنها، وانحطاط أكبر مسؤول في الدولة. ولماذا أنا بالذات؟ ناشرو الخبر لم تهتمهم درجة معقوليته. كان يهمهم تلطيخ سمعتي بالأساس. وقد أفلحوا في ذلك.

وهم كانوا يعلمون من سرق الأسئلة. ولم يكن يهمهم محاسبتهم، أو

لعلهم حاسبوهم بعد أن ضربوا ضربتهم معي. وهم ظنوا أنهم أحرقوني في ضربتهم هذه. ولعلهم نجحوا في مسعاهم، لاسيما بين كارهي اليسار. وأمضيت ٤١ يوماً أنتقل بين المعتقلات، كان أحدها سجن الناصرية. لكن البلد لم يكن يخلو من فاعلي الخير. علمت أن والدتي ذهبت إلى منزل أمر القوية الجوية جلال الأوقاتي، والتمست منه أن يتدخل لإطلاق سراحي. ففعل، لأنه كان يعرفني (وهو كان شيوعياً).

مع ذلك تشكلت لجنة من كبار موظفي وزارة المعارف للتحقيق معي. واقتادني شرطي مكبل اليدين إلى داخل الوزارة، التي كنت أحد أنبل موظفيها. وشاهدني كل الموظفين أدخل الوزارة بالأصفاة. لكنني كنت أصرخ في وجوه لجنة التحقيق، وهم يحاولون تهدئتي.

عندما أبعث عبد الكريم قاسم العسكريين ورجال الشرطة اليساريين من المراكز الحساسة في الدولة، واستبدلهم بعناصر مشكوك بولائها له، فقد القاعدة التي تسانده وتردع المؤامرات التي تحاك ضده. ولم يكن عبد الكريم قاسم وحده معرضاً إلى خطر التآمر عليه، بل وجد اليسار نفسه في مأزق أيضاً، لأنه أصبح هو وعبد الكريم قاسم في سلة واحدة في مهب رياح التآمر. وناقش الرفاق مصير الجمهورية أو الثورة أو الوضع القائم، المترنح. هل يستطيع الحزب الدفاع عن النظام أمام المخططات المعدة للإطاحة به؟

لسوء الحظ إن الحزب قدم تقريراً متفائلاً لقواه والقوى الداعمة للدولة. ومرة أخرى طرحت فكرة القيام بحركة لاستلام السلطة خوف ضياع كل شيء. لكن التغيير رفض.

وكان انقلاب ١٩٦٣، أكبر مأساة في تاريخ العراق الحديث. كان

مجزرة رهيبة للشيوعيين، ومحنة لكل الديمقراطيين. أنا أعتقلت وعذبت في (قصر النهاية)، ولم أنج من الموت تحت التعذيب البشع إلا بعد أن قدمت «اعترافي». وقد قتل تحت التعذيب الوحشي (بتحطيم رأسه) عبد الرحيم شريف منظم لجنتنا الحزبية المسؤولة عن العمل الفكري في الحزب. وأخبرني رفيق أن رفيقنا عدنان البراك، عضو لجنتنا، والصحافي اللامع، دفن وهو حي (ولم أتيقن من هذا الخبر من مصدر آخر).

أمضيت عامين في الاعتقال، تسعة أشهر تحت حكم البعث؛ والبقية تحت حكم عبد السلام عارف. وكان حكم الأخوين عارف أكثر كلاسيكية في التعامل مع الشيوعيين. كان يطلب من المعتقل أو السجين لإطلاق سراحه تقديم براءة من الشيوعية والحزب الشيوعي، وغالباً ما تكون تحت شروط مهينة. أذكر أن أحد زملائي منذ أيام أمير كا طلب منه الإعلان عن براءته من الشيوعية في المحكمة. وعندما أعلن المسكين (وهو دكتور في علم الأحياء)، صرخ فيه القاضي العسكري: «بصوت أعلى، حقير». فلم يكن من المسكين إلا أن يهتف بصوت أعلى، بعد أن تلقى ضربات وركلات من الجندي المرافق له.

وكان الصديق نوري السعدي يحاول أن يتحين فرصة لإطلاق سراحه، إلى أن اهتدى إلى محام على معرفة بالقاضي (م. د. ع). وهو من حملة شهادة الماستر في القانون من أميركا، وصديق لأحد القضاة الذين أحيلت إليهم قضيتي للنظر فيها (كان القاضيان الآخران عسكريين). واستطاع (م. د. ع) أن يحصل على كلام من صديقه المسؤول عن قضيتي بأن لا أخرج بالطلب مني بتقديم براءة. وقد التزم بذلك. وأطلق سراحه بعد أن نصحتني المحامي بأن أمسك عن الكلام إذا حاول أحد الحكام توجيه تقرير لي. وبالفعل لزم الصمت عندما قال لي أحد القضاة: «اعمل بشرف».

فانتني أن أذكر أن محاولة لإطلاق سراحني تمت قبل ذلك التاريخ بعام عندما كنت معتقلاً في ما يسمى بمعتقل خلف السدة، الذي كانت ردهاته مقراً لأفراد شرطة النجدة. كان الصديق فؤاد التكريلي قد عين قاضياً للتحقيق في قضايا معتقلي خلف السدة، وذلك بعد انقلاب عبد السلام محمد عارف على البعثيين. فأرسل في طلبي لمواجهته، وقال لي: أنه سيحشر اسمي بين عشرات الأسماء الأخرى التي رفعها إلى الحاكم العسكري لإطلاق سراحها. وعندما أرسلنا خبراً إلى عائلتي بالاستعداد لاستقبالي. كان فؤاد قد اتصل بوالدتي عن طريق تلفون أحد أقاربي لأن تلفوني الخاص صودر. خرجت أمي من هذا البيت متهللة الأسارير. وحين شاهدتها ابنة أختها، سألتها عن الخبر، فأخبرتها أمي بوشوك إطلاق سراحني. فلم يكن من ابنة أختها إلا أن هرعت إلى بيتها لتخبر زوجها بأن يعرقل إطلاق سراحني. واتصل زوجها، وهو ابن عمي، بدائرة الحاكم العسكري، وأخبرهم بأنهم سمعوا بخبر إطلاق سراح فلان الوشيك، وهم لا يحبذون ذلك، لأن (فلاناً) عنصر خطر على الدولة. فأجهض إطلاق سراحني، ووجه لوم للقاضي فؤاد التكريلي. للإيضاح أن ابنة خالتي هذه كانت هي السبب في اعتقالني، لأنها أخبرت أخويها (من أم أخرى) باختفائي عندهم. فألقي القبض عليّ، واقتادوني إلى (قصر النهاية) فوراً. كلا، لم يرسلوني إلى قصر النهاية فوراً، بل إلى مقر نقابة المعلمين، لأنني كنت معروفاً في إطار علاقتي بهذه المهنة، وفي عملي في مديرية معارف لواء بغداد، وربما أهم من ذلك التهمة التي ألصقت بي حول سرقة أسئلة الامتحان الوزاري. وفي نقابة المعلمين كان هناك وبش فرح جداً بـ «ثورتهم». يتلقى النداءات من تلفون، ويتصل هو الآخر، وفي إحدى مكالماته قال: «معني الآن جزار، سأرسله إليكم».

لماذا لم أقتل نفسي قبل الآن؟. كان يتكلم مع (قصر النهاية). لماذا لم أحمل معي موسى حلقة؟ كلا، لم أفكر في تلك الساعة في موسى الحلقة. هذه الفكرة واتتني في قصر النهاية.

«هل تحب أن تحدثني عن همومك؟» قال لي صديقي نوري السعدي عندما إصطحبني في سيارته الموسكوفتش من المعتقل إلى البيت.

«لا، أريد أن أستمع إلى مقطوعة موسيقية.»

«ما هي؟»

«ترومراي لشومان.»

«لماذا هذه بالذات؟»

«لأنها كانت تترجع في رأسي دائماً، وتذكرني بوقتني أمام نافذة الطابق الثالث في بناية Bliss Hall في جامعة بيروت الأمريكية، وكنت أترنم بها هناك وأنا أتطلع إلى البحر...»

«سنستمع إليها. لكنني أريد أن تحدثني عن عدنان البراك. هل شاهدته في قصر النهاية؟»

«لا، لقد تمت تصفيته قبل وصولي بأسبوع.»

«مع ذلك، أريد أن تحدثني عنه، لأنك تعرفه جيداً.»

«سأحدثك عنه.»

أودّ أن أشير إلى أن عدنان البراك كان زوج (س) أخت نوري السعدي. وهنا سينكأ نوري السعدي جرحاً قديماً عندي يعيدني إلى

أيام غرامي بأختها «إفروديت»، كما ذكرت ذلك من قبل. ولأن (س) بقيت تحقد عليّ طيلة حياتها، حتى بعد أحداث قصتنا هذه. لكنها فاجأتني ذات يوم بدخولها إليّ في غرفتي في مديرية المعارف، في صحبة عدنان البراك، تلتمس مني أن أمنحها إجازة في مناسبة زواجها من عدنان. كانت هي معلمة في مدرسة ابتدائية. وكانت مثل هذه المعاملات تتطلب موافقتي.

في بيتنا عانقت أمي، وأبي، وإخوتي، وأخواتي. وكانت أمي قد أعدت مائدة غداء، دعي إليها نوري السعدي. وعندما دخلت غرفتي التي كانت ما تزال فيها صورة (إفروديت خارجة من القوقعة) لبوتيشيلي، فوجئت بوجود بيانو في غرفتي. أيقنت على الفور أنه هدية من نوري السعدي في مناسبة إطلاق سراحني. دمعت عينا، وقلت لصديقي: «شكراً».

هذه العلاقة بيني وبين نوري السعدي تجعلني أنسى كل همومي، وكل المآسي التي تعرضت وتعرضنا لها. وبالفعل أصبحت أكتفي بهذه الصداقة في حياتي. وأنا أعلم كم أنا عزيز عليه.

عندما انفردنا وحدنا حدثته عن عدنان البراك. لم يكن كتاب صالح ذكلة قد صدر بعد. في هذا الكتاب ذكر صالح أن سبب تصفية عدنان البراك يعود إلى شهادة في حقه ذكرها «رفيق» منهار. عندما سأل المسؤولون البعثيون في (قصر النهاية)، هذا «الرفيق» المنهار من أكفأ الشيوعيين، بمعنى أخطرهم في نظرهم، ذكر «الرفيق» المنهار اسم عدنان البراك في المقدمة. فقرر المسؤولون البعثيون تصفيته.

أنا أعتقد أن أقدر الكتاب اليساريين في الكتابة كانوا عدنان البراك،

وعامر عبد الله، وعبد الجبار وهبي، وربما سلام عادل، وسأذكر عزيز الحاج الذي سقط من عيني بسبب تهافته؛ سأذكر أيضاً فخري كريم الذي برزت موهبته في الكتابة بعد ذلك الجيل. ولعلي في حاجة إلى مشورة فخري في ذكر أسماء لامعة أخرى فاتني ذكرها. لكنني أذكر أن عدنان البراك كان روح جريدة (طريق الشعب)، مع أنني لم أسمع منه إشارة إلى إسهاماته الكتابية.

كان نوري السعدي يريد أن يعرف كل شيء عن عدنان البراك، ليس لأنه زوج أخته، بل إيماناً منه بأنه أحد أفضل وأنبل وأمع الشيوعيين الذين خسرتهم الحركة اليسارية. وهو، نوري السعدي، كان يعتقد أن أخته لا تستحق رجلاً مثل عدنان. لكن كل أو معظم حالات الزواج تفتقر إلى بُعد النظر، بما في ذلك تجربة زواجه هو، نوري السعدي.

لكن ظروف تصفية عدنان يكتنفها الغموض. لذلك أحب نوري أن يبحث الموضوع معي، بعيداً عن المزايدات والميلودراما. في الليل أحب أن نسهر سوية عنده، لشرب الويسكي، والحديث عن عدنان. وكنت أنا بي عطش للموسيقى بعد أن دام انقطاعي عنها سنتين. فطلبت من نوري أن يسمعنا شيئاً مما لديه من إسطوانات. أسمعنا (ليليات) لشوبان. قال لي: إنه لم يستمع، أو لم يكذب يستمع، إلى الموسيقى في فترة غيابي. وهو يشعر أن كل شيء يكون له طعم بحضوري. لكنه يعلم أيضاً أننا الآن معطوبون. فهل نستطيع أن نقتنص هنيهات من واقعنا لننسى الجرح؟

قال لي: «هل ستنتهي إلى البيانو؟ أنا فكرت في أن أوفر لك آلة لتجد فيها ملاذاً لك (وضحك) على أن لا تشغلك عني!»

ضحكت. هو أجراً مني في الإعراب عن مشاعره. وفي واقع الحال إنني وجدت في هديته أعظم سلوان لي، ومحفزاً على الانتماء الكلي إلى الموسيقى، الآن حيث تكون نهاراتي بلا عمل. لكن ما أحب هذه الحرية النسبية، بعد إطلاق سراحني.

سألني: «هل ستكتب؟»

«لا أجد حافزاً الآن. سأمضي كل وقتي مع البيانو، مع أنني سأبدأ من الصفر».

«متى سأستطيع أن أسمع خربشاتك المقبولة؟»

«لا أستطيع أن أعدك».

«أخبرت سميرة عن إطلاق سراحك، وأحبت أن تراك».

«أنا حاضر».

سميرة هي مراجعة، أصبحت محبة. وكان يتيح لها أن تقرأ أوراقني، وذهلت لصراحتي المطلقة في التعبير عن مشاعري. وصارت ترقب المزيد من تلك الأوراق. وهي أجمل عراقية وقع بصري عليها. كانت تشبه آنا كارانينا كما وصفها تولستوي، لكنها أقصر منها. وقلت لها ذلك، فتمنت لو كانت هناك ترجمة للكتاب إلى العربية. وهي تحب القراءة كثيراً. لسوف أعود إليها فيما بعد.

«والآن، هل ستحدثني عن عدنان؟» قال نوري.

قلت: «نعم».

قال: هل وقفت على أثر أو خبر عن عدنان في قصر النهاية؟ أريد

شاهداً عن بعد أو قرب. وأنت قلت إنك وصلت قصر النهاية بعد غيابه أو تغييره بأسبوع. فما هي معلوماتك أو مسموعاتك عنه؟.

قلت له: أنني أدخلت إلى صالة «المعترفين»، أو من أصبحوا على استعداد للاعتراف. وفي تلك الصالة لمحني من الباب الرفيق (...).، فأشار إليّ بالجلوس إلى جانبه. وبقيت أياماً في تلك الصالة في جواره، ولا أذكر كيف جيء لي بجودلية للجلوس وللنوم عليها (والجودلية هي أشبه بفراش بشخن اللحفاف ولا يتجاوز عرضها نصف متر أو ربما أكثر بقليل). وعندما نودي عليّ فيما بعد، تصور (...). أنني لن اعود، واختطف وجهه. لكنهم أعادوني في اليوم نفسه، أو ربما في اليوم التالي، لا أذكر، إلى قصر النهاية في نفس الصالة. لقد نقلوني إلى مديرية الأمن ليأخذوا مني تقريراً آخر عن اعترافي.

«هل يحزنك هذا الحديث. اتركه إذا كان يسبب لك ضيقاً»، قال نوري السعدي.

«يحزنني بالطبع، لكنني لا أرى موجباً للامتناع عن الحديث»، قلت له.

أود الآن أن نناقش موضوع البطل في تصورك؟

هذا سؤال ليس من السهولة الإجابة عنه، قلت له: حدثني (...). أن أحد القادة الصامدين أمام التعذيب (ذكر لي اسمه) كان يئن قبل أن يلفظ أنفاسه، وكان (...). يخشى أن يضعف، لأنه رمزنا، لكنه لفظ أنفاسه بسرعة، فتنفس (...). الصعداء.

وقال: أنا أقول لك شيئاً، إنني لا أعرف ما هو مفهوم البطل؟. لكنني أنا معجب من بين كل من أعرفهم، بك وبعقدان البراك. أنت مثقف من

طراز خاص؛ وعدنان يملك شخصية ساحرة، لم تتوفر لدى غيره، رغم أنه «ناعم» الجسم في «فيزيوميته».

وقلت له: بقدر تعلق الأمر بي، أنا لم أحقق شيئاً بعد، لذلك لا أستطيع أن أزعم أنني أتميز في شيء. أما عدنان، فأنا أشعر أنه شخصية ساحرة بالفعل، حتى في صمته. إن الشيوعي الوحيد الذي فرض احترامه على كامل الجادرجي هو عدنان البراك. فما هو السرُّ في ذلك؟ كان عدنان البراك أحب شخصية عند كامل الجادرجي. وقد لمست أنا ذلك في لقاء مع الجادرجي ضمني أنا، والدكتور مهدي مرتضى، وعدنان البراك، عندما قدمنا له مجموعة كاملة من أعداد مجلة (المثقف). كان يتحدث مع عدنان بحب.

ثم قال نوري السعدي: لكنك تعلم أيضاً أن الجادرجي كان يودك كثيراً. هذا ما قاله لي عدنان.

ليكن، قلت له، لكن عدنان كان يكتب افتتاحيات مذهلة لجريدة (طريق الشعب)؛ وأنا لا أستطيع أن أجاريه في ذلك.

لكنك لست سياسياً، قال لي. أنت تأسر قلوب النساء بقلمك، مثل سميرة.

سألته: «ما هي أخبار إفروديت؟».

«هي في بريطانيا الآن، تدرس الرياضيات».

ومن المفارقة أن (س)، أصبحت شيوعية؛ وأن إفروديت لا شأن لها بالسياسة، ولا بالأدب، بل بالمال. ومن المفارقة الأخرى أن (س)

استطاعت ان تكسب ود عدنان البراك. أنا لي رأي في النساء العراقيات
ذكرته بعد ذلك بسنوات طويلة.

لكن نوري السعدي لم ينته من الحديث عن الرجال. قال: عند الرجل
-التميز- الكاريزما، أو السحر؛ أما عند المرأة فالجمال، والسحر.
ثم قال: «وعندك أنت، وعند عدنان سحر، حتى في صمتكما».

فكرت في صمتي، وهو شيء استلمته من أبي وليس من أمي. أنا
خجول، وأكاد أكون عيباً، لأن حضور البديهة يخذلني أمام الآخرين.
وأنا بطيء التفكير. ومع ذلك أشعر أن لي شخصيتي، وكما نعتني
إحداهن أنا محبوب. لكنني في حاجة إلى زمن لئُعد مني طبخة لها
نكهتها الخاصة. هذا ما قلته للصديق نوري السعدي.

اسمع، يا صديقي، قال لي نوري السعدي: «أنت لست من هذه
التربة. أنت وعدنان. وأنتما لا تنتميان إلى المجتمع. أنتما تنتميان إلى
اليوتوبيا. هل تدري ماذا قال لي عنك صديقنا (ع) الذي عرفني بك؟
قال: «جاءنا شاب ليس من هذه الدنيا. إنه ليس كالأخرين. هل تريد
أن أعرفك به؟» وهذا ينطبق على عدنان أيضاً. وأنا سعيد لأنك نجوت
من المحنة؛ وحزين لأن عدنان لم يفلت. أنتما فتاتان! هل أصبحتما
صديقين؟».

«لا، بل زميلين حميمين. نحن لم نلتق خارج نطاق اللجنة الحزبية
التي كنا نعمل فيها، ربما عدا لقاءنا في منزل الجادر جي. عدنان لم يكن
ينتمي إلى المجتمع، كما قلت. وهو كان أكثر مني عزلة».

«لكن لماذا قتلوه؟ هو ليس شخصية جماهيرية».

«لأنه كان صاحب أكفأ قلم في كل العراق؟».

«ما هو مستوى ثقافته؟ هل كان مولعاً بالموسيقى؟».

«لا أذكر أننا كنا نتحدث عن الموسيقى. لكنني أعتقد أنه كان قارئاً جيداً».

«هل تحدثتما عن المرأة، عن الحب؟»

«لا، في اللجنة الحزبية لا يدور حديث عن الحب!»

«هل تعتقد انه أحب أختي؟»

«أعتقد أن أختك هي التي أحبته. وعلى أية حال هو ليس كائناً من حجر».

ثم انتقل نوري السعدي إلى بقية الرفاق. سألتني من شاهدت من الرفاق في قصر النهاية. فقلت له لعله يعلم أنني اعتقلت بعد مرور أربعين يوماً على الانقلاب. لذلك لم يتسن لي أن أرى الرفاق الذين تمت تصفيتهم قبل دخولي قصر النهاية. إلا أن (...). حدثني كيف لفظ سلام عادل أنفاسه على مقربة منه. كما حدثني عن الطريقة الوحشية التي أنهوا بها حياة عبد الرحيم شريف. وأنا شاهدت عدداً من الرفاق عندما جمعونا في قاعة لمشاهدة عدد من الرفاق المعترفين يتحدثون في التلفزيون. وفي القاعة شاهدت عبد القادر إسماعيل يللم أو يسحب بنظونه، أو لعلها ييجامته، ربما لئري جراح رجله من التعذيب. تعلم أنه كان من بين المعترفين. ثم جيء بالرفيق نافع يونس يسنده الحارس. وأجلسوه على الأرض لكي يشاهد الرفاق المعترفين في التلفزيون. لكن الرفيق نافع لم يطق الجلوس كثيراً، فأشار إلى الحارس بأن يعود به،

واستجاب الحارس، وكان يخاطبه بكلمة أستاذ. ومعلوم أن الرفيق نافع يونس قتل بعد ذلك في القصر.

قال نوري السعدي: «أنت تثير أشجاني كثيراً، لأنني التقيت سابقاً بالأستاذ نافع، وترك في نفسي انطباعاً ممتازاً. هو في رأي من بين النخبة الفاضلة جداً في الحزب».

ثم سألتني: ومن شاهدت أيضاً؟ فأخبرته أنهم نقلوني أيضاً إلى ما يسمى بمعتقل محكمة الشعب بعد تصفية الرفاق جمال الحيدري، ومحمد صالح العبدلي، وعبد الجبار وهبي. ثم شاهدت في معتقل خلف السدة «الرفيق» الذي وشى بمكان اختبائهم. وكنت أتناول الطعام معه في نفس المجموعة. أنت لا تستطيع أن تعرب عن مشاعرك في المعتقل؟.

نعم، قال نوري السعدي، هل نتحدث عن الفلسفة، والبايولوجيا، والسايكولوجيا؟

أدركت ماذا يقصد. وكنت عطشاً إلى عصير برتقال. كان من بين الأشياء التي كنت أريد أن أرتوي بها عند إطلاق سراحني.

قلت له: «هل عندكم عصير برتقال؟»

«يقيناً، قال، فبيتنا لا يخلو من البرتقال».

ونادى أخته الصغرى (ر)، فقدمت إلينا، وحيثني مع ابتسامة خجول. فقال لها: «اعلمي عصير برتقال لصديقنا».

ثم جاءت بقدر كبير فيه عصير برتقال. وضعت أمامي على نضد. شكرتها، وأنا أشعر بسعادة. ثم قلت لصديقي: «أنا كنت متعطشاً أيضاً».

إلى اللحن الختامي في باليه بحيرة البجع. كان هو ولحن (ترومير اي) يترجعان في رأسي دائماً. سأسمعه فيما بعد. هذا اللحن الختامي فيه إحساس باللملمة (لكل ما مضى)، وبتوجع دفين جداً هو أعمق تعبير من أي كلام. لا أعتقد أن أحداً من الموسيقيين استطاع أن يقدم لي قراءة للألم مثلما قدمها لي هذا اللحن».

«لماذا لم تحدثني عن ذلك من قبل؟»

«لا أدري. أنا كنت أستمع إليه وحدي».

«أسمعني هذا اللحن في أقرب فرصة».

كان ألبوم الاسطوانات عندي في البيت. وأنا أذكر أنني أسمعته ذات مرة أوبرا (مدام بترفلاي)، غناء ريناتا تيبالدي، فذهل لبكاء ريناتا الموجه جداً عندما أقدمت على الانتحار، وسمعنا صوت إرتطام الخنجر على الأرض. كان بكاءً حقيقياً موجعاً جداً. ولم ينس نوري السعدي هذا المشهد. وهو صار يسعده أن أقفه على مقاطع موسيقية كهذه.

عندما أحب أن نتحدث عن الفلسفة، والبايولوجيا، والسايكولوجيا، تذكرت معاناة محمد الجلبي التي كانت أطول معاناة تحت التعذيب في أيام ١٩٦٣، وانتهت بالموت، أو إنهاء حياته، بعد مضي أشهر من التعذيب المستمر، ربما مع توقف لكي يستطيع أن يستعيد أنفاسه ليدخل في دورة أخرى من التعذيب.

قلت لصديقي: وأنا الآن فقدت الشهية لشرب العصير. لماذا ظل الرفيق محمد الجلبي يتحمل كل ألوان التعذيب على مدى أشهر، وأنا لم أتحملة أكثر من ثلث ساعة؟».

سألني: «أنت كنت تريد الموت؟»

«نعم، بكل جوارحي. لكنه لم يواتني بسرعة... عندما ضربني (م. إ. ج) بقضيب حديدي مغلف بجانيبه بالجلد بقوة على وجهي، شعرت أن عيني توهجتا بشعلة من نار، وأن أنفي تهشم. لكنني لم أضعف. فقال: علقوه. فأوثقوا يدي بحبل مدلى من السقف. كانوا الآن قد رفعوا العصا عن عيني. وأخذوا يضربونني بسوط أو بعصا، لم أعد أميز بين الأشياء، ولا أدري كم كان عددهم، اثنين أم ثلاثة. الذي أحسسته هو أنني لم أعد أستطيع أن أتنفس، وأن أبلع ريقى. لقد جف اللعاب من فمي تماماً، وأنا أشعر أن ظهري مهشم، فقلت: أنزلوني... هنا لم أعد أفكر في شيء، سوى أن أعطى ماء لأستطيع أن أوقف اختناقى. البايولوجيا؟ أنت طبيب.

نعم، قال، وهذا لأنك فتاة. أنت كان ينبغي أن تبقى في بيركلي».

«والرفيق محمد الجلبي، الذي قاوم أشهراً؟ ألم ينشف ريقه، وتهشم عظامه؟».

«الظاهر أن لكل جسد تحملاً معيناً».

«وما هو موقع الفلسفة والسايكولوجيا؟»

«إن درجة تبخرهما تتوقف على بايولوجيا الجسد».

«تبخر وقتي، طبعاً، لكنه حاسم هنا».

نعم، قال نوري السعدي، هل نتحدث في السياسة؟ أنت شوقتي إلى سماع لحن (بحيرة البجع) الختامي.

«نعم، هو يلخص ويكثف كل هموم البشر. هكذا يوحى لي سماعه. لماذا تكون للموسيقى قدرة تعبيرية هائلة؟»

«أنت تستطيع أن تفسر لنا ذلك.»

لكننا لم نفرغ من موضوع الرفيق محمد الجليبي، وموضوعي أنا، وموضوع كل الرفاق الآخرين. أمامنا قبل الجميع الرفيق محمد الجليبي، الذي لقي أكبر قدر ممكن من التعذيب. ثم هناك الرفاق الآخرون الذين لم يكن تعذيبهم أهون منه، لكن أجسادهم اختصرت الموت قبله. وهناك الآخرون الذين لم تحتمل أجسادهم التعذيب. فانهاروا. وهناك المتخاذلون قبل ان يتعرضوا إلى محنة التعذيب. أين هو حديث الفلسفة، أو السايكولوجيا هنا؟

«هل تريد أن نخوض هذا الموضوع؟ أنت لم تشرب العصير حتى الآن، ولم تمد يدك إلى كأس الويسكي. الا تريد أن تمارس الحياة؟ إنني أنا المسؤول عن هذا النواح. لنواصل الحياة يا صديقي. ولتحدثني عن الموسيقى بدل ذلك. ألا تتطلع إلى علاقتك مع البيانو؟»

«نعم، كثيراً، وسأبدأ من يوم غد بلا توقف.»

«هل ستأخذ دروساً؟ أنا سأتكفل دفع الكلفة. لا تقلق من هذه الناحية.»

«شكراً، أنا لديّ معلومات أولية جداً، سأحاول أن أبدأ بها وأرى.»

الفصل الثالث

بالرغم من وجود أروع صديقين لي الآن، هما نوري السعدي، والبيانو، إلا أنني بدأت أفكر في الهجرة من العراق. لكن كيف وأنا ممنوع من السفر؟ فرضيت بهذين الصديقين كوطن لي. وأنا أعلم ان هناك أمي أيضاً، التي لا أنسى تعلقها بي الذي يرقى إلى العبادة. فهي لم يعرف جفناها النوم عندما وصل إلى علمها انني اعتقلت في قصر النهاية. فذهبت إلى هناك، ورمت بنفسها أمام جنازير الدبابة. وعندما هرع إليها الحرس، وسألوها عن هويتها، وماذا تبغي، قالت لهم: إنها جاءت من أجل ابنها.

«من هو ابنك، خالة؟»

قالت: «علي الشوك».

«طيب، خالة، إذهبي إلى البيت، ونظمنك بأنه حي يرزق».

والظاهر أنهم لا يسمحون لأي كان بالاتصال بقصر النهاية، فأرسلوني

إلى مديرية الأمن، لأرسل خبراً إلى أمي بأنني حي أرزق. فهرعت إليّ لتحمل إليّ علاقةً فيها غيار ملابس داخلية مع فاكهة. وسلمتُ الشرطي ملابسني الداخلية التي زادت أمي حزناً وقلقاً بعد أن شاهدت عليها آثار دماء جافة... ولا أنسى أيام المواجهات، عندما سمحوا بها، والأحمال الثقيلة من الطعام التي كانت تحملها على رأسها، بما في ذلك قدور الطبخ. هذا كان بعد أن نقلت إلى معتقل خلف السدة.

والآن، لمحتها تراجع من أمام النافذة لتعود إلى غرفتها مطمئنة، بعد أن أوصلني نوري في نحو الواحدة صباحاً إلى البيت.

في الصباح قلت لها: «لا تنتظريني، يا أمي، فأنا أعود في السيارة في صبحة نوري».

«لا أستطيع النوم، يا ابني، إلا بعد أن أراك بعيني عائداً إلى البيت».

وهناك مخلوق آخر أسعد بعودتي إلى البيت، هو القط بلور. كان من عادته أن يثب على كتفي عندما أجلس. تعلم ذلك عندما كنت أتناول طعامي، وأرمي له بقطعة لحم. وبالطبع استقبلني فور دخولي البيت، وسار معي إلى غرفتي لينام فيها على سريري. كان هذا القط هدية من ابنة الدكتور عبد الجبار عبد الله الذي أصبح رئيس جامعة بغداد، إلى أختي الصغرى. كانوا جيراناً لنا.

منذ اليوم الثاني لعودتي من الاعتقال، بدأت علاقتي بالبيانو. وظلت أسابيع في إطار الاكتشافات، اكتشافات أبجدية النوطات، والمركبات الصوتية (أكثر من نوبة تؤدي في آن واحد)، وكان بلور يصعد على كتفي في كثير من الأحيان عندما أجلس أمام البيانو، لأنه كان ينتظر ساعة الغداء ليشاركني الأكل.

واستغرقني وقت طويل لأمرن أصابعي للعضف بشيء من المرونة. وأرهقتني محاولة عزف لحنين مختلفين في يديّ الاثنتين. كان ذلك تمريناً صعباً جداً أول الأمر. وصرت أعزف بعض المعزوفات التي أعرفها من الذاكرة، مثل توكاتا باخ، وغيرها. لكنني صرت أرتجل في كثير من الأحيان، وأستطرد في ارتجالاتي.

وفيما بعد سجلت إحدى محاولاتي في العزف، وأرسلت الشريط إلى السيد منير الله ويردي، العازف الممتاز على الكلارينيت. فأرسل إليّ الرد الآتي:

«الأخ العزيز عليّ:

شكراً لرسالتك والشريط الذي سمعته باهتمام ووجدته ليس كما قلتَ (تواضعاً) مجرد «خربشة» على المفاتيح. ألا أن السلام الموسيقية. ومنها السلم البنتاتوني وبعض الآريجيو، ومقداراً لا بأس به من التنسيق بين اليدين، ومقداراً من المهارة المكتسبة بالتمرين لحركات الأصابع، كلها واضحة وتدل على مقدار غير قليل من المحاولات للتعبير عن مجموعة ما من المشاعر والأفكار. إنها تعبر بوضوح عن حالة الحب الذي تغمرك والمعبر عنها في قصة (البيانو). وإذا كان اهتمامك بالموسيقى والبيانو بهذا المقدار من الجدية فمن الجدير والمفيد أن تستمر بعد أن تتلقى بعض الدروس، حتى بدون معلم».

لم يطمئني كثيراً هذا الانطباع عن محاولاتي في العزف، لأنني بدأت متأخراً. كان عمري ٣٦ عاماً، وكانت أصابعي أقل طواعية للعضف من الأعمار الأصغر. مع ذلك كنت أمارس العزف لكي أنسى كل شيء، وأغرق في الموسيقى وحدها.

كان صهري رفيق محمد سالم مقاولاً، ولديه علاقة بأشخاص يستطيعون التحرك في دوائر الدولة. أخبرني أنه يستطيع الحصول على جواز سفر لي، وما عليّ سوى أن أزوده بصورة فوتوغرافية لي. فتملكتني الريبة من كلامه. وأعربت له عن ذلك. فأكد أن لا أقلق من هذا الجانب، وهو يعرف شخصاً ذا خبرة بهذا الموضوع. فوافقت بعد أن أكّد لي أن اسمي لن يذكر في كل المعاملة. إلا عند إعداد الجواز. وعرفني بالشخص الذي سيتابع المعاملة. وكان هو من بين متابعي معاملته في أعمال المقاول. (أوضح لي أن اسمي لن يذكر عند إرسال المعاملة إلى مديرية الأمن للتأكد من عدم وجود منع لصاحب المعاملة). وبعد أيام قال لي صهري: أن معاون الشرطة في مديرية السفر والجنسية أحب أن يراك ليسلمك الجواز. هنا شعرت أن هناك فخاً لاصطيادي. فأعربت لصهري عن هاجسي. إلا أنه أكد لي أن أطمئن، وأنه هو، ومتابع المعاملة، سيكونان في رفقتي لمواجهة معاون. وعند ذهابنا إلى المعاون، أشار فوراً إلى شرطين باعتقالي، واقتيادي إلى مدير عام السفر والجنسية، وكان من عائلة (الضاحي) من سكنة محلتنا كراة مريم. وعندما أدخلت عليه، قال: «ما شاء الله، مثقف ويزور الجوازات. من أنت، شيوعي، أم بعثي؟»

قلت له وأنا في غاية الغضب على نفسي، وعلى صهري، وعليه، وعلى كل شيء: «أرجوك، اتخذ الإجراء اللازم بلا أي تعليق».

«نعم، خذوه إلى المعتقل».

وفي الخارج كان صهري ينتظر وهو في حالة شديدة من الحرج والندم. لكنني قلت له أن يتصل فوراً بالصديق نوري السعدي، ليتصل

بدوره. مجيد خياط، مدير الشرطة العام، وهو صديقه، ويعرفني لأنه كان يلتقي بي عندما يزوره في عيادته.

وأدخلوني أنا ومتابع المعاملة ردهة المعتقلين. وبعد ربع ساعة عاد صهري بغروس سكاير وعلبة شوكلاته. واتكأنا إلى الجدار بعد أن جلسنا على جودلية. وبعد ربع ساعة ناداني الشرطي، وقال: أن المعاون يطلبني لمكالمة مدير الشرطة العام. ولما أدخلت على المعاون، قال لي: «تفضل، كلم المدير العام».

وعندما استلمت السماعه، قال لي مجيد خياط: «علي، ما الخبر، هل القضية سياسية؟»

قلت: «لا، سيد مجيد، إنها حول جواز سفر».

«بسيطة، إذن، سيطلق سراحك فوراً، أنت وحدك».

ثم استدرك: «لكننا لا نريد أن يزعل السيد الضاحي. هل لديك مانع إذا أطلق سراحك غداً؟»

قلت له: «لا، أستاذ مجيد».

«طيب، مع السلامة».

وأطلق سراحني في اليوم التالي، وأبقوا صاحبي ليؤدب. وتركت له بقية السكاير والشوكلاته.

وأقام صهري لي وللصديق نوري السعدي دعوة سادها المرح. ومن منزل صهري اتصل نوري السعدي. مجيد الخياط ليشكره، وأشكره أنا أيضاً... أحزنني أن مجيد خياط توفي بعد ذلك بعام أو عامين، مع انه كان لا يزال في مقتبل العمر.

...

لم أجد من الملائم أن أبقى بلا عمل، أي بلا مورد مالي، بالرغم من أن الصديق نوري أكد لي أن لا أفكر في هذا الموضوع، لأن وضعه المالي جيد جداً. لكنني أستطيع أن أمارس التدريس في المدارس الأهلية. فتحدثت مع الصديق نجيب محيي الدين بهذا الشأن. وهو له معارف وصلات، لأنه كان نقيب المعلمين يوماً ما. وتحدث مع سلمان مهدي، مدير مدارس الجعفرية الأهلية (التي كان أجدادي من جهة أمي من بين مؤسسيها)، فرحب في أن أصبح على ملاك الهيئة التدريسية في متوسطة الجعفرية للبنين، لقاء راتب قدره خمسون ديناراً شهرياً.

وسأذكر حادثاً ظريفاً من أيام تدريسي الصف الثالث. كان في مؤخرة الصف طالبان يثرثان بينما كنت أنا ألقى الدرس. أحدهما كان أخا مظفر النواب. وكان هذا جالساً إلى جوار طالب آخر كان يلغو معه. فزجرت هذا الطالب، وامتل. ثم لما انتهى الدرس وخرجت، هرول أخو مظفر في إثري، واقترب مني، ثم قال لي: «هل تعلم، أستاذ، من هو الطالب الذي زجرتة؟»

«من هو؟» قلت له.

«إنه ابن رئيس الجمهورية عبدالرحمن محمد عارف».

«صحيح؟ قل له يوصل احترامي لأبيه».

في ضوء ذلك كم كنت أتمنى لو استمر حكم أبيه.

وعلى أية حال، كانت سنوات الستينات رهيبة في أحداثها السياسية. ففي ٦٣ حدث أبشع انقلاب في العراق؛ وفي ٦٧ كان اندحار الدول

العربية، وفي مقدمتها مصر، أمام اسرائيل؛ وفي ٦٨ حدث الانقلاب
البعثي الثاني (في نفس يوم زواجي). وسأعود إلى هذا الموضوع.

لكنتني تعرفت في عام ٦٦ إلى فتاة ستصبح أهم امرأة عراقية، هي
هنا. وقد تم هذا التعارف عن طريق الصديق نوري.

أنا تعرفت في حياتي إلى عدد من النساء، كانت أحبهن إليّ اثنتين،
هما هناء؛ و(غ). لم تصبح هناء صديقة مقربة جداً إليّ. بل كانت
صديقة مقربة جداً إلى نوري. لكنها بقيت تحمل لي وداً كبيراً. وهو
نفس شعوري تجاهها.

كان (ل) شقيق زوجة نوري زميلاً للطالبتين هناء، و(ف) حتى انتهاء
دراسة الحقوق. وكان (ل) يحدث زميلتيه عنا، أنا ونوري كثنائي لا
مثيل لنا. ولعله تحدث عني ككاتب أيضاً، أو لعل الفتاتين كانتا تقرأني.
فأحبنا أن نتعرفا إلينا. هما كانتا يساريتين أيضاً. وتم التعارف في العيادة.
وربما على الفور دخل نوري في قلبي هناء و(ف)، أو هناء بصفة خاصة.
أما (ف) فليسوف تعجب بصديق لنا يُحسن اجتذاب المرأة.

أنا لم أكن ساحراً أمام المرأة. ولم أفرض يوماً ذلك إعجاباً واضحاً في
كتاباتي. أنا لم أولف كتاباً بعد، لاسيما مثل كتاب الأطروحة الفنطازية،
الذي سيجنن سميرة. أما نوري فبالإضافة إلى كونه طيباً، فهو كان
وسيماً ويملك سحراً بشخصيته المفرطة في رقتها.

وقد تقول هناء إنني مفرط أيضاً في رقتي، وربما مذهل في مداركي
الثقافية، لكنني لا أملك جاذبية كجاذبية نوري، ولا لباقته.

وهناك فارق السن بيننا، لكنه لم يكن عائقاً بالنسبة لهما، لأنهما

كانتا تريدان أن تدخلتا إلى الحياة عن طريقنا، ومن بين مباحج الحياة المغلفة بالتأبؤ، كانت الخمرة، التي تكاد تكون مقصورة على الرجال. ما هو طعم البيرة، مثلاً، وما هو مفعولها؟ لماذا لا تجربان شربها ولو بحذر وبتقتير. آه، يا لها من رعشة المحاولة. ولم يكن من الملائم أن تكون المغامرة ليلية. وعند ذاك سيكون اللقاء عندي، لأن نوري يعمل في النهار. ثم إن المهمة ستقتصر على المحاولة فقط، تجربة المشروب، من غير أبعاد أخرى.

وكان عليّ أن أكتفم المحاولة عن عيون أبي. أما أمي فشأن آخر، لأنها لاتناقش أي شيء أمارسه. وكان هناك فستق، ورقاقات البطاطا المقلية، وموسيقى، ليست راقصة طبعاً، كما يقتضي الحال، بل كلاسيكية.

كان هناك امتعاض أول الأمر من الطعم، وربما مع دموع. لكن «المزة» كانت شفيحاً. التهمتاهما بلا حساب. وأقنعتهم بأن هذه هي البيرة، لذتها في مراتها. وأنا مثلهم لست معجباً بها. وكان هناك ضحك، وثرثرة حلوة. وفي الأخير مرت التجربة بنجاح، لأن مرارة البيرة جزء من لذتها. ثم أنها كانت شراب السومريين.

(أنا الآن أكتب هذه الاستذكاراات بعد سنوات عديدة، وبعد رحيل نوري المحزن، الذي أوجعني مثلما أوجع هناء وعائلته. شرعت بكتابة هذه السوانح لكي أسد ثغرات في ذاكرتي بشأن أحب الناس إليّ. وعندما فكرت بكتابة هذا المشروع، تساءلت مع نفسي حول المدى الذي أستطيع أن أتحرك فيه. مع أن كثيراً من «أبطال» هذا المشروع غيبه الردى. لكنني رأيت أن أكتب إلى العزيزة هناء لأخذ رأيها عن مدى الحرية التي أستطيع أن أمارسها في الكتابة عنها. فأعطتني الضوء الأخضر. وكنت أكتبها إلكترونياً عن طريق ابنتي زينب. فذهلت

زينب والتمست مني أن أراعي مشاعر عائلة «عمو نوري»، على حد قولها. مع ذلك أنا سأراعي مشاعر الكل، بمن فيهم هناء العزيزة، رغم تحررها.

(وأنا أعلم أنني أكتب ضد التيار، الذي أصبح كاسحاً للأسف الشديد؛ وضد حتى بعض المشاعر الصديقة. فقد أجرح مشاعر أشخاص لديهم رؤى راسخة قد يعتقدون اني أهزها. لكنني أكتب هذه الاعترافات عن قناعتني الشخصية، وإيماناً مني بأن الاعترافات لم تعد لها أهمية في عالمنا القيامي هذا. مع ذلك فإن ما اكتبه هو أكثر بكثير مما أبوح به).

ستفترق (ف) عن هناء في مسيرة حياتها منذ مرحلة مبكرة من علاقتهما، لأن (ف) امرأة ستبرهن على أنها اعتيادية في آخر المطاف، بالرغم من بداياتها المندفعة. أما هناء فهي امرأة من طراز مختلف عن كل النساء الأخريات، وأنا كنت أراهن عليها، مع أنها لم تصبح على مرامي تماماً. كنت أريدها أن تصبح كاتبة، وليس ناشطة. لكنها ملأتني إعجاباً بنزعتها المتحررة المذهلة. أن ما يميز هناء عن (ف)، التي أحببتها في البدء لمزاياها الجسدية، هو أن (ف) كانت وراء الزواج؛ أما هناء فلم تكن كذلك. وهذا، عندي، هو سر تميزها عن كل النساء العراقيات.

ماذا يعني أن تكون امرأة-عراقية- ضد الزواج؟ إنه يعني مليون شيء، وفي رأس القائمة الحرية «المطلقة»، والتخفف من القيود. عندما زرتها في برلين (الشرقية) عام ١٩٧٩ أو ٨٠، شاهدت على جدار غرفتها صورة للوحة امرأة عارية مستلقية على بطنها، للرسام الفرنسي فرانسوا بوشيه، كانت أكثر أغراء من أية لوحة أخرى. هذه البادرة أذهلتني، وأورثت عندي أحساساً بالذألوان الجنون في الدنيا. قالت

لها نزيهة الدليمي: «ارفعي هذه الصورة يا عزيزتي»، «لماذا؟» قالت لها هناء: «ارفعيها، يا حبيبتى»، «لن أرفعها، رفيقة».

كانت تمثل المرأة العراقية في برلين الشرقية، في منظمة النساء العالمية. كنت أشعر أنها مندوبة ناجحة، لكنني لا أدري ما هو مقدار كفاءتها كقائدة سياسية. مع ذلك كنت أشعر أن الحزب كان بيتها. وسأزداد قناعة بأنها تصلح لإدارة مؤسسات جماهيرية، كما أصبحت عند إشرافها على مؤسسة إنسانية.

وهنا هي التي عرفنتني بالصديقة الألمانية Inge التي دامت علاقتي بها خمس سنوات، وكتبت عنها في روايتي (مثلث متساوي الساقين).

وعرفنتني أيضاً بكارولا، التي كانت صديقة خالد السلام في أثناء دراسته في ألمانيا. وزادني سروراً أن كارولا ارتاحت إليّ كثيراً، ودعتني إلى بيتها، وطلبت أختها على الهاتف من برلين الغربية لتعرفها بي. لكن كارولا لم تكن تجيد غير الفرنسية إلى جانب الألمانية. وأنا كنت أذكر مفردات فقط من بقايا الفرنسية التي درستها قبل ثلاثين عاماً. لكننا كنا نتفاهم بشكل ما، وبتناقش حول موضوع الرواية الفرنسية الجديدة الذي كان اختصاصها منذ أيام الدراسة مع خالد السلام. وكنت أنا من غير المعجبين بأطروحة الرواية الفرنسية. وعلى أية حال وصلت العلاقة بيني وبين كارولا إلى طريق مسدود عندما تعرف إليها رجل ألماني، لعلها تزوجته فيما بعد.

أعود إلى عام ٦٧ والعراق. كنت أنا الآن أفكر في الزواج. وأصبحت هناء صديقة مقربة لنا، وأنا ونوري، وتشاركنا سهراتنا. أما (ف) فقد سرق قلبها صديق لنا تعرف إليها بواسطتنا. وكان نوري يفكر في كل ما

يهمني، بما في ذلك موضوع زواجي. وتحدث إلى هناء عني في غيابي، وقال لها: «أريدك أن تجدي لعلي زوجة أنت على قناعة بصلاحتها له».

فقال له علي الفور: «لي صديقة تكبرني ببضع سنوات، وهي من خريجات كلية الحقوق، وموظفة في وزارة الإصلاح الزراعي، أظنها تصلح له. إنها جميلة ومثقة».

«هل أنت مقتنعة بها؟»

«إسمع، هي كانت بعثية من جماعة (قيس السامرائي) الذين انشقوا عن حزبهم، وشكلوا تجمعا يسارياً، وهم أصبحوا أصدقاء الشيوعيين».

قال نوري: «ألم تجدي غيرها؟»

«هي أصبحت صديقة لنا، وتؤمن بالماركسية».

«وماذا سنقول لعلي؟ ألا تعرفين فتاة أخرى بلا خلفية بعثية؟»

«لا تحضرنني واحدة».

«لماذا لا تزوجينه أنت؟ هو يحبك».

«أنت تعلم انني لا أحب الارتباط بزواج».

«حتى بشخص مثل علي؟»

«نعم، حتى هو».

بعد أيام سألني نوري: «هل تعرف شيئاً عن قيس السامرائي؟»

قلت له: «لا، لكنني أسمع مديحاً له».

«هل تحب أن تلتقي بفتاة جميلة من جماعته؟»

ضحكت، وقلت له: «في إطار خطبة؟»

«ليس بالضرورة، هي صديقة هنا. جرب أن تلتقي بها، سأطلب من هنا أن تقاتحها بموضوع اللقاء بك بحضورها وحضوري، في العيادة.»

قلت له: «لا مانع لديّ، إذا كان مجرد لقاء.»

«طبعاً.»

في يوم اللقاء حضرت هي وصديقة لها اسمها ليلي، وهناء، إلى جانب نوري، الذي كلف فرّاشه بأن يُعد لنا قهوة. لا أذكر شيئاً من الحديث التمهيدي الذي دار بيننا، سوى أنني لمست أن نوري استحسناها. ودخل معها في حديث كانت تجييه بلباقة. والظاهر أن فكرة التعارف بيننا كانت مطروحة. فقال لها نوري: «أنا أعتبر عليّاً كاتبني المفضل، وأنا أراهن عليه ككاتب لامع. هل تحبين الأدب؟»

«نعم.»

«من هم كتابك المفضلون؟»

«سارتر، وكامو.»

«ماذا تحبين لسارتر؟»

«دروب الحرية.»

«ولكامو؟»

«كاليغولا.»

ثم وجه كلامه إليّ: «ما رأيك يا علي؟»

ضحكت، وقلت: «وماذا أيضاً؟»

قالت: «محمد الماغوط».

«هل سمعت بجيل الستينات؟»

«لا».

«وما رأيك برواية الغثيان؟»

«هذه رواية فلسفية؟»

«ما هو رأيك فيها؟»

«استمتعت بها».

«أنت قارئة ممتازة. وأنا أقول لكم إنني كنت أتلذذ كثيراً بقراءة

(الغثيان)».

ثم سألتني زوجتي المقبلة: «وماذا تكتب أنت، أستاذ؟»

قلت لها: «ستريحيني أكثر إذا سألتني ماذا اقرأ. أقرأ الآن كتاب

(الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني. هل تعرفينه؟».

«نعم».

كان اللقاء ناجحاً في معايير، والتقىنا مرة أخرى في منزل نوري.

وفي هذا اللقاء حدثني زوجتي المقبلة عن موسيقى البيانو التي تسمعها

جارتها روناك الكردية، زميلتها في الدائرة. واتفقنا ان نواصل لقاءاتنا.

وبقينا نلتقي ستة أشهر، في منزل نوري، وفي بيتي.

في لقاء آخر عند نوري، قدم لنا مشروباً. وعندما سألت نوري باسمه (خطيبيتي) إن كانت تحب أن تشرب، فأجابت بالإيجاب. وسألها: «ويسكي»، فأكدت أن نعم. أنا طبعاً لم أستغرب بعد أن علمت أنها كانت تشارك في جلسات مختلطة مع شبان وشابات متحررين. كما أصبحت هناء تشرب الويسكي أيضاً. وأسمعنا نوري موسيقى كلاسيكية.

كان الجو الآن بدأ يصبح أكثر حميمة. وتحدثت هناء عن عملها الجديد في إحدى الوزارات. والتمست من نوري أن يبحث لها عن شقة على شارع ١٤ رمضان. وأخبرتني بأنها حدثت زهير الجزائري عني، فأحب أن يزورني بصحبتها. وكنت الآن أصبحت كاتباً معروفاً، وصار الأدباء الشباب يزورونني، مثل سركون بولص، وعبد القادر الجنابي.

(حدثني زهير عن هذا اللقاء فيما بعد، وأكد أنه كان يؤمن يومذاك بالكفاح المسلح، وناقشته أنا حول الموضوع، فتخلت عن الفكرة)

أخبرتني باسمه أن صديقتها هناء الشيباني أحبت أن تعرف بي، وهي من المؤمنات بالكفاح المسلح (وقتلت سهواً فيما بعد برشاشها الصغير في بيروت).

ثم تساءل نوري: «ما هي السياسة؟ وما هو الكفاح المسلح؟ ما هو الكفاح غير المسلح؟ هنا، أشار إلى الصوفا التي كنا أنا وباسمة متخذين مقعدنا عليها - كان المهدي بن بركة جالساً مع عامر عبد الله. أين هو

المهدي بن بركة الآن؟، أنبل وأكفأ زعيم سياسي في عالمنا العربي. أنا لم
أتم ليلة قرأت نبأ اغتياله، لأنني عرفت من هو».

«كيف يبدو؟» قلت له

«بملا العين. وهو يبدو وكأنه من رجالات هوليبود».

قلت أنا: «هل تعتقد أن فيه مواصفات القائد التي تحدثت عنها؟»

«نعم».

ثم قال: أنا لا أعتقد ان عالمنا العربي مسموح له بأن ينجب بطلاً.
لقد ظهرت بوادر هذا البطل في شخص المهدي بن بركة ثم أجهض. في
الصين كان هناك بطل، هو ماو، رغم مآخذنا عليه. وغاندي كان قائداً،
وجواهر لال نهرو. وأنا أشعر أن المهدي بن بركة كان طموحاً لمشروع
قائد. كان هو حالماً كبيراً، أكبر مما يتيح له الواقع.

سألته هناء: كيف، كم كان يسعدني أن أراه.

أنا قرأت عنه كثيراً، قال نوري السعدي، نحن عندنا سياسيون
أرستقراطيون، مثل كامل الجادرجي؛ وآخرون سطحيون مثل القوميون.
باستثناء صديق شنشل؛ وآخرون مغامرون وصبية، مثل البعثيين. ولا
أريد أن اتوقف عند عبد الكريم قاسم، فهو رجل غامض؛ وأنا لم أعجب
يوماً ما بعبد الناصر. لكن المهدي بن بركة أقنعني بكفاءته كقائد على
صعيد أكثر من وطني.

ثم قال: وأنا قرأت عن حياة المهدي بن بركة وأعجبتني سيرة حياته.
هو كان ذكياً في الرياضيات. ونال الليسانس في هذا العلم. وكان

متفوقاً في العلوم والتاريخ واللغة الفرنسية. وانخرط في السياسة منذ سن الخامسة عشرة. وسرعان ما أصبح وجهاً سياسياً بارزاً في المغرب. وناضل مع عبد الكريم الخطابي، وعبدالرحيم بو عبيد. ثم انتخب رئيساً للجنة السياسية لمنظمة التضامن الأفريقي الآسيوي في ١٩٦٠. ومنذ أن أصبح منسقاً للجنة التحضيرية لمؤتمر القارات الثلاث، أصبحت أكثر من جهة تسعى إلى إخفائه من المسرح السياسي العالمي بكل وسيلة. ويظهر أن خطة وضعت من لدن أجهزة فرنسية لتنفيذ عملية اختطافه بواسطة أيدي مغربية وفرنسية، وبدعم أجهزة تقنية أمريكية وإسرائيلية.

إن اللقاءات مع الخطيبة لا تزيدك معرفة بها، مهما طالت. وهذا يسري على الخطيب أيضاً. قبل أن تنتهي الأشهر الستة التي حددناها لزواجنا، كان هناك شعور بالارتخاء والتطامن بعد إبعاد البعثيين عن الحكم. وازداد حقد الناس على «الحرس القومي» بعد نشر كتاب (المنحرفون) لكنني فوجئت ذات يوم بزيارة المحامي (ك. ط)، الذي لعب دوراً في إطلاق سراحني.

قال لي: «أنا مكلف بأن أبلغك برغبة قيادة حزب البعث في إيصال خبر قيامهم بانقلاب إلى الحزب الشيوعي، آملي أن تحظى ثورتهم بتأييد الحزب».

فقلت له: «لعلك تعلم أنني لم تعد لي صلة بالحزب. وأرجو أن لا تزجني في مخاطر كهذه».

بعد أيام ذهبت مع باسمة إلى مصيف في الشمال (لم تكن تسمية كردستان دارجة بعد)، لقضاء شهر العسل هناك. انطلقنا في يوم ١٤ تموز ١٩٦٨. وفي يوم ١٧ تموز أعلن الراديو عن قيام «ثورة»، هي

انقلاب حزب البعث على حكم عبدالرحمن محمد عارف. فقلت
لباسمة: «لقد انتهى العراق».

وتنغص علينا شهر العسل.

لكنهم لم يأتوا للانتقام، كما فعلوا في عام ٦٣. جاؤوا الآن بخطة
مدروسة، هي محاولة تبيض صفحاتهم أمام العناصر الديمقراطية. لكن
الذئب لا يستطيع أن يرتدي إهاب حمل، مهما بذل من جهد في
إخفاء أنيابه. وعلى أية حال طرحوا مشروع الجبهة الوطنية. وكان
ذلك إحراجاً هائلاً للشيوعيين. في رأيي الشخصي كان أفضل حل
لهذا الإشكال هو أن يحل الحزب الشيوعي نفسه، بدل أن يجد نفسه
«مقسراً» على العمل المشترك مع الذئاب. لكن الحزب، كما أعتقد، لم
يكن في مقدوره حتى القيام بهذه الخطوة.

مع ذلك اتصل بي المحامي (ك. ط)، وقال لي إن (أ. أ)، الذي
أصبح مديراً عاماً للشرطة اتصل بمدير الأمن العام لإلغاء المنع من السفر
المفروض عليك. وسأتي أنا إليك غداً لمواجهة مدير الأمن العام لتحقيق
هذا الغرض. (أ. أ) هو من جيل البعثيين القدماء، وكان يلتقي معنا، أنا
ونوري السعدي، عند القاضي محيي الدين العمر الذي توسط لإطلاق
سراحي في ١٩٦٥.

وقرأت في اليوم التالي نبأ ترشيحي أنا ونوري السعدي لعضوية
مجلس السلم، وذلك دون الاستئناس برأينا. وفي مديرية الأمن العامة
اكتشفت أنه كان عليّ منعان من السفر، وليس واحداً، ورُفعا.

وقرر الأدباء البعثيون إعادة تأسيس اتحاد الأدباء العراقيين بعد أن ظل
معطلاً خمسة أعوام. وفي جلسة كان فيها الجواهري حاضراً طرحت

أسماء كأعضاء للهيئة الإدارية. وبعد أن تلكأوا في اختيار البقية لاكمال النصاب، علمت أن الجواهري قال لهم: «اختاروا وجوهاً». ولما سأله «من تقصد، أستاذ؟» قال الجواهري: «علي الشوك». فتم اختياري، مع أنني لم أكن راغباً في المشاركة.

وفيما بعد علمت أن الشاعر (ح. ش. ج) اعترض على اختياري قائلاً: «علي الشوك مثقف، وليس أديباً». لكن اعتراضه لم يؤخذ به، مع أنني كنت أتمنى لو أخذ به.

أنا كنت يومذاك، في ١٩٦٩، أمر في حالة من مخاض أدبي أو «ثقافي»، أو إبداع، بعد أن أهلت نفسي لكتابة شيء يحقق شيئاً من طموحي. كنت آنذاك أفكر في أن أعد كتاباً عن التيارات الجديدة في الأدب، أو عالم الثقافة. وكنت أيضاً أفكر في إنجاز شيء لم يكتب مثله. لقد تخليت عن محاولات الموسيقى التي لا جدوى منها، كطموح، مع أنها حققت لي توازناً نفسياً بعد مأساة ١٩٦٣. وتركت البيانو بلا رجعة، لأنني اتخذت قراراً في أن أعاود الكتابة بعد انقطاع سنوات.

أنا أعلم أنني مثقف من الطراز الأول في كل شيء تقريباً. لكنني أحب الرواية والموسيقى أكثر من أي شيء. وأريد أن أكتب عملاً روائياً عن الرجال المعصوبي العينين، بعد أن مررت بالتجربة. لكنني لا أستطيع أن أكتب عن هذه التجربة لأسباب تتعلق بالرقابة. وأنا لا أحب أن أكتب بصورة متهربة جداً عن الحقيقة والواقع، كما فعل عبدالرحمن منيف (فيما بعد اقترب منيف كثيراً من الحقيقة). وحتى كتابات غائب طعمة فرمان الجميلة كانت تفقد شيئاً من رونقها في

رأيتي بسبب الإحساس بسيف الرقابة المسلط. ربما كانت محاولة فؤاد التكرلي الأولى (الوجه الآخر) التي ساعدت أنا في نشرها، من أكثر الكتابات الروائية الواعدة. وربما يعود سبب نجاحها إلى كونها عملاً «فلسفياً» كان في منأى عن سيف الرقابة... آه، إن «زر» الكتابة الروائية لم يضغط بعد عندي، لأنني لم أخلق روائياً حتى هذه اللحظة. والعلة هي أن ثقافتني ستظل تنأى بي عن عالم الرواية. فهل كان تنبؤ أستاذي وصديقي بروفيسور كاليانبور بإهدائه أجزاء (الدون الهادئ) وهماً أم أملاً مرجحاً؟

في أواخر ٦٩ كنت أفيض معرفة، وأكتنز أفكاراً مهمة. ففي السنوات السابقة كنت أكس المعلومات، وأنتقي منها نصوصاً جميلة، بعضها اخترنته ذاكرتي، ومعظمها كنت أدونها في أوراق. عن الرواية وحدها، أعني عن موضوعها في الإطار النظري، كتبت عدداً كبيراً من الأوراق، بقيت محفوظة في مكتبتي، مع عمل روائي قصير كتبته فيما بعد، قبل رحيلي من العراق، وقدمته إلى وزارة الثقافة والإعلام، لكنه لم يجز، وقال عنه المحكم إنه محاولة فيها نفس حديث جداً، لكنها لاتصلح للنشر، لأنها متحررة أكثر مما ينبغي. وقد حاولت غير مرة أن أحصل على المخطوطة، التي نسيت عنوانها، وكل شيء فيها، لكنني لم أوفق. وهذا لأنني لم أذهب إلى العراق، ولم أبحث عنها بنفسني. وما حك جلدك مثل ظفرك.

وأحببت في تلك الأيام أن أقرأ عن كل المحاولات المجددة في الفن، بما في ذلك المحاولات العبثية، مثل حركة «دادا». فرأيت أن أكتب كتاباً عن الموضوع، وفي سياق عملي نشأت لدي فكرة أن أكتب شيئاً لم يكتب مثله في عالمنا العربي. ورأيت أن أوظف الرياضيات لهذه

المهمة. كنت أريد أن أضحك بواسطة الرياضيات. ذلك أنه ما من شيء يمكن أن يدعوك إلى الضحك مثل الرياضيات. وأنا أملك زمام هذه اللغة، فلم لا أركب المغامرة. إن أجمل ما في الموضوع، هنا، هو التعبير عن المنحنيات بلغة المعادلات؛ والتعبير عن لغة المعادلات بالمنحنيات أو المرسمات... وأنا صرت أفكر على نحو فنطازي وسريالي. هل يمكن أن أجد معادلة للابتسامة؟ هذا شيء ممكن أن يحقق ذروة من ذرى السعادة. وأنا لا أفتقر إلى المخيلة، وإلى خفة الدم. كأن أستطيع أن أخلق انطباعاً منحنيّاً بالكامل من خطوط مستقيمة بالكامل (من خلال فكرة المماس أو المماسات). وفي الوسع تحقيق انطباعات جميلة من هذه المغامرة. ولعل قصة الذهاب إلى مخزن أوروذدي باك كانت أجمل مقاطع هذا الكتاب. وهذا الكتاب كان أشبه باطروحة، لذلك سميته الأطروحة الفنطازية.

وفكرت في طبع الكتابين اللذين أنجزتهما في آن واحد، أعني بهما كتاب (الدادائية بين الأمس واليوم)، وكتاب (الأطروحة الفنطازية) في بيروت. وقد يسر لي الشاعر البعثي حميد سعيد مهمة السفر، لأن العاملين في سلك التعليم كانوا ممنوعين من السفر في تلك السنة، ١٩٧٠.

الفصل الرابع

سافرت إلى بيروت، وأقمت في الليلة الأولى في فندق يقع في حي بنات الهوى، نتيجة خطأ ارتكبه صديق ذكر لي عنوان هذا الفندق، لا أدري كيف. وقد نبهني سائق الحافلة التي تقلنا من المطار إلى أماكن إقامتنا إلى احتمال حصول خطأ. لكنني أكدت له أنني أثق في صديقي، الذي أعطاني العنوان. على أنني شعرت أن الفندق لم يكن يوحى بالارتياح، رغم أنني لم أتعرض لأي إزعاج. وعندما اتصلت بالصديق والرفيق إبراهيم، الذي كان يقيم في بيروت، أستغرب من إقامتي في هذا الفندق وهذا الحي. وجاء إلي لينقلني إلى فندق آخر كان الجواهري ينزل فيه، وهو قريب من شارع الحمراء، وعلى الفور دبّر لي لقاء مع بلند الحيدري. فاستلمني بلند، وصار يرافقني في كل حركتي في بيروت. ودبّر لقاءً مع الراحل حسين مروة. ودعينا سوياً في الجبل عند الدكتور علي شلق، الذي أظنه كان مترجماً لكتاب موسيقي لرومان زولان، لعله عن بتهوفن. أنا أتعكز الآن على ذاكرة معطوبة.

وبالطبع حدثت بلند عن المهمة التي كنت قادماً من أجلها. فاقترح أن نفتح نزار قباني لأن لديه دار نشر. ولدى مفاتيحة نزار قباني، إعتذر مؤكداً أن داره للنشر لا تطبع إلا كتبه. هنا عنت لـ بلند فكرة هي أن يؤسس هو دار نشر، ويبدأ بطبع كتابي عن الدادائية. أما كتاب (الأطروحة الفنطازية)، فلم يجد نفسه قادراً على طبعه لكثرة ما فيه من رسوم وأشكال معقدة، فضلاً عن المعادلات الرياضية التي تتطلب مطبعة متطورة.

لكنه اقترح كمحاولة أخيرة عرض الكتاب على أدونيس، عله يجد حلاً بشأن طباعته. واتصل به وهو في الجبل، وأخبره بأن في صحبته علي الشوك وفي جعبته مخطوط كتاب يدير الرأس. فرحب أدونيس في استقبالنا. وذهبنا إليه في سيارة بلند الصغيرة الخضراء.

ليس هناك أغنى وأعذب من الجلسة مع أدونيس. كان استقباله إيانا ودياً جداً. وقدمني بلند ككاتب ذي اهتمامات ثقافية واسعة. وحتني على أن أقدم له مخطوطة (الأطروحة الفنطازية)، فلفتت نظره عندما أخذ يقلب الصفحات. وإلتمس مني أن يبقى المخطوطة عنده ليقرأها في الليل. وكان عليّ أن أسترجعها نهار اليوم التالي، لأنني عائد إلى العراق بعد يوم... وقدم لنا مشروباً وعشاء. وأسمعنا كونشرتو باغنيني على الكمان أول الأمر. ثم اسمعنا (كارمينا بورانا) بعد ذلك، وقال لنا إنه تكلم مع الأخوين رحباني من أجل الاهتمام بهذه المقطوعة المذهلة في أصواتها الغنائية والموسيقية. هذا كل ما أذكره من الحديث الذي دار بيننا قبل خمسة وأربعين عاماً. وفي اليوم التالي أعرب عن إعجابه بهذا العمل الفريد من نوعه. وقال إن زوجته السيدة خالدة أحمد سعيد، ودت كثيراً لو تتاح لها الفرصة للاطلاع

على هذا العمل الذي أثار فضولها. بيّدت أنني اعتذرت بسبب سفري العاجل.

وكان لتعذر طبع المخطوطة في بيروت فائدة غير متوقعة. ففي غضون زيارتي بيروت التقيت مصادفة في شارع الحمراء بزميل الدراسة في بيركلي، الدكتور (في الرياضيات) وليد السلام، شقيق خالد السلام، وأطلعته على المخطوطة، فلفت اهتمامي إلى كتاب رياضي مهم يقتني نسخة منه في بغداد، وخولني بأن أستلمه من أقاربه وأحتفظ به لي. كان الدكتور وليد السلام يُمضي سنة ساباتية في جامعة بيروت الأمريكية، قادماً من جامعة ألبرتا في كندا. وكان عنوان الكتاب (عالم الرياضيات)، ووجدته مفيداً جداً، وقد استفدت منه كثيراً قبل أن أدفع بالكتاب إلى الطبع في بغداد، بعد أن عرضته على وزارة الثقافة والإعلام، حيث تبنى السيد حميد سعيد مهمة طباعته.

وكانت طباعة الكتاب في مطبعة الرابطة. وقد أشرف على الطبع أحد تلامذتي عندما كنت أدرس في ثانوية الكاظمية للبنين. وكانت مراجعاتي لوزارة الثقافة والإعلام من أجمل الأيام. فقد صرت ألتقي بالمهندسة المعمارية (و. م)، وكانت تساعدني في طبع الكثير من المرسمات. وفي غرفتها كانت تقدم لي البرتقال والفسطق، والسكاير. وسأبقى أتذكر تلك اللقاءات بمزيد من الارتياح.

وكان صدور الكتاب في بغداد حدثاً في حد ذاته. وقد تلقفه المثقفون. وكتب عنه في العراق هادي العلوي، وفي لبنان محمد عيتاني، أو رضوان الشهبال، لا أذكر بالضبط، فأنا لا أحتفظ بما كتب عن هذا الكتاب.

وأنا كنت أتوقع أن ينال الكتاب اهتماماً أكبر من النقاد، رغم أن الكتاب «عصي» على القراءة أو الفهم لاشتماله على المعادلات الرياضية في الكثير من مقاطعه. لكنني أعتقد أن (الأطروحة الفنطازية) كانت ورقة اعتمادية أمام المثقفين العرب.

الأطروحة الفنطازية كتاب غير تقليدي، وغير مألوف بكل معنى الكلمة. كان كتاب الدادائية كتاباً أكثر تقليدية من الأطروحة الفنطازية. فهو كتاب في فصول كأي كتاب آخر. أما الأطروحة الفنطازية فكان شيئاً آخر، لا يشبهه كتاب، في لغته، وفي أسلوبه، وفي مادته، وفي منهجه. ولعل كتاب (الدادائية بين الأمس واليوم) كان تمهيداً له. ففي كتاب الدادائية كان هناك تحرر مطلق في الكتابة، أو الانفلات على غرار شطحات دادا. لكن الأطروحة الفنطازية كانت أكثر من ذلك، أو غير ذلك، ربما بلغتها الرياضية التي أعطت الكتاب نكهة جديدة تتجسد في لغة أخرى إضافة إلى اللغة الأدبية والشعرية المعتمدة. هنا دخل عنصر جديد في الكتابة وفي التعبير، هو عنصر المعادلات الرياضية، إلى جانب عنصر المخيلة الهائلة في شطحاتها، كمحاولة إيجاد معادلة رياضية للابتسام، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وسأقول شيئاً، هو أنني حين كتبت الأطروحة، كنت أشعر أنني في إجازة خاصة جداً، خارج الواقع الذي كنت أعيش فيه. إجازة في عالم ألس العجائبي. لكنني شربت إكسيراً فتنازياً أو سورالياً حين شرعت بكتابة الكتاب. مرة أخرى أقول إن هذا الكتاب لم ينل حقه من النقد. لكنني سأنقل هنا رأياً لفاطمة المحسن جميلاً في حق الكتاب، وإن جاء متأخراً (نشر في ٢٠١٥ في كتابها ممثلات الحدانة في العراق). قالت فاطمة عن كتاب الأطروحة الفنطازية:

«انه خلاصة ثقافة رفيعة جمعت الرياضيات إلى الموسيقى والأدب، وهو يبدو على موجة تتخطى ما يسمى الغموض الشكلاني، وتشكل اختباراً عقلياً لاشعرياً فقط، للحدائثة الفنية والأدبية، أو تلك التي تقترب من المنحى السوربالي في الكتابة. «الأطروحة الفنطازية» التي لم ينتبه إليها النقد العراقي ولا العربي، تقارب كتابات بورخيس الموسوعية التي ينتقل فيها المؤلف عبر عالم شاسع من الخطابات واللّهجات الثقافية، وعلى نحو فائق التشويق. إن ثقافة الشوك التراثية والحدائثة، وقراءاته في ميادين مختلفة، يضعها في هذه «الأطروحة». مما يشبه المشهدية النادرة في الكتابة التجريبية العربية. فهي تزخر بالمعلومات حول طيف واسع من الثقافات: الموسيقى، الرياضيات، الهندسة، التراث العربي، الشعر الحدائثي العالمي، النثر العربي والغربي، وكل ما يشكل عالماً فنطازياً عابراً للأجناس الإبداعية».

وقال علي عبد الأمير: «اشتريت كتاباً لطالما أحببته، وكوّن معالم ذائقتي في الأدب والفن والعلوم. كتاباً كنت اقتنيتته يوم صدوره، وكعادة أقراني في تلك الفترة، أهديته إلى صديقة، تعبيراً عن إعجابي بها. أنه كتاب (الأطروحة الفنطازية) للكاتب الموسوعي علي الشوك. الكتاب الذي لم أتردد في اعتباره واحداً من أحسن عشرة كتب عربية صدرت في القرن الماضي ضمن استفتاء ثقافي أجرته صحيفة عربية تصدر في لندن».

مع ذلك أذكر أن هناك شخصاً، هو (س. س. ن) مسح الأطروحة الفنطازية بالأرض. اعتبرها عملاً من الوزن الخفيف، ربما لما تنطوي عليه من روح نكتة. وأنا أعتزف أن روح النكتة طاغية عليها. لكن لم لا؟ إن روعة المقطع المتعلق بزيارة البطل لمخزن أورزدي باك تتجسد في

روح النكسة. وأنا اعترف بأن هذا المقطع، الذي كتب في صيغة قصة كان من أجمل وألذ ما كتب في اللغة العربية. أحدهم قال لي: إنه أروع ما في الأطروحة.

كانت الأيام الأولى من حكم البعث الثاني تمضي بهدوء نسبي، خلا اعتداءات غير مكشوفة على بعض كوادر الحزب الشيوعي. وكانت الجبهة الوطنية بين الحزب «القائد» والحزب «المقاد» تمارس أعمالها. ولسوء حظ نوري السعدي إن اجتماعات قيادة الجبهة أصبحت تقام في بيته رغماً عنه، لأن شقيقته (س) كانت سكرتيرة سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. وكاد نوري السعدي يهجم بطرد ممثل حزب البعث نعيم حداد من بيته، لولا أنه فطن إلى عواقب ذلك الوخيمة. وكنت من بين مهديي نوري.

وأنا انسحبت من الهيئة الإدارية لاتحاد الأدباء العراقيين في السنة الثانية، لأنني ما كنت أريد أن أشارك في مباركة الحكومة في سياستها، مثل تأميم النفط وغير ذلك. لكن أحدهم نصحني بأن أشارك في هيئة تحرير مجلة الاتحاد، لئلا أبدو متخذاً موقفاً سلبياً منهم، وقد لا يرحمون.

في ١٩٧٣ تقرر انعقاد مؤتمر الأدباء العرب في تونس. وقد تم اختيار أعضاء الوفد العراقي من بين الهيئة الإدارية للاتحاد. لكنهم لاحظوا أن الكلمة التي كلف الوفد العراقي بإلقائها في تونس هي حول (الأدب العربي والثورة التكنولوجية في القرن العشرين). وهنا لاحظ شفيق الكمالي، رئيس الوفد الفعلي (كان الجواهري رئيساً فخرياً)، أن هذا الموضوع لا يصلح لكتابته غير علي الشوك. فاتصلوا بتونس لإضافة اسمي، وكلفوني بإعداد الكلمة.

وكانت إقامة وفدنا في فندق البحيرة. وفي جلسة الافتتاح كان الحبيب بورقيبة حاضراً. وقد افتتح الجلسة وزير الثقافة، على ما أذكر. وقبل أن يتم كلمته، نهض بورقيبة، فقطع الوزير جملته، وتنحى عن المنصة لبورقيبة. هذا مشهد لا يحدث إلا في بلد عربي، مع أن بورقيبة كان أرحم حاكم عربي.

عندما جاء دوري ألقى كلمتي بشيء من السرعة، لأن كلمتي كانت طويلة. واعترف بأنها استقبلت بنجاح. وكدليل على ذلك أن التلفزيون التونسي أجرى معي حواراً حول الكلمة.

وقرر وفدنا أن تكون عودتنا عن طريق باريس، لنمضي فيها بضعة أيام. وكنت أنا وفؤاد التكريلي ويوسف الصايغ تتحرك سوية. وكان فؤاد دليلنا بحكم معرفته بباريس. واشترت لزوجتي بدلة أنيقة، وأشياء أخرى أوصتني بها.

نحن في عام ١٩٧٣. وسينعم العراق بهدوء نسبي في ظل الخطاب البعثي. لكن الحكم سيتعرض إلى هزة صغيرة غامضة في محاولة مدير الأمن (ناظم كزار) القيام بانقلاب لم يكتب له النجاح. ويبدو أن حكم البعث سيتكرس أبداً الدهر، وسيتعزز الحكم الفردي يوماً بعد يوم. وتعين علينا أن نتكيف مع هذا الوضع الغاشم، ونحاول النأي قدر الإمكان عن الاحتكاك بكل ما من شأنه أن يسبب نكداً. كان يبدو أن العراق سيعيش «ألف عام» من الحكم الفاشي. ذلك أن السلطة كانت تخطط لتبعيث كل الوطن. لكنها لم تكن على عجلة من أمرها.

أما نحن فكنا نحاول أن نعتزل في «جزرنا» قدر الإمكان. نحن لم نعد نجد المجتمع مجتمعنا. لقد صادره البعث، وجعل كل الأماكن العامة

غير صالحة لأرتيادها. فاعتكفنا في منازلنا، واقتصرنا في حركتنا على الأماكن التي تعود إلينا وإلى أقاربنا.

وأنا كنت لا أزال أمتع بنوع من الاحترام بين الأوساط الثقافية البعثية. أنا والكتاب اليساريون. استطعت مثلاً أن ألبى دعوة من اتحاد الكتاب السوفيت لحضور مؤتمر لترجمي الأدب الروسي. كنت في هذه الدعوة زائراً فقط. لم أكلف بإلقاء كلمة أو محاضرة. وهذا أراحني كثيراً. وفي جلسة في مقر فندق (روسيا)، في صحبة غائب طعمة فرمان تقربت إلي امرأة أوكرانية، لعلها كانت طامعة في جيبتي، وطلبت أن نذهب إلى غرفتي. وهناك طلبت مني أن أستعير كبريتة لسيكارتها من القائمة بخدمة الطابق. فرفضت أن أذهب خشية من أن تسرق سترتي. فأزعجها ذلك. وقبلتني وخرجت. ثم قالت لغائب الذي كان ينتظرنني: «اذهب إلى صديقك لتطمئن عليه».

وفي السنة التالية، لعلها ١٩٧٧ ذهبت أنا عن الشيوعيين، وخالد علي مصطفى عن البعثيين إلى رومانيا تنفيذاً لاتفاقية التبادل الثقافي. وهنا التقيت بأخي رضا وبزوجته الروسية غالينا. واغتنمت الفرصة لألتقي بأحد مؤسسي حركة دادا، لعله يانكو (لا تسعفني الذاكرة جيداً). وكان لقاءً ظريفاً.

سأعترف بأن السنوات العشر الأولى من حكم البعث الذي انتهى في ٢٠٠٣ كانت أقل وحشية وعذاباً. فالمحن والشدائد بدأت منذ عام ١٩٧٩، وهو عام رحيلي من العراق لحسن الحظ. في تلكم السنوات العشر كنا نحيا حياة شبه طبيعية.

كانت لقاءاتنا يومية مع نوري السعدي وأحياناً هناء أدور عندما

تكون في العراق. وكان قد نشأ تقارب بين نوري السعدي وهناء أدور. فكانت سهراتنا يسودها الحب. وكان نوري السعدي يزود البيت بصناديق الويسكي من طراز shevaz Rigal، وأكياس الفستق، والبطاطا الجافة المقلية. وكنا نقدم الطعام. وكانت أم زوجتي تُعد كبة حلب لذيذة جداً؛ وزوجتي باسمه تعد وجبة تَمَن برياني شهية جداً. وكانت الجلسة لا تخلو من الموسيقى، وأحياناً كنت أسمعهم أوبرا بكاملها.

وكنت ألتقي أحياناً بفؤاد التكري، ويوسف الصائغ. وكان التكري يكتب روايته (الرجع البعيد)، وكان يسعدني أن يحدثني عنها، لكنه أكد أنه يكتبها بسيطاً. وكان يوسف الصائغ يكتب شعراً لقي رواجاً في مهرجانات المربد. مثل قصيدته الشهيرة (انتظريني عند تخوم البصرة). وأنا حضرت إحدى هذه المهرجانات في البصرة. وكانت هناء أدور يومذاك موظفة في البصرة. وصارت ترافقني لحضور الفعاليات الثقافية. وعرفتني بعائلتها عندما دعنتني على غداء يشتمل على وجبة كبة كانت من ألد وجبات الكبة التي أكلتها في حياتي. وقدمت لي بيرة أيضاً. ان صحبة هناء أدور تجعل المرء يشعر أنه ليس في العراق، بل في الغرب. أهذا لأنها مسيحية أيضاً؟

مع ذلك كله أنا أبقى أشعر أن العراق لا يصلح لي، لولا صداقة نوري السعدي. قلت له: «نحن نزداد اختناقاً يوماً بعد يوم. منطقة الكرادة، منطقتنا، نحرم اليوم من الذهاب إليها، وحتى أعماق شارع أبي نؤاس». قال: «عندك بيتك الجميل، وبيتي، وزهور الغاردينا التي أزودكم بها، وابتسامات باسمه، وهناء».

«لكن الجو الخانق ينغص علينا حياتنا».

«تعلم أن الإنسان يستطيع أن يعيش في كل الأجواء، وتعلم أننا نحيا في جزيرتنا».

كنت أعلم ذلك، لكنني لم أجروء أن أقول له وبحضور زوجتي انني كاتب، وهذا يجعلني أشعر أنني أكثر إحساساً بالاختناق. أنا أريد أن أكتب رواية عن معصوبي العينين، رواية مكرسة لعذنان البراك، وعن زوجته (س)، وإفروديت.

سألته: «أين هي أوراقي؟»

«أوراقك؟»

لقد مضى أكثر من خمس سنوات على قصتي المجهضة مع إفروديت. وأنا أسيء إلي كثيراً بالكشف عن أوراقي، وضياعها.

«نعم، أوراقي، يا عزيزي، أنا لم أسألك عن مصيرها».

قال: «تعلم أنني كنت محرجاً جداً أمام أبي بعد أن قرأها. وتعلم أن هذه كانت أوراقاً خاصة جداً موجهة منك إلي فقط. وعندما قرأها أبي، وواجهني بها، شعرت أننا، أنت وأنا، كنا عارين أمامه، ومذنبين. ولم أدر ماذا أفعل. هل تعتقد أنني كنت في وضع أستطيع فيه أن أفكر في استرجاع الأوراق؟»

«لكن ماذا كان مصيرها؟»

«لا أدري».

«أليس من حقي ان اطالب بها؟»

«آه، أنت تثير مسألة قانونية. الأوراق أصبحت أوراقي بعد أن كتبتها

إليّ. وكان يمكن أن تكتب نسخة أخرى منها تحتفظ بها. لكنك لم تفعل. مع ذلك، أنا أتحمل مسؤولية ضياعها. وكان ذلك جناً مني وإحساساً بتأنيب الضمير، لأنني كنت مداناً أمام أبي بالاستهتار بقيمتنا التي تقضي بأن لا أسمح لصديقي بأن يتغزل بأختي».

كنت أفكر في الأوراق من منطلق أدبي. كنت أريد أن أستعملها كمادة مهمة في مشروع الروائي، الذي سأنتظر فيه إلى فضيحتي، وإلى زواج رفيقي عدنان البراك بمسببة فضيحتي، هذه المفارقة في أن تصبح مسببة شقائي زوجة أقرب رفيق لي.

وبعد ذلك أتحدث - في مشروع الروائي - عن كل الرفاق الذين ذاقوا الموت والهوان في قصر النهاية. لكن ما جدوى أن أسأل صديقي نوري السعدي عن أوراقه إذا كان متعذراً عليّ الكتابة عن هذا الموضوع؟

مع ذلك كنت يومذاك أشعر أنني فقدت أعز شيء في حياتي، وأن فرصة ثمينة للكتابة ضاعت مني بضياع تلك الأوراق. وبقيت عاماً، عامين، ثلاثة أعوام عاجزاً عن كتابة أي شيء.

لأنني فقدت تلك الأوراق.

وفي تلك الأيام كانت تصدر مجلة المسرح المصرية التي كانت تقدم مسرحية عالمية في كل شهر (على ما أظن). وأصبح عالم المسرح تحت متناول أيدينا، مثل مسرحيات أنوي، ويوجين يونسكو، ودورنمات، وغيرهم. وأعجبنا كثيراً بمسرحية (بيكت) لجان أنوي. كما عرض فيلم عن هذه المسرحية في دار سينما جديدة افتتحت بها عروضها، تقع هذه السدار مقابل سينما النصر تقريباً. وكان الفيلم حدثاً فنياً في تلك الأيام.

مثل فيه بيتر اوتول دور الملك هنري الثاني، وريتشارد بيرتن دور توماس بيكيت. وقد شاهدته في صحبة زوجتي باسمه (العزاوي)، ونوري السعدي، وربما هناء أيضاً. وأذهلنا المشهد الأخير الذي يطلب فيه الملك من أحد مرافقيه أن يضربه بالسوط أمام قبر بيكيت، وهو يقول مخاطباً القبر: «هل يكفيك هذا؟» وأنا لا أذكر هل جاء هذا المشهد في نص المسرحية، أم كان إضافة من مخرج الفيلم.

وأنا أصبحت غارقاً في عالم المسرح، فكتبت مسرحية عن سقوط بغداد على يد التتر، أسميتها (الغزاة). وكان بطلها الرئيسي الموسيقي صفى الدين عبد المؤمن الأرموي البغدادي، مغني الخليفة المستعصم. وقد مثلتها الفرقة القومية (في ١٩٧٥). لكن المسرحية تعرضت إلى النقد بسبب قلة خبرتي بفن المسرح.

ثم بدأ اهتمامي بعالم اللغة. وهنا بدأت مرحلة جديدة وطويلة من اهتماماتي الثقافية. وبدأت بكتابة مشروع في اللغة بعنوان (الجزور المشتركة بين اللغات السامية-الحامية واللغات الهندية-الأوروبية). وجندت نفسي لهذا المشروع؛ كنت أستعير مجلدات المعجم الآشوري اصدار جامعة شيكاغو، من جاري الدكتور فوزي رشيد، مدير المتحف العراقي؛ وألجأ إلى قواميس عبرية، وآرامية؛ وقواميس يونانية، ولاتينية، وسنسكريتية. فضلاً عن القراءات حول هذا الموضوع. وفرغت من كتابة مخطوط حول هذا الموضوع. وقدمته إلى وزارة الثقافة والإعلام لتبت في أمر نشره. وقد رحبوا أول الأمر بالفكرة وباركوها، ووعدوا بأن يقدموا لي مبلغاً مجزياً من المال لقاء طبعها. لكنهم بعد قراءة المخطوطة غيروا رأيهم، وطلبوا مني أن أغير اسم اللغات السامية الحامية إلى اللغات العربية، أو شي من هذا المعنى.

وبهذا الصدد، كان الأستاذ طه باقر قد جاء بنظرية حول اللغات السامية، أطلق عليها تسمية اللغات الجزرية (نسبة إلى جزيرة العرب)، لعله بضغط منهم، أو مجازة لهم. وأنا رفضت ما أرادوه مني. وكان ذلك وشيك مغادرتي العراق. فحملت المخطوطة معي إلى خارج العراق.

كان مشروع اللغوي شاغلاً لي من الفراغ الذي ابتلغني بعد الأطروحة الفنتازية والدادائية. فالمسرحية كانت محاولة فاشلة. وهذا يعني أنني لا ينبغي لي أن أكون شديد الثقة في نفسي. فأنا لست سوبرماناً. لكن هل سأبرهن على جدارة في موضوع اللغة، والموسيقى، والفيزياء، وأفضل كلما تصديت إلى عالم المسرح؟ وهل ستكون تجربتي مع الرواية فاشلة أيضاً؟ بالمناسبة نشرت كتباً جميلاً عن الموسيقى الإلكترونية في سلسلة (الموسوعة الصغيرة)، نال إعجاب نجيب المانع، كما أخبرني المشرف على الموسوعة موسى كريدي. لكنني سأتعامل مع اللغة بمزيد من الحذر. فهنا أنا سأمشي على بيض، لأن اللغة ليست اختصاصي... هل سيحسن بي أن أتعامل مع اللغة من منطلق لا أكاديمي؟ لست أدري. فأنا قد أتعامل معها من منطلق أكاديمي أيضاً.

لكن الأوضاع السياسية بدأت تصبح مثيرة جداً للقلق في أواخر السبعينات. ففي إيران أبعد الشاه وحل محله حكم ديني. وعندنا تلاحقت أحداث تركزت فيها السلطة بيد البلطجي صدام حسين. وهذا سيتم على نحو دموي يذكر بليلة السكاكين الطويلة في ألمانيا في ١٩٣٤. وسيتم تكميل كل يدين في العراق بإقसार الجميع -تقريباً- على الانتماء إلى حزبهم. ولم أستثنَ أنا. أخبرني مدير المدرسة التي أدرّس فيها، وهو بعثي شريف، أنهم زاروه، وطلبوا منه أن يفتحني

بالانتماء إلى مكتب المعلمين الحزبي. فحاول أن يشيهم عني. وقد أفلح بعض الوقت. لكنهم عادوا ثانية. فأرسل في طلبي، ونصحني بأن أترك العراق، وكان العام الدراسي على وشك ان ينتهي. فاتخذت قراراً بالرحيل.

كان ملتقى الأصدقاء يتم عندي، في بيتي دائماً. وكانت الثلاثة تتألف من فتاح حمدون؛ وغانم حمدون قبل رحيله؛ وماجد علاوي شقيق إبراهيم علاوي رئيس جماعة الكفاح المسلح؛ ونوري السعدي؛ وخالدة ابنة أخيه؛ وزوجتي، وأنا. كانت زوجتي الآن مبتثسة جداً لأخباري، لكنها كانت مقتنعة بقرار الرحيل لثلاثاً أحترق.

أما نوري السعدي فكان الابتاس بادياً عليه بوضوح. كان شديد الجزع. لماذا سيكتب عليّ أن أهجر وطني وأتشرّد، ولماذا سيخسر صحبتي، التي نيفت على ربع قرن.

وأما أنا فكننت حزيناً حقاً لأنني سأضطر إلى هجران بيتي الجميل، وزوجتي، وابنتي زينب، التي نشأت بيني وبينها علاقة حميمة جداً، بفضل ذكائها وتعلقها بي. فأنا لا أنسى ظرفها عندما كنا سوية (مع أمها) في السيارة التي كنت أسوقها في شارع ١٤ رمضان، وهي تقول لي: «بابا، لا تسق سريعاً لكي يتسنى لي أن أقرأ لافتات الدكاكين». ولا أنسى حضور بديتها الشعرية عندما أهديت لنا علبة «لوزينة»، وسألتنني: «ما هذه بابا؟» فقلت لها: «شيء مثل البقلاوة». فقالت للتو: «شسمه وشسمه وشسماته؟» كان عمرها سبع أو ثماني سنوات.

قلت لأصدقائي: «ها هو خوف أبي من الحكومة يتحقق. كان يقول لي دائماً: احذر من الحكومة ابني». وهذا الرهاب من الحكومة يذكرني بقصة

رواها برتراند راسل في كتابه (السلطة). قال راسل: كان بوذا يسير مع خادمه في غابة، وصادف امرأة عجوزاً جالسة امام قبر وهي تبكي. فطلب بوذا من خادمه أن يسأل العجوز لماذا تبكي. فقالت: ابكي على ابني الذي افترسه النمر. فقال لها بوذا: لكن ألا تخافين أن يفترسك النمر هنا؟ فقالت له: النمر أقل خطراً من الحكومة، يا سيدي.

هنا قال ماجد علاوي: «هل تحبون أن تكونوا بمنأى..... عن الحكومة ولو لبضعة أسابيع؟ أستطيع أن أوفر لكم مدينة فاضلة على أتم ما يكون. (كيف؟)» سأله نوري السعدي.

قال ماجد علاوي: «تعلمون أن مقابلة ثانوية رست عليّ لمد خط من الشارع العام بعد مدينة السعدية في محافظة ديالى إلى بلدة كوردرة. أو كوردلة، التي ستزال من الوجود، ويقام في مكانها سد. المنطقة جميلة نسبياً، ومنعزلة عن الدنيا تقريباً، وعن الحكومة. في وسعنا أن نقيم فيها مدينة فاضلة لعدة أسابيع، أو إلى أن ينتهي مد الطريق الذي رسا عليّ. ما رأيكم؟».

تلقف نوري السعدي الفكرة على الفور، وقال: «هذا أروع مشروع يتفتق عنه ذهنك، يا سيدي! أنا أثني على الفكرة، وعلى استعداد للمساهمة في إنشاء هذه المدينة الفاضلة».

قال ماجد علاوي: «لن يتطلب الأمر جهداً كبيراً. نصنع مدينتنا على قدر عددنا، نحن ومن يرغب من الأصدقاء. لن نكون في حاجة إلى أكثر من كوخ كبير وفضاء: ولدينا نهر هو نهر ديالى، وفيء ونستطيع أن نوفر كل شيء ما رأيكم؟».

فقلت: «هذا شيء جميل حقاً، لكنني على سفر، مع أنني لا أحب أن أضيع هذه الفرصة».

عقب ماجد علاوي: «وهل ستسافر غداً؟ أمامك العطلة الصيفية بكاملها، وفي وسعك أن تبقى معنا أسابيع».

آه، لا جدوى، فأنا ملاحق الآن، ويريدون أن يحرقوني، وقد يعتقلونني إذا أصرت على الممانعة، ويعرضوني إلى محنة أخرى. لذلك لن أتأخر في العراق. هذا هو القرار الذي اتخذته. لكنني أريد أن أبقى أياماً في المدينة الفاضلة.

وأنشئت المدينة الفاضلة بكل متطلباتها الرافهة خلال أسبوع. وقد ذكرت كل هذه التفاصيل في رواية (السراب الأحمر). وفي الرواية كانت هناء إحدى مواطني المدينة الفاضلة تحت اسم (مريم)، لكنها في الواقع كانت في ألمانيا (الشرقية) يومذاك. وأنا جعلت فريقها الذي يشتمل عليها، وعلى نوري السعدي، وعلى هشام المقدادي، ينفردون للسباحة عراة في نهر ديالى، بعيداً عن الأنظار. وعندما عرضت المخطوطة على غانم حمدون ليقراها، اعترض بشدة على هذا المشهد، وهدد بقطع صلته بي إذا أصرت على ادراجه. فألبستهم لباس السباحة.

كان ذلك المشوار في المدينة الفاضلة من أسعد المشاوير في حياتي. وقد تحدثت عنه في الرواية بشيء من الإسهاب. ثم تركت أصحابي في مدينتهم الفاضلة. وهاجرت إلى الخارج، إلى غير رجعة على ما يبدو.

الفصل الخامس

ذهبت إلى تشيكوسلوفاكيا في صيف ١٩٧٩. وهو العام الذي غادر فيه الكثير من اليساريين العراق. ومنذ ذلك التاريخ انتهى انتسابي إلى العراق، وأصبحت مواطناً بلا وطن، وقد خلفت ورائي زوجة، وطفلة عمرها ثماني سنوات، وأخرى عمرها عام واحد.

كان في استقبالي في المطار جيان، الذي كنت قد أخبرته مسبقاً بموعد وصولي، وكان قد حجز لي غرفة في فندق، لكنني لم أستلم حقيبة السفر عند وصولي، ثم استلمتها في الأسبوع التالي. وفي غضون ذلك اشترت ملابس البيت مع أشياء أخرى. والتقيت برفاق قدامى وجدد من بينهم مجيد الراضي، وفالح عبد الجبار، وأبو كاطع. وسرعان ما أصبح أبو كاطع خير رفيق لي. وعرفني بصديقه هنكا، التي في إحدى رجليها عرج؛ وبصديقة لصديقه، سرقت مني فيما بعد مئتي دولار. (لم تكن بيني وبينها علاقة). والسرقة حدثت في بيت أبي كاطع عندما كنا نائمين فيها ليلاً (وكانت في صحبتي الصديقة الألمانية Inge التي سأتي إلى ذكرها).

وعندما علمت هناء بنبأ وصولي العاصمة التشيكية، أخبرتني بأنها ستعتم الفرصة وتزورني من برلين (الشرقية).

جاءت في صحبة روزميري ممثلة نساء كندا، وابنها نيل. أقمنا في مقر اتحاد الطلبة تحت اسم (كايا كاتانكا)، وهو اسم فيتنامي. وسرعان ما انسجمنا جميعاً، وتعلق بي نيل لأنه يفتقد أباً بعد ان انفصلت أمه عن أبيه.

وسألني هناء: «هل جئت في زيارة؟»

«لا، هرباً»

«هرباً ممن؟»

«منهم»

ورويت لها السبب.

فقالت: «وأين ستعيش؟»

«لا أدري»

«كنت أريد أن أزور نوري السعدي»

«لا تزوريه»

«هل ساءت الأمور كثيراً؟»

«قلت لها إنها ماضية في الترددي. ألم تسمعي عن تصفية قيادة حزب

البعث؟»

«سمعت. ماذا يجري في منطقتنا؟ هل هناك ترابط بين ما جرى في

إيران، وما يجري في العراق؟»

«لا أدري».

«سأدعوك لمدة شهر لتكون في ضيافتي في برلين. هل نستطيع الاتصال بالصديق نوري السعدي؟»

«لا أعتقد. ثم إنه الآن خارج الجغرافيا».

«ماذا تقصد؟»

رويت لها مشروع «المدينة الفاضلة»، فضحكت.

وسألني عن مشاريعي، فقلت لها إنني جئت إلى تشيكوسلوفاكيا طلباً للحماية. فأنا أعلم أن لجنة التنظيم الخارجي مقرها براغ، وآمل أن لا يعاملوني كخارجي.

قالت: «ولو. وماذا عن مشاريعك الكتابية؟»

«لدي مخطوطة، وأنا أبحث عن مستشرق لأعرضها عليه».

«لكن كيف ستعيش؟»

«لا أدري حتى الآن».

كنت أحمل معي بضعة آلاف من الدولارات، وهذه تكفي لإعائتي في البلدان الاشتراكية حوالي عامين. وفي غضون ذلك سأبحث عن مصدر للعيش، ربما الدراسة للدكتوراه على حساب دولة من الدول الاشتراكية. لكن «الإقامة» كانت هماً أساسياً. عند اقتراب موعد نفاذ إقامتي، أوصلت خيراً إلى الحزب بذلك. فتم تدبير الإقامة لا أذكر كم شهراً. وبعد ذلك أوصلت خيراً جديداً إلى الحزب، فأرسلوا إليّ «ابو سرود»، وهو رجل متحجر (بالفعل هو من المتحجرات)، أفهمني بأنني

ما كان ينبغي أن أترك العراق لأزاحم رفاق الحزب في إقامتهم! لو كان في وسعي أن ألطمه على وجهه لفعلت.

لكن الحزب لم يشأ أن يفرط بي. وأرسل إليّ محمود البياتي لتلبية متطلباتي. الإقامة تمددت، ثم تكفل محمود بأن يرافقني لمواجهة مستشرق. فأحب المستشرق أن يقرأ مخطوطتي.

ثم التقيت بالمستشرق بعد قراءة المخطوطة، فقال لي:

«ألم تسمع بكتاب إيليتش سفيتش؟»

قلت: «لا».

قال: «في هذا الكتاب يناقش المؤلف العلاقة بين ست مجموعات لغوية. وعملك لن تكون له قيمة والحالة هذه. مع ذلك في وسعك نشره في كتاب. لكنني أنصحك بقراءة كتاب إيليتش - سفيتش».

شعرت كم نحن متخلفون بالمقارنة مع الآخرين. لاسيما الروس أو السوفييت. وبالاتعانة بالأخ محمود البياتي ذهبت إلى مكتبة الأكاديمية في براغ لاستعارة الكتاب. لكن المكتبة ليس لديها سوى جزء واحد من جزأين. فاستعرت الجزء، وبقيت أبحث عن الجزء الثاني. فبعد عام بالضبط ذهبت إلى لندن، وبحثت عن الكتاب في مكتبة المتحف البريطاني، وهي من أكبر المكتبات في العالم، فلم أجده هناك. وسألت عنه في مكتبة جامعة لندن، فلم يوجد لديهم. وعندما انتقلت إلى بودابست في ١٩٨١، وسألت عن الكتاب فلم أجده. ونسيت أن أقول إنني اتصلت في حينها بغائب طعمة فرمان في موسكو، فأفاد بأنه لم يجد الكتاب في المكتبات (التجارية ربما). ولعله لم يسأل عن الكتاب

في المكتبات الأكاديمية حيث ينبغي ان يوجد فيها. وهكذا بقي لي أن أستفيد من الجزء الأول من الكتاب فقط، مع أنه مصدر لا يمكن الاستغناء عنه.

وماذا فعلت؟ استنسخت معظم مادة الكتاب بيدي. مع انه مكتوب بالحروف الروسية (السيريلية)، واللاتينية. وأمضيت أيامي التشيكية مع هذا الكتاب المجتزأ. فاتني أن أقول إن الكتاب اسمه (محاولة في المقارنة بين اللغات). وكانت قراءته تتطلب جهداً لأنه يضعج بالرموز، التي بقيت أجهل بعضها.

لفت انتباهي الكلمة التي تقال للأيل (الظبي الكبير). فقد كانت مشتركة في أربع مجموعات لغوية، هي السامية-الحامية، والهندية-الأوروبية، والألطائية، والدرافيدية. وأنا ربطت بين كلمة (الأيل) وكلمة (إيل) التي تقال للإله في اللغات السامية. وذهبت إلى أنه من المحتمل أن الأقوام السامية كانت تعتبر الأيل طوطماً أو إلهاً. وهذا سيدعوني إلى أن أنصرف إلى عالم اللغة. لكن قدرتي الآخر سيتحقق أو يتقرر بواسطة المرأة. وهذه المرأة لن تكون غير هناء... ذلك أن جميع «نسائي» جنن إلي عن طريقها، بصورة مباشرة وغير مباشرة. وأنا الآن سأرجئ الحديث عن عالم اللغة الذي ارتبطت به معظم عمري، وأعود إليه فيما بعد، لأنني سأعتبر لقائي بهناء في سنة ١٩٧٩ كان نقطة تحول في حياتي، مثلما كان لقائي بها في ١٩٦٦ عندما تم التعرف بزواجتي عن طريقها، ومن خلال زوجتي تم التعرف بالسيدة (ف. ب.)، التي كان تعرفني بها وسيلة غير مباشرة لتعرفني بالسيدة (غ.)، التي غيرت مجرى حياتي، وكانت ملهمتي في ابتعاث مشروع الرواية الذي كنت أفكر فيه منذ اتخاذي القرار أن أصبح كاتباً.

آه، أنا أبدو هنا غامضاً وضاعطاً للإحداث. لكنها ستضح فيما بعد. فأنا الآن سأروي قصة لقائي بهناء في أوروبا، التي تطرقت إليها بايجاز قبل الآن. وسأزعم، بالتالي، أن هناء كانت أهم امرأة في حياتي، وأقربهن إلى نفسي. وأنا هنا لا أعني بذلك أن هناك حباً. أو عشقاً بيني وبينها. أريد أن أقول: إن هناء كانت وما تزال أكثر من عائلة بالنسبة لي. فأنا كنت أعتبر علاقتي بها في مستوى علاقتي بنوري السعدي.

كانت هناء متممة إلى قضية أكثر من انتمائها إلى نفسها. فأصبحت محترفة سياسة في البدء، ثم نذرت نفسها إلى العمل الإنساني فيما بعد. وكما قلت هي لم تكن تؤمن بالزواج. واصبح «الحزب» بيتها أول الأمر. وقد أوكل الحزب إليها مهام سياسية ذات صفة تمثيلية (في الخارج) بفضل إتقانها اللغة الانكليزية، وفيما بعد شيئاً من الألمانية. وفي أيام «انفتاح» حكومة البعث كانت تستطيع زيارة العراق من مقر عملها في الخارج (برلين).

ولا أذكر هل كانت تبيت عندنا أم عند صديقة لها. وفي كل الأحوال كانت سهراتها بحضور نوري السعدي تقضيها عندنا حتى ساعة متأخرة من الليل. وهي تجد حريتها معنا، فتصبح واحدة من العائلة.

(منذ بدأت كتابة مذكراتي هذه، سألتها هل استطيع ان آخذ حريتي في الكلام عنها، فأعطتني الضوء الأخضر. لكنني سأكتفي بالضوء الاصفر، استجابة إلى رغبة ابنتي العزيزة زينب في أن أبقى متحفظاً في كتابتي).

كانت هناء تخلق جواً منفتحاً ومتحرراً في لقاءاتها معنا. وهذا الجو يجد متنفساً له بحضور نوري السعدي المذهل في تحرره. وأنا أعتبر

تلك الأيام السبعينية - لاسيما النصف الأول منها - أهنأ وأسعد أيامنا على الإطلاق.

أنا كنت أبحث عن امرأة متميزة، أو مختلفة. وسأكتشف أن هذه المرأة المختلفة هي هناء، مع أنني كنت أتمنى لو أنها لم تختار طريق «النضال»، لأن النضال يسحبها إلى المجموع. لكنها على أية حال ستبقى امرأة مختلفة رغم نزعتها «الجماهيرية». كنت أتمنى لو أنها أصبحت كاتبة. وهذا ما توهمته في زوجتي، التي كانت قارئة ممتازة. هناء لديها القدرة على الكتابة، ولست أدري لماذا فرطت بمقدرتها هذه. لكنها ستذهلني كمتحررة.

أرسلت إلي دعوة لزيارتها في برلين (الشرقية) لمدة شهر. كان ذلك فور عودتها من براغ. لم تكن تلك زيارتي الأولى إلى برلين. فقد زرتها في صحبة زوجتي قبل عشر سنوات بالضبط، أي في عام ١٩٦٩. وفي تلك الزيارة التقيت بالصديق غانم حمدون بعد غياب طويل. في تلك الزيارة شاهدنا كل مدن ألمانيا الشرقية، لأننا كنا في دعوة من قبل جمعية الصداقة الألمانية العراقية. أما الآن فكنت في ضيافة هناء في شقتها. وقد كتبت عن هذه الزيارة في رواية (فرس البراري)، وسميت هناء أسيرانتا، على اسم أمها.

ولم أذكر تفاصيل أخرى في هذه الرواية، عن حدث غير مجرى زيارتي، ولا أدري كيف كان وقعه على هناء.

في اليوم الثاني أو الثالث من إقامتي مع هناء، كانت امرأة ألمانية تعرفت إليها هناء حديثاً في زيارتها. كان اسمها Inge. وكانت الزيارة في الساعة السادسة مساءً. وقد كتبت عن هذا اللقاء بصورة مفصلة في

رواية (مثلث متساوي الساقين)، لكن بعد تغييرات جذرية. في هذه الرواية لم تكن زيارتي إلى هناء، بل إلى ابن عم البطل، وهو تغيير وجدته منساقاً إليه لأسباب روائية. وأنا هنا سأروي اللقاء على حقيقته.

عند التعارف أكدت هناء أنني كاتب، فكان لذلك وقع جميل عند Inge. وكانت هي في الثامنة والعشرين من عمرها، وترتدي بلوزة حمراء مطوية على عنقها. وكانت هي تتحدث بانكليزية ضعيفة، لكنها موفية بالغرض. هنا اتصل الدكتور (ص. ب) بهناء، ودخل معها في حديث كان مفاده أن (ص. ب) يحب أن يستقبلنا جميعاً هو وزوجته (م) في شقتهما. وبعد الاستئناس برأي Inge لم تمنع.

حملنا أنفسنا وذهبنا إلى شقة (ص. ب). وقدمنا لنا نبيذاً مع جوز، على ما أذكر. بعد قليل أحسست بصداع ألم بي، فأعلنت عن ذلك. فقالت لي Inge: «هناء، ألم رأسك، وأشارت إلى حضنها. فابتسمت، وقلت لها: هل أنت جادة؟»

«طبعاً، ألم رأسك».

وأنتم رأسي. وجعلت ممارسه بالمساج، كخبرة. وعندما توقفت ربما لتستريح رفعت رأسي، فقالت: «بعد». ثم واصلت مساجها. وبعد أن توقفت مرة ثانية، رفعت رأسي، فضربتني بلطف بكفها، وقالت: «بعد». ثم عندما أكملت عملها شعرت أن صداعي زال. فقلت لها: «حقاً، أنت ساحرة».

فقالت: «هيا، ابتسم!»

وخيل إلي أنها استلظفتني. فصرت أعاملها بشيء من الشعور

بالمسؤولية عندما كانت تحت (ص). على أن يداري كأسها. فوضعت يدي على كأسها لأحول دون ان يملأه من جديد. لكنها قالت لي: «لا تعاملني كقاصرة».

وفي اليوم التالي تلفنت إلي لترافقني إلى بيتها. والبقية مذكورة في رواية (مثلث متساوي الساقين).

أنا الآن لا رغبة لي في استعادة الأحداث، لأنني أشعر أن Inge سرقنتني من تلك الزيارة المتطامنة مع هناء. وربما كانت هذه أول علاقة حب بيني وبين امرأة. وقد دام هذا الحب خمس سنوات إلى أن أنهيت أنا العلاقة. ومن لديه رغبة في الوقوف على تفاصيل هذه العلاقة، ففي وسعه الرجوع إلى الرواية المشار إليها. وأنا أعترف بأن العلاقة تطورت بشكل يمكن أن يثير الكثير من الفضول، لأن Inge كانت متزوجة، وهي أخبرت زوجها بطبيعة العلاقة بيننا. وتم التعارف بيني وبين زوجها يوخان، وأصبحنا صديقين.

وأنا فقدت الرغبة الآن في مواصلة الكتابة، لإحساس بالكآبة والاحباط ألم بي. فهل هو إحساس برغبة في الموت؟ فأنا الآن في السادسة والثمانين من عمري، ولم أعد أشعر برغبة في مواصلة الحياة بعد تدهور قواي الجسدية، وبعد فقدان كل مجايلي، باستثناء غانم حمدون الذي أراد أن ينهي علاقته بي، لأنه لم يعد ينسجم مع أفكاري. (الساعة الآن بلغت الثانية عشرة تقريباً من ليلة ١٨ آب ٢٠١٥. وسأتوقف عن الكتابة. ولا أدري هل سأواصل الكتابة غداً، أم اكف عنها؟).

.....

أعود إلى الكتابة برغبة ضعيفة جداً، بعد أن فتر حماسي لها منذ مساء أمس بصورة مفاجئة، أهذا يعني انطفاء؟ أنا الآن لم تعد بي رغبة في أي شيء. وحتى عودة الصديقة (غ) من السفر لم تعن لي شيئاً. حملت إليّ علبة بقلّاوة - قليلة الحلاوة - من إنتاج شركة زلطيمو في عمان، وجربت قطعة صغيرة فقط. وهذا كل ما في الأمر. وتحدثت معي حول أشياء لا أهمية لها، ثم ذهبت إلى شقتها... هذا الانطفاء يؤرّقني. لكنني سأقصر نفسي على الكتابة، لأنني لم أعد أرغب في فعل أي شيء آخر.

أمس شعرت بضجر لا حدّ له عندما كتبت عن علاقتي التي نشأت مع Inge في بيت هناء. أنا لم تعد Inge تهمني الآن، ولا ذكراها. ولم يعد أحد يهمني باستثناء ابنتي زينب، وهناء، ونوري السعدي، الذي غيبه الموت منذ أكثر من عشر سنوات. وسأحيا الآن مع ذكريات أكتبها لزينب، وهناء، والراغبين.

كان وجودي في تشيكوسلوفاكيا قلقاً، بسبب التفكير في الإقامة، وفي توفير مورد للرزق بعد نفاد ما لدي من نقود. وصادف أن كان الرفيق عامر عبد الله في زيارة براغ (لا أدري أين كان يقيم يومذاك). وعندما سألني عن وضعي، أخبرته أنني أبحث عن مستقبل. ضحك، وقال: «هل تحب أن تعمل مع الرفيق يفغيني بريماكوف؟»

قلت له: «ماذا تعتقد أنت؟»

قال: «أنا أراه مناسباً لك»

قلت: «طيب»، وأنا متهيب من ثلج موسكو.

ثم إن الرفيق فخري كريم كان في زيارة براغ أيضاً. وهو على علم بأوضاعي. ويودني كثيراً. قال لي: «سأبحث في قضيتك مع الرئيس ياسر عرفات».

كان فخري قد ترك العراق قبلي، وترك لي كل ما لديه من أسطوانات. وهو كان محباً للموسيقى (الكلاسيكية). ثم تركت أنا هذه المجموعة من أسطواناتي عند نوري السعدي عندما تركت العراق. وسأحزن على مكتبي الضخمة التي تركتها في العراق، مع أنني أسعدت لأن زوجتي وابنتي زينب استفادتا منها كثيراً. وأنا أشعر الآن أن جمال أسلوب زينب في الكتابة يعود إلى قراءتها الجادة برغم انصرافها إلى دراسة الهندسة المعمارية، والى موهبة لديها في الكتابة والرسم.

كنت أعتقد أن الأوان قد آن لكتابة رواية، بعد أن تعرفت إلى امرأة جميلة تعلقت بي. فكتبت عملاً روائياً قصيراً في غضون شهرين. وعرضت المخطوطة على الصديق غانم حمدون لييدي رأيه فيها. فلم يكن رأيه واضحاً. ثم أرسلتها إلى الصديق فؤاد التكريلي (لعله كان في تونس)، فلم ينصحني في نشرها.

أهذا لأن تجربتي في الحب لم تكن بالعمق الذي يصلح لكتابة رواية، أم لأنني لم أكن مؤهلاً بعد لكتابة رواية؟ سأعيد كتابة رواية عن علاقتي بالصديقة الألمانية Inge بعد أن أتعرف إلى الصديقة (غ)، التي استنهضت عندي كل الملكات الإبداعية.

في براغ التقيت بقيادة حزيين، بعضهم يتمتع بقوة شخصية مؤثرة وبثقافة جيدة، مثل عامر عبد الله. لكنني سأكتشف فيما بعد - في لندن - أن عامر عبد الله نرجسي إلى حد بعيد. تحدث عن الجواهري،

بعد موته، ونسي نفسه، فظل يطنب في مديح الجواهري له. فعلق صلاح نيازي قائلاً: «هذا ليس عامر عبد الله يتكلم عن الجواهري، بل الجواهري يتحدث عن عامر عبد الله».

وفي لقاء لتكريم عبد المجيد الراضي في مناسبة نيله شهادة الماجستير (أو لعلها الدكتوراه)، كان الرفيق (ز. خ) جالساً إلى جوارى. ودار بيننا حديث، أكد فيه الرفيق المذكور أن صدام حسين أفضل من كامل الجادرجي... هذا الحوار أقرني من بعض القادة.

كنت سعيداً بلقائي بمحمود صبري، الذي كان يستقبلني على طعام الغداء بين الحين والآخر. وأسعدت أيضاً بلقاء مفيد الجزائري الذي كان يتم أحياناً في شقة محمود صبري. وفي براغ تعرفت أيضاً بفالح عبد الجبار، الذي استضافني وعائلتي ليلة قدومها لزيارتي.

كانت لقاءاتي بمحمود صبري ممتعة جداً في الأحاديث الفنية التي كانت تدور بيننا. وكنت أنا أؤمن محاولته في ابتكار مدرسة فنية جديدة ذات خلفية علمية فيزيائية، سماها (واقعية الكم) تذكرة بميكانيك الكم، مع أنني لم أكن مقتنعاً بها. كنت أؤمنها لأنها محاولة جديدة. لكن تحفظي عليها مرده إلى أن محمود صبري جعل من الفيزياء، ولاسيما ميكانيك الكم، أساس كل شيء، بما في ذلك الفن. فمعروف أن الفن ذاتي. في حين أن العلم موضوعي.

وأنا بدأت أصطدم معه فيما بعد، في نقاشاتنا في لندن، لأنني أختلف معه حتى في موضوع ميكانيك الكم الذي يؤكد على مبدأ الاحتمية، لاحتمية هايزنبرغ ونيلزبور، في حين أنا أستند إلى تجارب. متأخرة تفند مبدأ الاحتمية.

كانت زوجتي تلاحقني باستمرار. وأنا ما كنت أعلم أن الزواج يعني ملاحقة، لأنني هكذا اتفقت معها قبل الزواج. لكنها صارت تتصرف على أن الزواج ارتباط، وفي مفهومي قيد. وأنا لا ألومها، لاسيما بعد أن أصبح لدينا بنتان. والمهم أنها انقضت عليّ هي وزينب ورباب في براغ في صيف ١٩٨٠. وواجهتني بطبيعة وضعي؛ زوجاً، رغماً عني. واقترحت أن أذهب إلى بريطانيا لأبحث عن عمل هناك، بأمل أن يلتحقن بي. وأنا لم يكن في وسعي سوى الانصياع. إنها أقوى من عشرة رجال. ذهبت إلى بريطانيا في آب، ١٩٨٠. والتقيت بالصدفة بزيملي هادي علي من أيام الدراسة في بيركلي. فاقترح علي الفور أن أنقل حقيتي لألتحق به في شقة زميلنا موفق البدري، وكان لقاءً سعيداً. أن حياة الزمالة أشبه بحياة عائلية. وهناك أعلنت الحرب العراقية الإيرانية. وأنا لم أوفق في الحصول على عمل، مترجم أو مذيع في راديو لندن. هذا إلى أنني لم أكن أعتقد أنني أصلح أن أكون مذياعاً، رغم عربيتي الجيدة. وأذكر أن زوجتي كانت تلاحقني (من بغداد) يوماً بيوم. فأنا لم أتصل بهم طوال أسبوع بعد موعد سفري المتفق عليه من براغ إلى لندن. ذلك أنني رأيت أن أعرج على برلين لألتقي بالصديقة Inge لمدة أسبوع. ووجدتني في موقف حرج. ولعنت الزواج الآن ألف مرة إذا كان يقيد يديك ورجليك. أنا لم أكن أريد أن أحاسب من أي كان على تصرفي الحر. فلماذا أكون ملاحقاً؟.

في تلك الزيارة اللندنية التقيت مصادفة أيضاً بالصديق هادي العلوي. ورافقني إلى المتحف البريطاني وجامعة لندن لنبحث عن كتاب إيليتش سفيتيش اللغوي، لكن مسعانا لم يكمل بالنجاح، كما قلت. وعدا هذه اللقاءات، عدت إلى براغ بخفي حنين.

لكن الحظ ابتسم لي. فقد كان الصديق فخري كريم عند كلمته. اتصلوا بنا من بودابست وأخبرونا بأن السيد ياسر عرفات أوعز بتعييني على ملاك منظمة التحرير الفلسطينية في المجر. فشددت رحلي إلى العاصمة الهنغارية.

الفصل السادس

كنت قد عدت من زيارة لندن ببعض الكتب، من بينها الأساطير اليونانية، والإلهة البيضاء، لروبت غريفز. سأجد فيها ما يسليني، وسأستفيد منها في اهتماماتي الميثولوجية واللغوية. وسأراجع القاموس الآشوري؛ وأعداد مجلة الدراسات الشرق أوسطية العظيمة الفائدة، التي تصدرها جامعة شيكاغو. وسأبقى أستفيد من الجزء الأول من كتاب المقارنات اللغوية لإيليش سفيتيش. وسأتردد كثيراً على مكتبة الأكاديمية المجرية، ومكتبة المركز الثقافي البريطاني. فأنا سأكرس نفسي للبحث الخلاق. وسأتجاوز مرحلة التجميع، جمع المعلومات، وأبدأ مرحلة الاستنتاج، مثلما استنتجت احتمال وجود صلة بين كلمة «الأيل» وكلمة «إيل». ستصبح متابعاتي اللغوية مبعث متعة وبهجة لي. فمثلما وجدت يوماً ما في المعادلات الرياضية والمنحنيات الهندسية مبعث بهجة. فسأجد في عالم اللغة وفي الاشتقاقات اللغوية لذة لاتنضب. الظاهر أنني وجدتني مكرساً لهذه المهمة قبل أن أحقق حلمي في كتابة

الرواية. لكنني في غضون ذلك وجدتني مكرساً أيضاً لاهتمامات أخرى، كالموسيقى، والفيزياء. إنها مهمة ينبغي أن تنال حقها من الاهتمام قبل أن أنتقل إلى عالم الرواية.

كان في استقبالي في مطار بودابست مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية، والمسؤول الحزبي عن العراقيين. رافقتهما إلى غرفة أستوجرت لي بصورة مؤقتة، وقرية من مكتب المنظمة، فتعرفت إلى زملائي الجدد، كان من بينهم، بالإضافة إلى المدير السيد عبد الله حجازي، الشاعر أسد محمد قاسم، والشاعر مريد البرغوثي، اللذان ستوثق العلاقة بيني وبينهما.

وبعد يومين أو ثلاثة، طلب مني مدير المكتب مرافقته إلى السفارة الافغانية (كنا الآن في ١٩٨١) لأقوم بمهمة الترجمة له، وهي مهمة كان يقوم بها أسد محمد قاسم، الذي يجيد المجرية والانكليزية لكنه كان غائباً. وأنا وجدتني محرجاً لأنني لم اكن أريد أن أستمر على هذا العمل، على حساب أسد، فضلاً عن أنني لم أجرب الترجمة الفورية من قبل، وعلى كل حال لاحظ مدير المكتب أنني بدأت أتلكأ في ترجمتي، فاستغنى عني، وواصل هو الكلام بالانكليزية لم تكن أسوأ من انكليزيتي.

استأجر لي سكرتير المكتب شقة في بودا، في منطقة مرتفعة. وكان عليّ أيضاً أن أرتقي ٥٥ درجة من موقف الباص إلى مجمعي السكني. فكانت تلك خير رياضة لي على مدى أربع عشرة سنة. وفي هذه الشقة استقبلت عائلتي التي زارتني في صيف ١٩٨١، وفي أصياف أخرى. وكنت أستقبل أيضاً الصديقة الألمانية. وتعرفت إلى أشخاص عراقيين، من بينهم أعتقال الطائي، ورجاء كمال الدين، وثامر الزبيدي، وعامر

مطر. كما تعرفت إلى الكاتب الفلسطيني فيصل دراج، والكاتب السوري سعد الله ونوس، عندما كان في زيارة إلى بودابست.

وكنت أتكاتب مع الصديق فؤاد التكري. وأرسل إليّ كتاباً عن حياة تولستوي لهزري تروايا، عندما كان في زيارة إلى باريس، وتعرف برشيده تركي الكاتبة التونسية، ثم تزوجا.

استمتعت بقراءة هذا الكتاب، وشرعت بترجمته. لكنني لم انجز سوى مئتي صفحة (الكتاب كبير). وما تزال عندي هذه الترجمة المنقوصة نائمة في الدرج.

وفي تلك الأيام التقيت بالمثلثة الانكليزية اليسارية فانيسا ريد غريف، عندما كانت في زيارة إلى المجر ولقائهما مع المسؤولين في مكتب منظمة التحرير. وتحدثت معها عن فاغنر، لأنها مثلت دور ابنته كوزيما في فيلم نال شهرة. ثم كان يفترض أن نلتقي ثانية، لكنني تخلفت عن اللقاء، لكي لا يشعر اصدقائي الفلسطينيون أنني قد أسرق اللقاء إلى جانبي. ثم أخبروني أنها سألت عني.

لم أكتب شيئاً ربما طوال خمس سنوات، عدا محاولة الترجمة لكنني كنت أقرأ وأجمع المعلومات عن اللغة.

وفي صيف ١٩٨٣ دعاني الصديقان سعد الشعر باف وزوجته فخرية الباقر للإقامة عندهما في شقتهما في شارع كوينزوي في لندن، لمدة شهرين. كانت دعوة كريمة جداً. قدمت لي فيها الصديقة فخرية الباقر ألد الوجبات العراقية. وفي تلك المناسبة التقيت بالصديق سلمان شكر، الذي عرفني إلى الموسيقي البروفسور هيوود، الذي ألف بالاشتراك مع سلمان كونشرتو على العود. وقد التقينا غير مرة

في منطقة إيلنغ. وأكد لي سلمان انه كان معجباً بكتابي (الأطروحة الفنتازية).

وأنا كنت دائماً أتهرب من قصة لقائي بالسيدة (غ) التي تعرفت إليها في تلك المناسبة. ولا أدري هل سألجأ إلى التهرب والمداورة الآن أيضاً، أم أروي قصة اللقاء على حقيقته؟ كلا، لا أستطيع أن أكون صريحاً. والمهم أنني شعرت حين وقع بصري عليها أنها اجمل امرأة في الوجود، إنها ملكة. هذا مع العلم أنني لم أكن خالياً من مُحبة جميلة، لكنها لم تكن ملكة.

أنا كنت أحلم في أن أتعرف إلى امرأة مختلفة في مواصفاتها الجسمانية. هناء كانت مختلفة في شخصيتها، وتبقى أهم امرأة في حياتي. أما (غ) فقد كانت قدرتي الروائي. كانت ماتيلد بالنسبة لي. كانت المرأة التي كنت أبحث عنها لكي أكتشف عالم الرواية. لكن هذا لم يتم مباشرة. فقد كنت غارقاً في عالم اللغة حتى الهامة. كنت قد وجدت في اللغة والأسطورة ملاذي ولذتي. كنت سكراناً بسحر اللغة والأسطورة. و(غ) جاءت متأخرة نوعاً ما (في عام ١٩٨٣) لتسحبني إلى الرواية. أنا قلت يوماً لفاطمة المحسن، ولعلها ذكرت ذلك، أن الرواية، عندي، هي المرأة. هذا هاجس خاص. فأنا لست دوستيوفسكي، ولا تولستوي، ولا تشارلس ديكنز (الذي لا يهزني كثيراً)، فأستطيع أن أكتب رواية في كل الأحوال. أنا كنت أريد أن أكتب رواية على غرار (الحب الأول) لتورغينف. وهذه كانت بعد أن حركته امرأة. والآن أشعر أنني أصبحت مؤهلاً لكتابة الرواية، بعد أن جاءت المرأة إليّ، مثلما جاءت زينaida إلى تورغينف.

و(غ) وقفت على اهتماماتي اللغوية، والأسطورية، ودخلت في

المعمعة. أهو غسيل دماغ، أم انسجام؟ فهي صارت تفهم عقليتي، وتختار لي الكتب والمصادر التي تقع على هواي. في زيارتها (من بلجيكا) إلى بريطانيا كانت ترسل إليّ أهم الكتب، بعد أن تستنسخها بآلة الاستنساخ. كان من بينها كتاب Hellen o semitica لمايكل استور، الذي كان أهم كتاب في حياتي في إطار اللغة. وأرسلت إليّ كتاب (الفطر المقدس والصليب) لباحث في السومريات مهووس بالجنس. هي أعتقدت أنني سأعتبر هذا الكتاب لقطعة. وأنا وقعت تحت سحره أول الأمر، ثم فطنت إلى أن التفسير الجنسي يجعل من الكاتب والقارئ مهووسين. وأنا تخليت عن تعلقي بهذا الكتاب قبل أن أجعله مرجعي الأساسي في علم الاشتقاق.

والتمست من (غ) أن تستنسخ لي كتاب (الأساطير العبرية) من مكتبة (SOAS)، في محاولة لترجمته اذا وجدت علاقة بين هذه الأساطير والأساطير السومرية. الكتاب تأليف روفائيل باتاي، وروبرت غريفز. وجدته مفيداً جداً. وشرعت بترجمته والتعليق عليه. ثم زارني ابن عمي نبيل الشوك من فيينا، وحدثه عن الكتاب، فأبدى استعداداً لطبعه. وتم طبع الكتاب في لندن طباعة أنيقة عند دار (لام) للنشر لصاحبها غسان العطية. وصدر الكتاب تحت عنوان (اختاره الناشر) هو (الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة). ولقي الكتاب نجاحاً بين القراء العراقيين.

أنا الآن في ١٩٨٧، دعاني نبيل الشوك لأقيم شهراً في الرباط، في حي أكداال، في شقة تعود إلى والده المتوفى. فكانت تلك الزيارة من بين أجمل المشاوير في حياتي. فهناك صرت ألتقي بخالد الجادر، الذي عرفني إلى الرسامة الزخرفية (ل. و).. وكانت أروع رفقة في حياتي

(مع أن دوافعها لم تكن عاطفية). وقد ذكرت كل تفاصيل هذه الرفقة في رواية (الأوبرا والكلب)، التي سأعود إلى الكلام عنها فيما بعد.

كنت الآن شديد الولع بعالم الأسطورة، إلى جانب اهتماماتي اللغوية. كنت أقرأ الأساطير السومرية، والمصرية، والكنعانية، والعبرية، واليونانية (والرومانية)، والعربية. لكنني كنت أجد متعة كبيرة في الاساطير اليونانية والرومانية، متعة كانت توازي عندي متعة الرواية. وأعترف بأن الكتاب الرومان كانوا يأسرونني بمخيلتهم. وأنا أشير بصفة خاصة إلى Ovid في كتابه Metamorphosis، وقصته الجميلة عن النحات بيغماليون، الذي نحت تمثالاً لامرأة فاتنة، وأحب أن تنفخ فيها الحياة، فالتمس من الإلهة فينوس أن تبعث فيها الحياة ففعلت، ثم تزوجها بيغماليون.

وكان يلفت اهتمامي موضوع ليلي في تراثنا الأدبي، فلدى قراءتي كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني حول ليلي وقيس، لاحظت أنه ليس هناك إجماع على هوية كل من قيس و ليلي. وهناك شك في شخص مجنون ليلي. ويترتب على ذلك شك أيضاً في شخصية ليلي. وأن اسم (ليلي) يمكن أن يذكرنا بالعفريته (ليليث) في الأساطير السامية. فكتب كلمة بعنوان (هل كانت ليلي كائناً أسطورياً؟)، نشرت بعنوان (ليلي وليلاكة).

ولعل أقدم جد إشتقاقي أو قرينة لغوية لاسم «ليلي» هو العفريت لِّلُو Lillu، ابو البطل أو الملك جلجامش، الذي ورد اسمه في قائمة ملوك سومر، التي يرجع تاريخها إلى حدود ٢٤٠٠ ق. م. كان لِّلُو أحد أربعة عفاريت من صنف عفاريت الهامة من مصاصي الدماء، أو عفاريت الإغواء. والثلاثة الآخرون هم: ليليتو Lilitu (وتقابلها

ليليث بالعبرية، وليليثا بالآرامية، وفي رأينا ليلى بالعربية) ؛ وأردات للي Ardat Lili، أو وصيفة للي، أو للي العذراء، التي تزور الرجال ليلاً؛ وإردو للي Idrdu Lili. وكانت هذه العفاريت عفاريت عاصفة أو رياحاً. ذلك أن كلمة «لِلْ» السومرية تعني «ريح». ثم إن ليليتو الأكديّة تقابل ليلآكة السومرية.

ومن المعروف أن هذه العفاريت كائنات ليلية. ونحن نعلم من تراثنا أن ليلى شخصية إنسية، أي ليست أسطورية، ولكنها كانت تلتقي مع قيس ليلاً، حسب الرواية الآتية قيل: لما اختلط عقل ابن الملوّح، وترك الطعام والشراب، قضت أمه إلى ليلى فقالت لها: «إن قيساً قد ذهب حبك بعقله وترك الطعام والشراب. فلو جئته وقتاً لرجوته أن يشوب إليه عقله»، فقالت ليلى: «أما نهاراً فلا آمن قومي على نفسي، ولكن ليلاً». فقالت له: «يا قيس إن أمك تزعم أنك جنت من أجلي، وتركت المطعم والمشرب، فاتقِ الله وابق على نفسك». فبكى، وأنشأ يقول:

قالت: جنت على إيش؟ فقلت لها: الحب أعظم مما بالمجانين

الحب ليس يفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

قال فبكت معه، وتحادثا حتى كاد الصبح أن يسفر. ثم ودعته وانصرفت فكان آخر عهده بها.

وفي رواية أخرى، أنه لما خرج زوج ليلى وأبوها في سفر، أرسلت ليلى بأمّة لها إلى المجنون، فدعته، فأقام عندها ليلة فأخرجته في السحر، وقالت له: «سر إليّ في كل ليلة ما دام القوم سفراً». فكان يختلف إليها حتى قدموا. وقال فيها في آخر ليلة لقيها وودعته:

تمتع بليلي إنما أنت هامة من الهام يدنو كل يوم حمامها
تمتع إلى أن يرجع الركب أنهم متى يرجعوا يحرم عليك كلامها
كما إننا نعتقد أن ذكر «الهامة» ربما لم يأت عفو الخاطر. كانت
العفريسة ليليث تقترن باليوم، والبراري، والصحاري، والخرائب.
والهامة، في القاموس، نوع من البوم الصغير تألف القبور والأماكن
الخربة.

وقرأت في الموسوعة اليهودية المطبوعة بالانكليزية ما يلي: «ويقال
إن العرب... يطلقون على ليليث اسم لالا Lalla، بصفتها سيدة
مقدسة...». لكنني أرجح أن ليلي هي المقابل لاسم ليليث.

هذه من بين اجتهاداتي واستنباطاتي من خلال قراءاتي الميثولوجية
واللغوية. وأنا أصبحت مغرماً بهذا الموضوع إلى حد الانصراف التام
إليه تقريباً. وكنت أكتب انطباعاتي إلى مجلة الكرمل، فكانت تتلقفها.
ثم اتصل بي محررا صفحة (آفاق) من جريدة (الحياة) يريدان أن أكون
من بين مكاتبي صفحاتهم. فكانت جريدة الحياة ومجلة الكرمل خير منبر
لكتاباتي اللغوية وغيرها. ومنذ ذلك التاريخ توطدت علاقتي بأحمد
أصفهاني، الذي أصبح خير صديق.

وأنا ناقشت العديد من المفردات وتوصلت إلى جذورها الأصلية،
في حدود اجتهاداتي واطلاعاتي. وسأذكر هنا كلمة (الشجرة) العربية،
التي لم أجد لها جذوراً في اللغات السامية التي تنتمي إليها عربيتنا.
فالجذر السامي (سجر) أو (سكر) يفيد معنى الإغلاق، والسد،
والإيصاد. كما أن الكلمة السامية المشتركة التي تقال للشجرة هي (ع
ص). وقد بقيت في العربية في كلمة (العصا)، وفي العضاة وهو كل

شجر عظيم وله شوك. ومما يعزز هاجسنا حول غموض أصل كلمة (شجرة) العربية أنها متقاربة في لفظها مع كلمة *sagaris* اليونانية، التي تقال لنوع من أنواع السلاح كان السكيثيون يستعملونه في قتالهم، وكذلك النساء الأمازونيّات على عهدة هيرودوتس في تاريخه، كما جاء في أحد المعاجم اليونانية. وفي موسوعة يونانية أخرى، إن هذه الكلمة كانت تقال لنوع من الأسلحة كان الآسيويون القدامى يستعملونه. وقد وردت الكلمة في كتابات المؤرخ اليوناني القديم كزينوفون. إنما يعتقد بعض الباحثين أن هذا السلاح أشبه بالفأس الصغيرة، في حين يرى آخرون أنه فأس مقوسة. لكن هذا سيدعوننا أيضاً إلى الشك في أرومة *sagaris* اليونانية. وذلك أن الكلمة باللاتينية تقال لأحد أنهار آسيا الصغرى. على أننا نجد في المعاجم العربية أن من معاني (شجر)، فضلاً عن مدلولها النباتي، تنازع، تخاصم. وتشاجروا بالسلاح، تطاعنوا. ورماح شواجر: مختلفة الطعن. والشجير السيف. فالإلم نخلص من هذا؟ هل (الشجرة معربة، أم ماذا؟).

وأنا لاحظت أن كلمة (سمكة) قد تكون مستعارة أيضاً. هذه المرة من اللاتينية *piscis* (تلفظ *piskis*). ذلك أن لفظة (سمكة) لا وجود لها في اللغات السامية. والسمكة في اللغات السامية يقال لها (نون).

ومن بين الأصوات اللفظية التي استهوتني، وكتبت عنها ثلاثة فصول: التهليل، أو الزغرودة، واللولوة. كأنعكاس لحالتي الفرح والحزن. وكيف تطورت هاتان الظاهرتان إلى موسيقى القديس الذي يعتبر واحداً من أهم الأشكال في الموسيقى الغربية. وكمعنيّ باللغة، انطلقت من التقسيم على الجذرين هلّ، وهلل في اللغات السامية، ومن لفظة ألالو الأكديّة، وألالا السومرية. وهاتان اللفظتان هما المقابلتان

لصوت الزغرودة عند الشعوب العربية. كان عنوان الفصل الأول: «من تهليلة عشتار ومناحتها إلى ولولة الباخوسيات إلى هملويا القداس»؛ وعنوان الفصل الثاني: «الندابات من مناحة عشتار البابلية إلى ولولة الباخوسيات اليونانيات»؛ أما عنوان الفصل الثالث فهو: «تهليلة عشتار والموسيقى المرافقة لها وجدت طريقها إلى هملويا القداس المسيحي». وأنا لا أستطيع هنا أن أقدم إيجازاً لهذا الموضوع الغني بأبعاده اللغوية والتاريخية والموسيقية، سوى أنني أحيل القارئ إلى كتاب (الموسيقى بين الشرق والغرب)، إصدار دار الجمل، مع أنني أخشى أن يكون نافداً.

على أنني أود أن أشير هنا إلى كلمة (سير) SIR السومرية التي تطلق على الترنيمة أو الترتيلة أو الإنشاد. وذكرت أن مقابلتها في الأكديّة (صيرخو)، وفي العربية (صرخ)، وهي ليست سوى صرخة تموز... الخ. لكنني أود أن أضيف هنا أنني أميل إلى الاعتقاد بأن SIR السومرية هذه ربما كانت أصل كلمة (الشعر) العربية. فنحن نستعمل الاسم (الشعر)، ولا نستعمل الفعل (شعر). بمعنى قال الشعر. هذه تستعمل في القاموس. ومن المستغرب أن كلمة الشعر لا تبدو أنها مشتقة من فعل من نفس المادة. وهذا يدعوني إلى الاعتقاد - عن غير يقين - بأن كلمة الشعر ربما جاءت من SIR السومرية. أنا أعلم أن اشتقاق الكلمات يمكن أن يكون مضللاً، لذلك كنت أعتقد أن التعامل مع الألفاظ المتشابهة هو كالمشي على البيض. لكنك لا تتردد مثلاً في إرجاع كلمة (قنديل) إلى .candle

في كل الأحوال، لما كانت الرواية مشروعاً موجلاً عندي، لأسباب أجهلها، فأنا أشعر أنني أستطيع أن أكتب مواضيع كأنها كانت تنتظر

مني أن أكتبها. وهذا كان ممكناً جداً في أكثر من حقل، بالنظر لثقافتي
الواسعة واهتماماتي المتعددة. واللغة كانت أكثر المواضيع طواعية
لي. وكذلك الرياضيات، والفيزياء. وأنا استدرجت إلى الفيزياء لأن
موضوع ميكانيك الكم كان يستفزني بشدة، لاسيما في مبدأ الاحتمية
الذي قال به فيرنر هايزنبرغ، ونيلزبور، منذ العشرينات، ولا تزال
المؤسسة العلمية الرسمية تتشبث به. لكنني سأعود إلى هذا الموضوع
بمزيد من التفاصيل (المهمة جداً).

أعود إلى موضوع اللغة. أنا كنت أجد سعادة في تعاملي مع موضوع
اللغة، وبنفس المقدار كنت أشعر بالحرج في كتاباتي النظرية عن اللغة،
لأنني لست متخصصاً في هذا الموضوع. وهذا الأحساس دعاني في
الأخير إلى الكف عن الكتابة في اللغة. وهذا عندما توصلت إلى قناة
بأن الوطن الأول للأقوام الهندية الأوروبية هو شمال وادي الرافدين،
إذاً أما بأن انتشارهم كان لأسباب زراعية، وأن موطن زراعة الحنطة
كان هو الوطن الأول لهذه الأقوام. وتوقفت هنا لأن مزاعمي هذه
لن تجد من يقتنع بها، ما دمت أنا متطفل على عالم اللغة وكانت هذه
فرصة لأنصرف إلى الفيزياء وموضوع ميكانيك الكم. وكانت حصيلة
اهتماماتي العلمية هذه، أن أنجز كتابين، أولهما بعنوان: (الثورة
العلمية الحديثة وما بعدها)؛ والثاني بعنوان: (تأملات في الفيزياء
الحديثة). وسأعود إلى هذا الموضوع فيما بعد. وكتبت في الموسيقى
مواضيع شيقة، جمعتها في واحد من أحب الكتب إليّ، أعني به (أسرار
الموسيقى)، الذي اختاره في طبعة ثانية، في مشروع (الكتاب للجميع)،
الصديق فخري كريم.

لكنني فوجئت ذات يوم من أيام أيار سنة ٢٠١٣ برسالة إلكترونية

من ابنتي زينب تفيد بأن «معظم البريطانيين تحذروا من فلاحين ذكور تركوا العراق وسوريا قبل عشرة آلاف سنة». وذلك في ضوء دراسة جينية. وهذا يعني أننا أقارب مع الأوروبيين، فبعد دراسة الـ DNA لأكثر من ألفي رجل، أكد الباحثون أن لديهم أدلة دامغة على أن أربعة من خمسة أوروبيين في وسعهم أن يترسوا جذورهم إلى الشرق الأدنى. وقد نشرت هذه التفاصيل في جريدة (الحياة)، في ١٤ أيار، ٢٠١٣. وهذا يؤكد أن كتاباتي اللغوية لم تكن احتطاباً في ليل.

الفصل السابع

كان لانهييار النظام الاشتراكي وقع فاجع علينا، نحن المؤمنون بالاشتراكية. وقد فقدت منظمة التحرير الفلسطينية رعاية الدولة المجرية بعد تغيير النظام فيها. وبقدر تعلق الأمر بي لا أذكر متى قطعت عني معونة منظمة التحرير الفلسطينية. لعلها انتهت بعد هذه الاحداث بمدة غير طويلة. وتعين عليّ أن أبحث عن مورد مالي حتى لو كان شحيحاً. وقد بقيت أقيم أودي من مدخراتي، وأنتظر مكافآت مجلة الكرمل الفصلية التي صرت أكتبها منذ عام ١٩٨٧، وكانت ٥٠٠ دولار عن كل مساهمة. وفيما بعد، في ١٩٩١، اتصل بي محرر صفحة آفاق في جريدة (الحياة)، السيد أحمد أصفهاني لأساهم في الكتابة إلى صفحتهم، بعد أن قرأ كتاباتي في مجلة الكرمل. لكنني لم أجزع كثيراً لأن مدخراتي كانت تبلغ ١٨ ألف دولار، وتكاليف الحياة في المجر لم تكن باهظة. ولحسن حظي أنني استطعت أن أحصل على إقامة طويلة الأمد. لكن المستقبل أصبح غامضاً.

في تلك الأيام، في خريف ١٩٨٩ وصلتني دعوة من وكيل وزارة الثقافة والإعلام، نوري المرسومي، الذي كان تلميذي يوماً ما، لحضور مهرجان المرشد. كان المرسومي يتصل بصديقنا ماجد علاوي في بغداد، وأحب أن يغتنم فرصة انعقاد المهرجان لأزور أهلي. وقد أخبر الصديق ماجد صديقنا نوري بذلك. وأحيطت زوجتي علماً بهذه الدعوة. فوضعوني أمام الأمر الواقع، بعد أن أكدوا أن المدعويين إلى مهرجان المرشد يعاملون معاملة خاصة. وأنا كتبت فيما بعد عن هذه الدعوة وملاساتها في مجلة (المدى). وأرى أن أنقل لأصدقائي القراء ما جاء في هذا المقال الطويل ليقفوا على أخبار تلك الدعوة، التي لم أستجب إليها بسهولة، بسبب تعرضي إلى ضغط «الرفاق» في الخارج المعارض لهذه الدعوة.

الطريق الطويل إلى متسلق الجهنمية في بغداد

«ومجالسة أهل بغداد تورث الفتك واللباقة والنظافة»

أخبار البلدان، لابن الفقيه

«عزيزي الأخ علي

أطيب تحية

منذ أيام حضر إلى لندن الأخ (...). والأستاذ (...). واستلمت منها دعوة رسمية لكم للمشاركة في مهرجان المرشد في تشرين الثاني القادم (١٩٨٩). إن الدعوة معي، وبواسطتها يمكنك دخول بغداد والخروج منها بضمناً الوزارة دون حاجة لمراجعة أي جهة رسمية.. هكذا كان الأمر بالنسبة لكثيرين ممن لم تكن عندهم أصلاً رغبة بالزيارة.

«إذا كنت مستعداً للزيارة، بموجب هذه الدعوة، فسأرسل الدعوة لك، لأنهم لا يرغبون في توجيه دعوة لشخص يرفض تليبيتها.. الأمر متروك لكم.. وأرجو الاتصال بي هاتفياً أو تكتب لي. هذا ولكم خالص الود والمحبة»
أخوكم (...).

كان الأخ (...). المشار إليه في مستهل الرسالة، وهو مسؤول كبير في وزارة الثقافة، أحد تلامذتي في الخمسينات. اتصل، في مسعى آخر، بصديق لي مقيم في بغداد، وأكد رغبته في أن يسدي إلي هذا المعروف: زيارة بغداد، ولقاء العائلة، في هذه المناسبة. وتلقيت، أيضاً، أكثر من رسالة من بغداد، إحداها من ابنتي زينب التي كبرت الآن ودخلت الجامعة، تقول في رسالتها: «... إن لم يكن لنا مكان في قلبك يا أبتني، فتعال من اجل البلبل⁽¹⁾ ومتسلق الجهنمية وأشجار النارج، التي كنت تحن إليها في رسائلك».

كانت رسائل عائلية أخرى تضرب على مثل هذا (العتاب الموجه). لكن رسالة زينب أصابت مرماها في الصميم. ذكّرني جيداً بانني أب على أية حال، بمعنى أن لي واجبات تجاه من بت مسؤولاً عنها، شئت أم أبيت، هي وشقيقتها الصغرى رباب.

ومر الشريط بأكمله أمام المخيلة، المعذبة، الحائرة، المترددة... شريط من ذكريات لم تكن يومها هائلة تماماً، لكنها كانت مفعمة بالحب

١. كانت في حديثنا أكثر من شجرة تين، وكان هذا البلبل يزور حديثنا في موسم نضج ثمارها. ويوقظني عند الفجر بصوته العذب. وكنت أتسابق معه في جني أنضج الثمار وأحلاها.

والأمل، مع أنني لم أكن ذلك الأب المثالي، بحكم كوني دودة كتب لم أتخل عن عادتي هذه حتى بعد الزواج. لكنني مع ذلك كنت أحد الأركان الأساسية للعائلة، وبغياي تركت فراغاً كبيراً. وقد مرت عشر سنوات بالتمام والكمال على هذا الغياب، القسري، «اللامسؤول» في نظر العائلة، في أثنائها جرت مياه كثيرة - ودماء - تحت جسور بغداد. فلم يكن من «الشهامة» أن أتركهم وحدهم يصارعون القدر.

ثم إن بغداد في القلب، مثلما كانت اسبانيا يوماً ما^(٢)... بغداد الطفولة، والصباء، والاكتهال... بغداد التي كانت نصفها تقريباً مزرعة لأجدادي المباشرين. وصحيح أن هذه «القطيعة» من أرض الأجداد تقلصت على مر الأجيال. إلا أن بغداد التاريخ والذكريات والحلم بقيت في القلب.

«وحدّث أحمد بن حميد بن جبلة، قال: حدثني أبي عن جدي جبلة، قال: كانت مدينة أبي جعفر قبل بنائها مزرعة للبغداديين يقال لها المباركة. فلما أخذها المنصور، عوّضهم منها عوضاً رضوا به؛ فأخذ جدي من ذلك حصته»^(٣).

عام ١٩٨٤ شددت رحالي إلى لندن للقاء عمي أحمد، المغترب هو الآخر، وكانت له شقة في جنوب غربي لندن، في شارع Cromwall Gardens. أمضيت بصحبته أياماً هائلة. وكانت زوجته (ام نبيل) تقدم لنا ما لذ من الطعام، معداً على الطريقتين العراقية والأوربية. لكن

٢. عنوان كتاب عن الحرب الأهلية الإسبانية.

٣. (اخبار البلدان، لابن الفقيه، ص ٦٨، مخطوطة)

أحاديثنا عن أيام زمان كانت أجمل ذكريات خلفها هذا اللقاء... كان في ذهني عدد من الأسئلة حرصت على أن أ طرحها على العم قبل أن يتوفاه الأجل. سألته في البدء عن منطقتنا، أو بستاننا (الشوكية)، وعن تاريخها.

«البستان؟» قال عمي، ونادى بصوت عال «أم نبيل، يا أم نبيل... هاتِ سند البستان المؤطر».

أحضرت أم نبيل سنداً مؤطراً محفوظاً خلف زجاجة، ومدوناً بالخط النسخي بالحبر الأسود، وكان أثر القدم بادياً عليه (دوّن في عام ١٧٦٤ م). جاء فيه (وانا انقله على هناته وعلائته) :

«السبب لتحرير هذا الكتاب هو أنه قد حضر الرجل السيد منصور السيد حسين وباع مما هو ملكه وتحت تصرفه وهي قطعة البستان المنتقلة اليه بالشراء الشرعي من حسين بن عبد السيد وصالح بن مهدي (...). بحسب منطوقة الحجة الشرعية التي في يده من حاكم الشرع الشريف طوبى له وحسن مآب لناقلين (كذا) هذا السند الشرعي عبد الحسين ابن الحاج عبد الرحمن الشوك و اخيه حسن ابن الحاج عبد الرحمن الشوك هذه القطعة البستان المذكورة بحدودها المعلومة، حد الأول إلى ملك امين بن درويش على أخيهم، والحد الثاني إلى ملك المشترين عبد الحسين وحسن والحد الثالث إلى الدجلة العظمى، والحد الرابع إلى طرق المسعودي، بمبلغ قدره وبيانه متني ذهب زر محبوب رايح في بغداد دراهم معدودة، لا مؤجلة ولا موعودة. وقبض البايع السيد منصور من يد المشترين عبد الحسن وحسن هذا المذكور بالتمام والكمال، وأذن لهم أن يتصرفا في قطعة البستان هذه المشتملة على نخل وأشجار وفسلان كتصرف سائر الملاكين في أملاكهم، وذوي الحقوق

في حقوقهم من غير مانع شرعي بحضور جماعة من المسلمين، تحريراً في اليوم العاشر من شهر رمضان المبارك لسنة ثمان وثمانين من بعد المئة والألف. أقر بما فيه الوصل السيد منصور ابن السيد حسين... شهود عيان (مع اختتامهم) وعددهم ١٢ شاهداً».

تلك هي، إذن، حدود بستاننا القديمة: بين الكريعات شمالاً، وجسر السنك (حالياً) جنوباً، وبين الدجلة العظمى شرقاً وطرق المسعودي غرباً (وهو غير المسعودي صاحب مروج الذهب، على ما يبدو، وكانت والدتي تحدثنا عن أرض المسعودي هذه، وتقول: أن بها سباع كانت تقيم، ولا يقربها أحد من أهالي بغداد). ولا بد أن الصالحية الحالية سميت باسم صالح بن مهدي الذي انتقلت ملكية إرضه إلى أجدادي شراءً، كما جاء في هذا السند الشرعي. أما العملة الذهبية «زَرَّ محبوب»، فكان لدى السيد عبد الهادي الصراف، الذي تصاهر مع عمي أحمد، مقدار منها أهداه إلى المتحف العراقي. وقد عثرت - في سياق اهتماماتي اللغوية - على كلمة «زَرَّ» في نص فينيقي يرقى إلى القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد وردت فيه كلمة (زر) zr اسماً لعملة صغيرة، أو لعله كان اختصاراً لاسم هذه العملة. ولا أذكر أن هذه العملة كانت مستعملة في العهود الإسلامية (في حدود علمي)، فكيف ظهرت قبل أكثر من مئتي سنة؟

«وقال محمد بن موسى بن الفرات الكاتب: سمعت جدي يقول: كنت في ديواني يوماً فدخل إلي رجل من دهاقين بادوريا، له قدر، فرأيته مخرق الطيلسان؛ فقلت: من خرق طيلسانك؟ فقال: خرق والله في زحمة الناس وتضاغظهم في موضع طالما طردت فيه الأطباء والأرانب.

قلت: وأين هو؟ قال: باب الكرخ»^(٤). وسألت عمي: كيف تقلصت كل هذه الأرض الواسعة التي كانت تعود لأجدادنا إلى رقعة (الشوكية) فقط؟ فحدثني عن أكبر صفقة عقدها أبوه، وهو جدي المباشر، في أوائل هذا القرن، قائلاً: بإيعاز من الحكومة العثمانية طلب المسؤولون في بغداد من أبي أن يبيع للألماني (يقصد الحكومة الألمانية) شريطاً من أرضه في سياق مشروع إنشاء خط سكك حديد برلين - بغداد. وتم البيع في السراي، وكان المبلغ عشرة آلاف ليرة ذهبية. ولم يكن يومذاك ثمة مصارف، فوزع أبي على البالغين من إخوتي بنادق وأكياساً، وتوجهوا على ظهور الخيل إلى السراي، فحمل كل منهم كيساً من هذه الليرات الذهبية، ثم عادت الكوكبة بأحمالها إلى الشوكية.

وفيما بعد أكد لي سلمان شكر، الذي تربطه بنا علاقة حميمة، هذه الرواية التي رواها له المرحوم والده، وقال إن جماعة من اللصوص كانت ترصد الكوكبة، لكنها تراجع بعد أن تبين لها أن المعركة لن تكون في صالحها.

وعلى الأرض التي انتقلت ملكيتها إلى «الألماني» بُني القصران المعروفان بقصري السكك، اللذان يقعان على جانبي شارع كرامة مريم، على مبعده يسيرة من دار الإذاعة العراقية، باتجاه كرامة مريم. وبقي هذان القصران قائمين حتى السبعينات على ما أظن. وقد أقام في أحدهما (الأيسر، إذا كانت وجهتك صوب كرامة مريم) الأمير عبد الإله في عهد الملك غازي؛ وكنا نحبيه في طريق ذهابنا إلى مدرسة المنصور الابتدائية المقابلة لدار الإذاعة.

٤. اخبار البلدان، لابن الفقيه، ص ٦٩، مخطوطة.

«قال: رأيت عند باب قطيعة (إقطاعية) الربيع قبل بنائها كزماً ومعصرة، وهو المكان الذي بُني فيه خان الطيالة والحوانيت التي يباع فيها الكاغد الخراساني»^(٥).

قلت لعمي: «كنا نسمي حينا (البستان)، مع أنه لم يكن مزروعاً بغير النخيل».

قال: «ما يبقى من كل بستان هو النخل. لكن أرضنا كانت عامرة بكل أصناف الزروع، من جوب، وخضرة، وفاكهة. كانت سيقان الدخن تعلو قامة إنسان. وبينها اختفى عمك المرحوم الحاج سلمان بعد أن هرب به عمك المرحوم حسن من الطابور المتوجه إلى سفر برلك».

وأخبرني عمي بأن والد جدي هو الذي أدخل اللانكي (الماندرين) إلى العراق، بعد أن زرعه في بستاننا؛ وأن جدي هو الذي أدخل زراعة الطماطم؛ وعمي - جاسم - أدخل زراعة البطاطا.

يستفاد من هذا إن صحت رواية العم، أن «النومي» كان موجوداً في العراق قبل اللانكي. ومعلوم أن النارج كان، هو والأترج، أقدم أصناف الحمضيات في العراق والعالم العربي، لأنهما كانا معروفين منذ أيام العباسيين. ولا بد أن «النارج» فارسية الأصل، ومنها جاءت كلمة orange كما هو معلوم. أما البرتقال فلعله عُرف في العراق منذ احتكاك البرتغاليين بجنوب الجزيرة العربية والخليج، وذلك من القرينة اللغوية (برتقال = برتغال). ومن المعلوم أن الموطن الأصلي لليمونيات أو الحمضيات هو الصين.

٥. مخطوطة ابن الفقيه.

«فأما مفاخرة القوم بالديار والمقاصير وسائر الأغذية والتدابير، أو مما ببغداد من سائر الفواكه والثمار وغرايب النخل والأشجار، فظن ما شئت أن تظنه. وعُدَّ ما شئت أن تعده، تجده موجوداً غير مفقود، وقریباً غير بعيد. زعم لي مهرويه باغبان السلطان أنه يعرف بمدينة السلام نيفاً وسبعين نوعاً من التفاح. ثم عدّها، فتبسم أخوه شهريار، ثم قال: وكذا وكذا، زيادة على ما قال أخوه بنحو اربعمئة نوع وتسعة أنواع وما ظنك ببلد من جميع ما فيه من غرايب الأشجار وأجناس النخيل والبقول والمزارع والثمار، ينبت الأترج والنارنج، كما ينبت الزعفران والأقحوان وكما ينبت الفستق واللوز والزعرور والموز والشاهلوط والجوز والغبيراء والجلوز والسدر والحبة الخضرا واللفاح والبندق والبلوط والمقل والبستان والهليون والرياس والفوة... ما لا يحصى ولا يلحق من جميع الاشياء...»^(٦).

سألت عمي: «وماذا عن (السنّ) عند جرف الشط، تحت الملهى في الصالحية. اعني الاساسات من الطابوق الفرشي، التي كنا نقف عليها - في ايام الصيهود - عندما كنا نسبح في صغرنا. اصحيح انه من بقايا قصر هارون الرشيد؟»

قال: «تقصد اليوسفية؟»

قلت: «أي يوسفية؟ هل هناك يوسفيتان؟»

قال: «أكثر...».

هنارنّ الجرس، ودخل ضيف أثقل من ستين كابوساً، فانقطع

٦. مخطوطة ابن الفقيه، ص ٩٤.

الحديث، وكان ذلك آخر عهدي بعمي الذي توفي بعد ذلك بعام واحد. اتصلت بصاحبي في لندن وأبلغته بموافقتي على تلبية الدعوة. وانتظرت أياماً إلى أن تسلمت تذكرة السفر على الخطوط الجوية العراقية عن طريق بلغراد (من بودابست). بعد أن أمضيت ليلة في بلغراد، توجهت إلى مطارها، وهناك رحب بي موظفو الخطوط الجوية العراقية.

كانت إجراءات التفتيش الأمنية العراقية مشددة. بعد أن سلمنا حقائبنا التي خضعت للتفتيش الشعاعي، ومررنا عبر الجهاز الكاشف، قادونا إلى الطائرة لتعرف مرة أخرى على حقائبنا قبل إدخالها إلى الطائرة. ومن مؤخرة الطائرة دخلنا لنخضع لتفتيش آخر، نحن وما نحمله من حقائب صغيرة. لكنني أخبرت المسؤول الأمني، الذي كان يفتح الحقائب ويجس ويعس الجيوب والصدور ومواضع أخرى من الجسد، بأنني مدعو لمهرجان المربد، فأعفاني من التفتيش.

كانت طائرة البوينغ فارهة باذخة، والمضيفات يستقبلننا بابتسامتهن العراقية المألوفة وهن يقدمن لنا الحامض حلو، واللّهجة العراقية تعيد إلى ذهنك ألف ذكرى وذكرى.

لم تكن الطائرة ممتلئة. كنت بمفردي أشغل مقعداً بين آخرين فارغين... هذه «الخلوة» تركتني نهياً لمشاعر شتى.. ترى كيف سأجد بغداد بعد هذه السنوات العشر من الغربة؟

«وذكر أحمد بن الحارث الخراز أن بغداد صُورت لملك الروم بأرباضها وأسواقها وشوارعها وبساتينها وأنهارها من جميع جانبيها الشرقي والغربي. قال: فكان كثيراً ما يُحضر الصورة ويتأملها

ويستحسن شارع باب الميدان. ويتعجب من حسنه وحسن القصور التي فيه. ويزداد استحسانه لشارع الزلادين وسويقة نصر بن مالك إلى الثلاثة الأبواب والقصور التي في هذا الشارع. وكذلك أيضاً كان يستحسن الأسواق من الخضرية إلى قنطرة بردان. وكان يقول: قد كان يجب على ملك العرب أن يجعل داره في هذا الشارع، ويجعل إصبغه على شارع الزلادين. وكان إذا شرب دعا بالصورة فيشرب على هذه الشوارع التي ذكرناها لحسن أبنيتها وقصورها»^(٧).

ولقد قيل إن بغداد شهدت تغيراً كبيراً في عقد الثمانينات، رغم هموم الحرب. وإذن؟

«ما لون بغداد وما طعمها

ما صحو بغداد وما نومها

ما شمسها، ما الناس ما نجمها

سبحانك - اللهم - جلّ اسمها» صلاح نيازي

في المظان العربية إن لفظة «بغداد» فارسية الأصل. ويذكر المقدسي، وابن رسته، عدة تفاسير للاسم منها: عطية الله (أو الصنم). ويرجح الباحثون الغربيون المعاصرون هذا الأصل الفارسي (لاحظ، Salmon، Strange، هيرتسفيلد، الخ)، في حين يرجح آخرون الأصل الآرامي، الذي يعني «بيت أو حظيرة الضأن» (يوسف غنيمة، وانستاس الكرملي في لغة العرب). لاحظ إشارة الطبري إلى سوق البقر على مشارف بغداد... لكن هناك وثيقة رسمية من أيام حمورابي (في حدود ١٨٠٠

٧. مخطوطة ابن الفقيه، ص ٨٤.

ق. م). تشير إلى ذكر مدينة بغداداو Bagdadu، الأمر الذي يعني أن الاسم كان مستعملاً قبل هذا الملك، وبلا شك قبل أي نفوذ فارسي. وفي اللغة السومرية تُستعمل للفظتي (باغ)، و (خُو) نفس العلامة، أي أن (بغدادو) تقرأ (خُداداو) أيضاً. وهناك حجر حدود من أيام الملك الكاشي (البابلي) نازيما روتاش (١٣٤١-١٣١٦ ق. م) يتطرق إلى ذكر مدينة Pilari على ضفة نهر شارّي في منطقة Bagdadi. وفي التلمود يرد ذكر Bagdatha أكثر من مرة. وهناك حجر حدود آخر يرقى إلى عهد الملك البابلي Mardukapaliddin (١٢٠٨-١١٩٥ ق. م) يتطرق إلى ذكر بغداد Baghdad. وفي القرن الثامن ق. م. أصبحت بغداد مستوطنة آرامية.

المنصور أطلق على مدينته اسم مدينة السلام، تذكراً بالفردوس (القرآن الكريم، سورة ١٢٧: ١٠: ٢٦). كان ذلك الاسم الرسمي على الوثائق، والنقود، والأوزان، الخ. واستعملت صيغ أخرى من التسميات مثل بُغدان، مدينة أبي جعفر، مدينة المنصور، مدينة الخلفاء، الزوراء. ويبدو أن الزوراء اسم قديم. كما يشير الفخري. ويؤكد المؤرخون العرب أن المنصور بنى مدينته حيث كان هناك عدد من المستوطنات السابقة للإسلام، أهمها قرية (بغداد)، على الضفة الغربية من دجلة إلى الشمال من الصراة. ويشير البعض إلى بادرويا، ويذكرون سوقها السنوي. وهذا إنما يقدم تفسيراً لماذا أصبح الكرخ فيما بعد حياً للتجار؟ ولفظة (الكرخ) آرامية من (كرخا)، وتعني (مدينة محصنة). أخذت من اسمها قرية أقدم تنسبها المصادر الفارسية إلى شاهبور الثاني (٣٠٩-٣٧٩ م) (عن المستوفي، الطبري، الخطيب، الخ).

ويقول كسينوفون: إن الفرس الإخمينيين كانوا يملكون متنزهات

واسعة (أراضٍ لصيد الطرائد وللنزهة) في منطقة بغداد. ويشير الكتاب العرب إلى اثنين من هذه المنتزهات. وقرب مصب نهر عيسى كان يوجد قصر ساساني (قصر سابور)، حيث أقام المنصور هناك فيما بعد جسراً. وفي الجانب الشرقي، كان سوق الثلاثاء ومقبرة الخيزران موجودين قبل الإسلام. وكان هناك أديرة في المنطقة ترقى إلى ما قبل الإسلام، مثل دير مارفائسون (الدير العتيق)، حيث بُني قصر الخلد، ودير بستان القس، ودير الجاثليق، الذي دُفن بالقرب منه الشيخ معروف الكرخي (هذا الحديث عن تأريخ بغداد واسمها مصدره الموسوعة الإسلامية).

«قال سليمان بن مجالد: ووجّه المنصور في حشر الصنّاع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة، فأحضروا. وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقهِ والأمانة والمعرفة (كلمة أو أكثر غير واضحة) فجمعهم وتقدم اليهم ان يشرفوا على البناء. وكان فيمن أحضر الحجاج بن أرطاة وابو حنيفة. ثم امر بخطط المدينة وحفر الأساسات وضرب اللبن وطبخ الآجر. فبدأ بذلك وكان أول ابتدائه في عملها سنة خمس وأربعين ومائة. وكان المنصور أراد أبا حنيفة أن يتولى له شيئاً من أمرها فأبى، وأداره على القضاء فأبى أيضاً، فحلف المنصور ان لا بدّ له من أن يتولاه، فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل، فولاه عدّ اللبن، وأخذ الرجال بالعمل. وإنما فعل المنصور ذلك ليخرج من يمينه، فكان أبو حنيفة يتولى ذلك حتى فرغ من استتمام الحايط الذي يلي الخندق. وكان الفراغ منه سنة تسع وأربعين ومائة. وكان أبو حنيفة أول من عدّ اللبن بالقصب.»^(٨)

«قال إسحاق بن ابراهيم الموصلّي (المغني والموسيقي العباسي

٨. اخبار البلدان، لابن الفقيه، ص ٦٠، مخطوطة.

المعروف): لما أراد المنصور بناء مدينته، شاور أصحابه في ذلك. وكان في من شاورهم خالد بن برمك، فأشار عليه ببناؤها. فلما عمل منها صدرأ صالحاً احتاج إلى الآجر. فعزم على نقض ايوان كسرى الذي بالمداين، فلم يقل شيئاً. فقال له: لم لا تتكلم يا خالد وتشير بما عندك؟ قال: لا أرى ذلك، يا أمير المؤمنين. قال: لأنه علم من أعلام الإسلام يستدل به الناظر والوافد (؟) من الملوك على عظم شأن أربابه وعن سلطانهم، وان الاسلام قهرهم وأزالهم عنه، وأيضاً فإن فيه مسجداً لأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه. قال: هيهات، يا خالد، ابيت الآ التعصب لأصحابك والميل إليهم. وأمر بنقضه، ونقض ما حوله من الأبنية. قال: فنقض شيء من ذلك وحمل آجره إلى بغداد. فوجدوا النفقة على هدمه وحمله ومؤنثه أكثر مما ينفق على الآجر الجديد إذا عمل، فزفح ذلك إلى المنصور، فأمر بتركه وأحضر خالدأ فعرفه الخبر، وقال: ما عندك في هذا؟ فقال: قد كنت أشرت على أمير المؤمنين الآ تعرض لشيء من نقضه، فلم يفعل. فأما الآن، وقد ابتدأ بذلك، فما أرى أن يكف عنه حتى يلحقه بقواعده، لتلا يقال إنه عجز عن هدم ما بناه غيره. والهدم أيسر من البناء. فتبسم المنصور، وأمر بترك ذلك»^(٩).

بعد عودتي إلى بودابست ببضعة شهور - وأنا إنما أستطرد هنا استطراداً تاريخياً أيضاً - كان ذلك في عام ١٩٩٠، وقفت على دراسة جديدة صادرة من جامعة بيركلي - كاليفورنيا (وهي نفس الجامعة التي درست فيها قبل أربعين عاماً)، بعنوان (مسح ميداني لمدينة أكد) بقلم كريستفول - روماننا، يحاول البرهنة من خلالها، في ضوء معطيات تاريخية ودراسة مسحية، على أن مدينة أكد القديمة التي يقترن ذكرها

٩. أخبار البلدان، لابن الفقيه، ص ٦٤، مخطوطة.

بسرجون الأكدي الشهير، وحفيده نرام - سن، والتي لم يحدد موقعها تماماً حتى ظهور هذه الدراسة: استناداً إلى E. A. Speiser يرجع لفظ مدينة أكد Agade إلى Aga-de. من أصل حوري (وهم، الحوريون، قوم غرباء أقاموا في شمال العراق وسوريا) أو لُولُوبي Lullubia، وذلك على غرار Arak-di، Lub-di، Tai-di. «لكن كاتب الدراسة، كريستفول - روماننا يتساءل: هل يُستبعد الاشتقاق السومري من الفعل الشاذ a-dé «يصب الماء» في a-ga-dé «سأصب ماء»؟»

وبعد دراسة تاريخية وجغرافية ومسحية توصل الكاتب إلى أن موقع مدينة أكد هو «تل محمد» في منطقة بغداد الجديدة. ويأسف لعدم إمكان إجراء التنقيبات الحفرية في المنطقة، بأمل دعم رأيه آثارياً، لأن المنطقة مأهولة بالسكان. ويقول: «في ضوء دراستي يتضح أن مدينتي بغداد وأكد متقاربتان، الأمر الذي يدعونا للتساؤل، هل كانت بغداد إحياء (بعثاً) لمدينة أكد؟ ثم إن الشبه بين اسميهما يدعو للدهشة، وغموض اسم بغداد يؤكد هذه العلاقة. ومع أن الاسم خُدادو الذي عرف منذ العصر البابلي القديم ينبغي أن يُقرأ بغدادو Bagdadu (وخُداداو تقع بين Sippar ودجلة)، فإن إقدام ذكر لبغداد جاء في التلمود البابلي، الذي كتب قبل القرن الخامس الميلادي، وبصيغة Bagdatha. وقد أشار المؤرخون العرب القدامى إلى أن الاسم كان موجوداً قبل المنصور، وكانت بغداد تسمى بالصيغ الآتية: بغداد، بَغدان، مَغداد، مَغدان. ومن بين هذه التسميات يبدو أن المقطع الوحيد المحدد هو agda، وهو ما يمكن أن يقابل لفظة Agade التي لا نعرف شيئاً عن أصل معناها». وهو تخريج قد يبدو مقبولاً، لكن لا يمكن القطع به، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الباء في أول كلمة (بغداد) قد يكون اختصاراً للكلمة «بيت» التي

كانت تلحق بأسماء بعض المدن الآرامية، أو ذات التسميات الآرامية، مثل (بعقوبة)، (بعشيقة).. الخ.

«تفضل عيني» قالت المضيفة وهي تقدم لي وجبة عشاء ساخنة، مع بقلاوة، كعقبي... المسافات تطوى، والظلام دامس عبر نافذة الطائرة الدائرية الصغيرة. والهدوء يغري على الاسترسال في التفكير والتأمل. ترى ما هي آفاق هذه الزيارة التي خلفت ردود أفعال متضاربة، ما بين تعال ولا تذهب. انهالت عليّ من كلا الجانبين: من الداخل تجلديني لتردد الذي لا تجد له معنى، ومن الخارج تسوطني لمواقفي على حضور المهرجان. لكن نداء «تعال» كانت له الاستجابة الأقوى.

نصف الساعة الأخيرة أزجيتها بالقراءة في كتاب فرغت إليه هرباً من أفكار، عنوانه «غضب (الآلهة) أئينا». رحلت أقرأ فيه تفاصيل عن اوديسيوس: عن جذر اسمه، وعن هويته الغامضة إلى حدّ ما، وخودته التي ورثها عن جده اللص أو تولى كوس الذي سرقها من شخص فينيقي... كنت يومذاك أكتب كلمة عن هوميروس، نشرت فيما بعد في مجلة (الكرمل).

أعلن ملاحو الطائرة أن الهبوط سيتم بعد خمس دقائق. تجمّدت حواسي تماماً، ولم يعد ذهني يتقبل شيئاً. طويت الكتاب ووضعته في الحقيبة الصغيرة... لا بدّ أن ابنتي رباب، التي تركتها وعمرها أقل من عام، أكثر المستقبلين لهفة لاستقبالي، لترى كيف هو شكل أبيها، مع أنهم أروها صوري التي لم تكن مطابقة لما ترسمه المخيلة. قبل عامين دمرتني رسالتها:

«رسالة من رباب إلى بابا

أبي العزيز أتمنى ان تكون هذه الرسالة أول رسالة أكتبها لك وأنا في
الصف الرابع الابتدائي إن شاء الله رسائل كثيرة لأتعد ولا تُحصى وأنا
الآن كأني أتكلم مع أبي وهو الذي أراه كل يوم وأتمنى أن تأتي الحمامة
البيضاء وتأخذني على ظهرها وآتي لك يا أبي العزيز والحبيب وأتكلم
عن أحلامي وأقبلك أنا الآن أعرف الخياطة وأيضاً التطريز والامتل
والحياكة يا أبي وهذه الرسالة أود أن تكون معبرة عن مشاعري

من اللقاء في الرسالة الجديدة

وشكراً

«التوقيع رباب»

نبضات القلب تتسارع، وقاطرة في الأذن.. الخارطة الضوئية لبغداد
من الجو مذهلة. فسيفساء مذهل في لاتناسقه المتناسق... وبدأت
معالم الابنية والشوارع تبين. ثم دخلنا جو المطار. لحظات القلق ترقباً
لارتطام عجلات الطائرة بمدرج المطار مرت بدون أن نشعر بها تقريباً.
الطياريون العراقيون يتمتعون بسمعة ملاحية حسنة. صفق الركاب.
حواسي مستوفزة تماماً.

لدى ترحلنا من الطائرة في خرطوم الجناح المخصص لها، حاولت
أن أبدو طبيعياً... خطوات... خطوات... خطوات، ثم الحزام الدوّار
لتسلم الحقائق. لم نتأخر كثيراً... هناك نصف عشيرة بانتظاري. لكن
بصري لم يقع على أي من أفراد عائلتي (زوجتي وابنتي).

«الأستاذ علي الشوك؟»

«نعم».

«أنا (...). من دائرة المراسم في وزارة الثقافة والإعلام، تفضل معي رجاء».

تبعته وأنا أحمل معظفي الثخين وقبعتي اللباد وحقية صغيرة بيد، وأسحب حقيتي الكبيرة بيد أخرى. لم يساعدي. إباء الموظف المعتز بمركزه. كان شديد الأناقة؛ وجهاً لا أعرفه، في حين تعرّف هو علي فوراً، من بين جميع الركاب.

«أعطني جوازك، رجاء».

عند ضابط التأشيرات انحنى وهمس له بشيء. تم تأشير الجواز بثوان. اجتزنا الحاجز. كان المطار جديداً وحديثاً في كل شيء.

«هل تحب أن أوصلك إلى البيت، أم تفضل أن تذهب بصحبة الأهل؟ أرى انهم عشيرة بانتظارك».

«شكراً، سأذهب مع العائلة».

«الأستاذ (...). سيكون بانتظارك غداً في الحادية عشرة صباحاً في قاعة الرشيد».

«طيب، شكراً، مع السلامة».

إنهم يلوّحون ويتسمون. تانك شقيقتاي بالسواد، وذاك شقيقي يرتدي رباطاً أسود أيضاً، والصدیق نوري السعدي، لشد ما يبدو أنحف وأكثر شيباً.. والعديل، والعديل الآخر، وآخرون. يا إلهي أين عائلتي؟ حتى زينب لم أتعرف عليها أول الأمر. أما رباب؟... يقيناً، إنها تلك الصبية الحلوة، النحيفة، الرشيقة، التي تقف إلى جانب زينب،

نعم زينب الشابة الآن، والأكثر امتلاءً مما كنت أتصور. لكن أمهما لم تكن حاضرة... والابتسامات تشع، والمسافة تنقلص. توجهت نحو زينب ورباب:

«هل أنت رباب؟»

«إي، بابا»

«اية سعادة هذه... وأين ماما؟»

«بالبيت».

رافقتني إلى البيت كوكبة من السيارات. كنت أنا وابتتاي في سيارة الصديق نوري السعدي. لست أدري كيف نبت لي ألف لسان. كنت أتكلم بلا توقف، أنا الصموت، على مألوف العادة. وكان الصديق وابتتاي في حالة ذهول.

وصلنا منزلنا بعد الواحدة صباحاً. افترق عنا من افترق، ودخل معي المقربون. وكالعادة، دخلنا البيت من باب المطبخ، عبر الكراج المكشوف. كان البيت كله منوراً حتى الحديقة... وعند باب المطبخ كانت واقفة، بقامتها الشائخة ولكن المرتبكة. هجمت عليها لأحتويها بذراعي وأقبلها، فصّدت عني. لكنني طوقتها بيديّ بقوة وبإصرار.

عند ذلك أجهشت زوجتي باسمه بالبكاء، وراح شموخها، الذي يذكر بشموخ نخلة، يختض بانفعال، وتثال الدموع على خديها، وأنا أقبل شفيتها، ووجنتيها، ورأسها.

دلفنا إلى غرفة الجلوس. ثمة تغييرات في مرافق المنزل. ألغيت غرفة

الطعام كركن مخصص للطعام فقط (عند قدوم الضيوف). وألحقت بغرفة الاستقبال لتكونا معاً غرفة جلوس واحدة كبيرة، شطر منها على الطراز الشرقي. والشطر الآخر على الطراز الغربي. وكانت لوحة فرانز مارك «الغزالة الحمراء» ما تزال في موضعها. وكذلك لوحة ضياء العزاوي «تنامين في جسدي». إنما أضيفت سجادة صغيرة عليها آيات قرآنية.. وطلبت الإذن من المحتفين بي أن أطوف في بقية مرافق البيت.

رافقتني رباب في طوافي. كانت سيدة صغيرة بكل معنى الكلمة. بأناقته ورقتها ورسالتها. إنها الآن (١٩٨٩) في الصف السادس الابتدائي. «بابا، هل تحب أن أريك الكومبيوتر؟»، «كومبيوتر؟ بالطبع». «إي بابا، اشتريته أمي لزينب، وأنا أيضاً أستعمله. أعمل عليه برامج». كان موضوعاً فيما كنا نسميه الصالون، على المنضدة المضلعة ذات السطح المرمرى التي انتقلت إليّ من أثار والدتي، وهي من بقايا «جهاز» عرس امي المرحومة (توفيت هي وأبي في غيايبي). أصبح الصالون الآن غرفة لزينب. كنت أقرأ وأكتب وأستمع إلى الموسيقى فيه. ثم قادتني رباب إلى غرفتها، وأشارت إلى سرير آخر أضيف حديثاً، وقالت: «هذا سريرك، ستنام هنا في غرفتي»، «آها، ممتاز، لكنني سأترك بشخيري». «مخالف بابا».

ماذا كنت أريد أن أرى أيضاً؟ هناك بعض «الكلمات» أريد أن أرجع إلى معانيها المفصلة في قاموس تاج العروس، ومواضيع أخرى أبحث عنها في كتبي التي تركتها في الوطن. لكن، ليس الآن أوانها!... المهم أنني ألقيت نظرة على مكتباتي الموزعة في الصالون، والمجاز، وفوق، في البيتونة أيضاً.

«نريد أن نشرب نخب عودتك» قال الصديق نوري السعدي. «فما رأيك؟».

«بالطبع».

كان الصديق قد أحضر إلى البيت عدداً من قناني الوسكي من صنف Old Parr، بمناسبة قدومي، أحضرت واحدة منها، وفتحها، وصب لزوجتي ولي وله. وأحضرت المزة أيضاً، أكثر من صنف، بما في ذلك كبة حلب، من الأكلات المفضلة لدي، وهي من إعداد حماتي، أم زوجتي.

كانت رباب جالسة لصقي وأنا ألامس شعرها الكستنائي الذي رتبت تسريحته بيدها بكل أناقة (بعد قليل، وأذ أعربت عن إعجابي بجمال شعرها، ذهبت إلى غرفتها ورتبت تسريحته بطريقة أخرى)... وتحدثت كيف كانت تهرع مع أمها وجدتها وزينب إلى المجاز الداخلي ليحتمين من الغارات تحت الدرج، وذلك حسب التعليمات، وكيف تحطم زجاج النوافذ في الجهة الأخرى عند سقوط صاروخ في ذلك الاتجاه؛ وفي هذه الجهة أيضاً، حيث نجلس، عندما سقط صاروخ باتجاه القيادة القومية. وكانت جدتها حاضرة أيضاً معنا، فرددت: «يُمة، يُمة»، وهي تحرك يديها مثل عجائز قصة (زوربا)؛ واستلمت الحديث، وهي تلفظ كل فاءٍ بآءٍ لخلو فمها من الأسنان.. وكان الصديق نوري يتسم. ظل، هكذا تقريباً، يتسم طيلة الوقت. وزوجتي تقرب لي وله صحون المزة. وزينب تتطلع بشيء من ذهول. وأنا أنقل بصري بين الوجوه، والأثاث، متفقداً كل شيء.. بما في ذلك منافض السكاير ونقشة الثول على مائدة الطعام... لكنهم كتموا عني عدم حضور

أخي كامل لاستقبالي في المطار، أو في البيت. ولم أسأل عنه لأنني كنت في حمّى^(١٠).

عندما حان وقت النوم ودعنا الصديق، ووعدني بأن يوافيني إلى البيت في النهار التالي قبيل الحادية عشرة، ليقلني بسيارته إلى قاعة الرشيد. وأويت إلى فراشي. لكن صندوق الدنيا كان يدور في رأسي. وجفاني النوم تماماً. لم أذق طعم الكرى طيلة الليلة (أو ما تبقى منها في واقع الحال).. ثم انتبهت إلى رباب تحمل مخدتها وتذهب كالسائرة في نومها إلى غرفة أمها.

عند انبلاج الفجر غسلت وجهي وتلفّعت بالمبذل لأتفقد الحديقة من الباب الخلفي، وأنا أحاذر أن أحدث صوتاً يكدر نوم من في البيت.. لدى خروجي من الباب نفرت قطعة كانت ملتفة على نفسها فوق سخان الماء الغازي التماساً للدفء. وواجهتني جبال الغسيل في نفس موضعها، يتدلى منها عدد هائل من القراصات بألوان شتى.. لكن ماذا حلّ بشجرة التين؛ إنها لم تعد زاهية بخضرتها كما كانت بالأمس. وذكرتني شجرة السدر بأولاد الجيران الذين كانوا ينغصون قيلولتنا في موسم نضج ثمارها. وهذا لوح البقدونس والنعناع الذي يزود البيت بهذه الخضرة.. وقد كبرت شجرة الأكاسيا، وتلك الأخرى التي يسمونها في العراق شجرة (الفلفل)؟ أما نبتة الياسمين المعرشة على نافذة الغرفة التي تنام فيها زوجتي فقد تهدلت أغصانها وصارت تعيق المرور على الممشى المحاذي للبناء.

١٠. كان أخي الأصغر، كامل، من الضحايا غير المباشرة للحرب مع إيران. توفي بالسكّنة القلبية وهو يسوق سيارته، بعد أن أمضى سنوات الحرب في رعب حقيقي متخفياً عن أنظار الباحثين عن مجندين ليساقوا في منظمة الجيش الشعبي.

تركت المشى وخفت الوطاء على المرج وسط الحديقة، حيث كنا نشوي الكباب أو الدجاج على المنقلة في ايام الصيف والخريف، ونزجي الليالي في الهواء الطلق. هاهي شجرة الرمان القميثة، لم تكبر كثيراً... ولوح الفريزيا والغلاديو لاس والليلوم ليوم واحد، بلا أزهار. وهذه سجادة «مخلب القط» المفروشة على كامل حائط الجار، بلا أزهار أيضاً، لأننا في أواخر الخريف. لكن متسلق الجهنمية كان يشهق بزهره البنفسجي، والوردي، المندلوق على السياج الأمامي للحديقة. تملت أوراقه والزهر بعبادة. لقد تفرع كثيراً وغطى قبح سياجنا المبني من الطابوق الكونكريتي.. واستعرضت خط نباتات الروز تحت التارنجات بمحاذاة السياج الأمامي. ثم يعطف بمحاذاة جدار الجار تحت متسلق مخلب القط. كانت هذه الشتلات من الروز تزود مزهرياتنا بأجمل أصناف الورد، طوال موسم إزهاره.

التقطت التارنجات المتساقطة من أشجارها التي تنوء بشمارها، وعدت إلى داخل المنزل. كانت باسمه في المطبخ تضع إبريق الشاي على الموقد، وتعد مائدة الإفطار. «صباح الخير». «صباح النور»: هل تفقدت شجرة التين التي خبصتنا بها وبالبلبل؟ وأخبرتني بأن رباب استوحشت عندما استيقظت قبيل الفجر ووجدت رجلاً نائماً في غرفتها. ثم عقبته باسمه: وإذن، ففي بيتنا رجل!«.

تحلقنا حول مائدة الإفطار في المطبخ الواسع المشرف بواجهته على الكراج المكشوف. وعلى المائدة كان صمّون أبيض، وأسمر (للرجيم)، ودبس، ومرابي، وزبدة، وجبنة بيضاء، فقط (مع ان هذا الأخير كان هدية من شقيقة زوجتي بمناسبة قدومي). وجيء بقدحي الزجاجي الكبير ذي العروة الذي كنت أشرب فيه الشاي، وروعي

أن يكون شايي فطيراً وخفيفاً جداً (هكذا كان والدي يشرب الشاي أيضاً).

كانت زوجتي تتحدث عن شحة منتجات الألبان، والبيض على نحو خاص. وزينب تسألني إن كنت أستطيع مساعدتها في حل الغوزات «النهايات» في درس الرياضيات الجامعية، فاستشهدتُ بييتين لمحمد حسين الشيبسي الشهيد، رواهما لي قرينا المرحوم ضياء مطر، وكان زميلاً له في التعليم، وهما:

إن الرياضيات الغوزة لا يهتدي لبي إلى حلها
إن حار بعض الناس في بعضها فإنني قد حرت في كلها!

لكنني، لدهشتي، استطعت أن أوضح لزينب غامض إحدى المسائل، مع أن هذا الموضوع كنت قد درسته قبل أربعين عاماً. (حالفني الحظ في أن أبدو أمام أفراد عائلتي نافعاً حتى في الرياضيات التي ضمرت تماماً تقريباً من ذاكرتي).

زمرّ الصديق نوري السعدي ليقلّني بسيارته إلى قاعة الرشيد. كان قد أحال نفسه على التقاعد منذ سنوات حتى من عيادته الخاصة، المجزية، ليتفرغ لهمومه وحديقة منزله، مع أنه لم يبلغ بعد منتصف الستينات.

كانت بغداد تبدو لي أقل ألفة من ذي قبل، لكنها أنظف من السابق وأكثر عصرية. وأنا أحسني أشبه بسائح يطوف في مسالك يدب فيها بشر آخرون... سيارات كثيرة جداً... تاكسيات كثيرة جداً... أضواء مرور كثيرة جداً، وتعمل بدقة (لكن المخالفات بعيداً عنها كثيرة جداً).. وأنفاق، وجسور فوق الشوارع، ونصب جديد للجندي المجهول

مصمم من يدين هائلتين تحملان سيفين، وتحتة كومة من خوذ برونزية. يبدو أننا وصلنا منطقتنا القديمة (كرادة مريم). لكن معالمها تغيرت تماماً. انمحت طبوغرافيتها السابقة التي كانت مرتعاً - في الغربية - لذكرياتى ومخيلتى.

أمام فندق المنصور ميليا، أبطأت السيارة، ثم قامت بدورة على شكل حرف (يو)، وتوقفت أمام بناية جديدة. ترجلت منها وودعت صاحبي بعد أن اتفقنا على أن أتلفن له ليعود بي إلى المنزل. إنه صديق من ذهب.

تلبثت لحظات أتطلع أمامي إلى واجهة فندق المنصور. هنا كان منزلنا القديم، تماماً قرب السياج الجنوبي لحديقة الفندق، إن لم أكن مخطئاً. ترى هل أن شجرة التوت، تلك، هي نفس الشجرة التي كانت في منزلنا؟ وهذا جسر السنك الذي شيد في غيايبي... يبدو أن الشيء الوحيد المتبقي من مخلفات المنطقة والذاكرة هو أشجار اليوكالبتوس على رصيفي الشارع... تلفت حولي. لم يقع بصري على من أعرفه.

دخلت قاعة الرشيد؛ التي اتخذت مقرًا لاجتماعات مهرجان المربد. ثمة عدد من الشباب من الجنسين، لم أعرف على أي منهم. وثمة إلى جهة اليسار مكعب يجلس خلفه موظف استعلامات. سألته عن موقع القاعة، فأشار بيده... حتى إذا تقدمت نحوها بخطوات ريثة، واجهني مدخل عريض لصالة، في مقدمتها - أو مؤخرتها بعبارة أدق - يقف أحدهم أمام الميكروفون، يلقي شعراً على مسامع الحضور. وهناك جهاز تصوير تلفزيوني تقف خلفه سيدة في نحو الثلاثين من عمرها. تقدمت إلى وسط القاعة بأمل أن أجد مضيفي، المسؤول الكبير في الوزارة. التقيت وجهاً لوجه مع عبد الرحمن مجيد الربيعي. مدّ إليّ يده قائلاً:

«أهلاً، أستاذ علي». ولما أدركت أنه من غير اللائق أن أظل أستعرض الجالسين بأمل أن يلمحني مضيفي الذي يعرفني أكثر مما أعرفه (لأنني لم ألتق به بعد أيام التلمذة)، اتخذت لي مقعداً قريباً من ممر الخروج.

بعد أن انتهى المنشد من إلقاء قصيدته، وكانت من الشعر الحديث، وأظنه كان من تونس، تمّ تقديم الشاعر المصري حسن فتح الباب. عندما وقف أمام الميكروفون، قال: «سأحاول أن ألقى عليكم مقاطع من قصيدة طويلة عن فلسطين». واستطالت المقاطع... فقررت أن أترك القاعة، لأنني لا أطيق الجلوس كثيراً على كرسي في صالة، حتى لو كان ذلك في دار للاوبرا. ثم إنني اشتجيت أن أدخن سيكارة، في خارج القاعة (أنا أدخن بضع سيكارات في اليوم!) حتى إذا أشعلت سيكارتني، تقدمت إليّ نفس السيدة التي كانت تقف خلف جهاز التصوير التلفزيوني. خاطبتني قائلة:

«أستاذ علي، مرحباً!»

«مرحباً»

«أنا (...). تعرفت عليك من صورتك التي أراني إياها صديقك الدكتور نوري السعدي. يسعدني أن أعرف بك. هل تبحث عن احد؟»

«نعم»

«من؟»

ذكرت اسم مضيفي. قالت: ألم تره؟ انه جالس إلى جانب الوزير في الصف الأمامي.

قلت: سأبقى هنا إذن، أدخن سيكارتني، وأنتظر فترة استراحة. ثم عادت (...) إلى جهازها التلفزيوني، راجية أن تتاح لنا فرصة لقاء بحضور نوري السعدي.

في هذه الأثناء لمحت لمة (=كفشة) عبد الرزاق عبد الواحد التي اشتعل فيها مزيد من الشيب. كان ظهره إليّ. صحت: «عبد؟»

التفت إليّ كالمذعور، لكنه حين وقع بصره عليّ نشر ذراعيه بكل سعتهما ثم هجم عليّ يعانقني ويتأني بكلامه الجهوري، يسألني متى جئت؟. قلت للحظة. قال: «يا لها من صدفة. قبل أيام التقيت بمحمد سعيد الصكار في باريس، والآآن ألتقي بك علي غير ميعاد» مشيراً بذلك إلى أيام صحبتنا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات في مكتب الصكار في شارع الجمهورية، حيث ولد مشروع كتابي (الأطروحة الفنطازية).

قال: «ألم تلتق بأحد؟»

قلت: «لا».

قال: «من تريد؟»

ذكرت المسؤول في الوزارة، ويوسف الصائغ.

قال: «سأذهب لأخبرهما بوجودك».

بعد لحظات أطلت قامة يوسف الصائغ القصيرة بعض الشيء، بشاربه الأشيب الكث الذي يخفي الآن سناً من القواطع مقلوعة. تم العناق. والسؤال عن الأحوال. ثم اقترح أن نتخذ لنا مقاعد في غرفة جانبية، بصفته المدير العام لمؤسسة السينما والمسرح التي تشرف على هذه الصالة أيضاً. وأكد بأن الأستاذ (...) المسؤول، سيلتحق بنا بعد أن

يغادر الوزير القاعة. وبالفعل، لم يمض وقت طويل حتى وافانا الأستاذ (...) بحضوره. وكان لقاءً ودياً جداً.. وجئى بالقهوة أكثر من مرة. عربية مهيلة. وعرض عليّ أن أتسلم كوبونات الإقامة والطعام في فندق ميليا منصور. لكنني اعتذرت مفضلاً الإقامة بين الأهل.

التقيت بالعديد من الأدباء العراقيين في فندق ميليا منصور وفي أماكن أخرى، باستثناء المغتربين طبعاً. كانوا يعانقونني كشبح هبط من المريخ. وكان لقائني بفؤاد التكرلي مفاجأة سارة. دعاني وزوجتي مرتين في شقته المستأجرة في الجادرية، فتعرفنا على زوجته الجديدة، السيدة حياة التونسية، التي تعرف إليها في باريس عندما كانت تقوم بترجمة (الرجع البعيد) إلى الفرنسية (كان زواجه الثاني هذا بعد وفاة زوجته الأولى بعدة سنوات). وكان من بين المدعوين الدكتور علي جواد الطاهر، ومهدي عيسى الصقر، والدكتور عبد الإله أحمد، وفاضل ثامر، ويوسف الصائغ، مع زوجاتهم. واصطحبني في سيارته - التعبانة على الدوام - إلى مقر مجلة (آفاق عربية) حيث تعرفت إلى رئيس تحريرها آنذاك. الدكتور محسن الموسوي، لأول مرة، وأهداني كتابه عن ألف ليلة وليلة. وكان في غرفته ذلك الجهاز التلفوني الكلاسيكي المذهب، الذي يذكر بتلفونات القرن الماضي أو أوائل القرن الحالي، وهو من مخلفات أهواء أو هوايات شفيق الكمالي. وهناك أيضاً التقيت بعدد من الكتاب، مثل موسى كريدي.

وزرت المعرض الذي أقيم في الذكرى السنوية لوفاة الصديق الفنان خالد الجادر الذي أمضيت معه أياماً حلوة في الرباط قبل وفاته بنصف عام. وهناك التقيت برشدي العامل. كان يستعين بعضا وحنو فتاة لعلها ابنته. استقبلني بصخب كعادته.

وزرت الدكتور مهدي المخزومي في منزله. أية سعادة في لقاء هذا الشيخ الجليل. سيد العارفين بقواعد لغتنا، ومؤلف الكتابين القيمين (الخليل بن احمد) و (مدرسة الكوفة). أما ذهنه فكان على توقده، وكذلك ذاكرته اللغوية. دخل في تفاصيل أذهلتني وأسكرتني. ودعته والدمعة تكاد تظفر من عيني. من يدري. قد يكون هذا آخر لقاء لي به.

مرت الأيام: ولائم، ولقاءات، وزيارات. زرت ما تبقى من حيننا القديم في كراةة مريم. وقفت على المسناة قرب شريعتنا الملقاة بعد أن جثم عليها فندق ميليا منصور، اتطلع إلى الدجلة العظمى، فإذا هي قد جفت مآقيها وتسيهدت. هنا كان بيت عمي الذي استأجره عبد المحسن السعدون في العشرينات، ومنه كان يعبر كل يوم في بلم عليوي البلام إلى ذاك الصوب حيث مجلس الوزراء. (حدثني جارنا القديم السيد أوانيس أنه ركب ذات مرة متن البلم بصحبته، وكان هو - أوانيس - يرتعش برداً، في عز الشتاء. فلم يكن من رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون إلا أن يتبرع له بعباءته التي كان يتخذها معطفاً له). وتذكرت يوم شاهدنا صباح نوري السعيد يمرق بطيارته - في أواسط الأربعينات - من بين دعامتين من دعائم جسر مود (الأحرار فيما بعد)، في مغامرة فريدة من نوعها. وقيل... والده منعه بعدها من قيادة الطائرة... وهناك تقع أساسات «السن»، قصر هارون الرشيد المزعوم. ومن هنا كنا نركب متن البلم لننحدر مع التيار إلى «الجزرة» لنمضي بعض ليالي الصيف فيها ونشوي السمك المسكوف. لكن أين خط «التكيات» في منطقة الصدر، أقصى حي كراةة مريم، الذي كان يمؤن بغداد بثمر التوت. الذي يروّج له الباعة كعنب بارد: «بارد العنب، باردا» وماذا حلّ بالكسلة يوم كانت «أمهات كراع» البغداديات يحملن إلى (مريم ام

عظام) على رؤوسهن أو في عربات الخيل سلال الخبز والبيض المسلوق والكباب البارد وقدور الدولة وسماورات الشاي. والدنابك، وحب الرقيّ وحب الشجر، وأفواههن لا تني تلوك (العلاج البستج: العلك المستكي) بتظاهرة صاخبة، لئُمضين يوم الكسلة هناك. ولاحظوا جذور كلمة الكسلة، ومصطلح «أمهات كراع»... ولا بدّ أن مركز شرطة كراة مريم كان هنا، يوم اعتقلت فيه، فور إدلائي بصوتي في آخر دورة انتخابية «حرة» شهدها العراق. وكان ذلك في عام ١٩٥٤. هل أروي لكم قصة اعتقال المذهلة هذه، وإطلاق سراحي بعد نصف ساعة فقط من توقيفي، مع أنني هويت بكفي على وجه المفوض لأنه زجرني...

لكنني أريد أن أرى معالم بغداد الأخرى. زرت شارع أبي نواس، وافتقدت مقهى ياسين الذي كنت التقي فيه مع غانم حمدون، ويحيى جواد، وعبد الرزاق الحميري، وآخرين. وزرت شارع الرشيد، وحاولت أن أتفقد الشقة التي انعقد فيها أول اجتماع لهيئة تحرير مجلة (الثقف) بحضور عصام القاضي والدكتور مهدي مرتضى وخالد السلام وكاتب هذه السطور. وألقيت نظرة على سينما الزوراء التي شاهدت فيها فيلم المدرعة بوممكن. وفي المقهى البرازيلية كنت أجالس أبناء جيلنا من المثقفين والكتاب من امثال عبد الملك نوري. وفي مقهى (شريف وحداد) كنت ألتقي مع محمود البريكان في العهد القاسمي. وفي سينما (ماذا؟) شاهدت فيلم تاراس بُولبا بصحبة الدكتور صلاح خالص؟ هل كان ذلك في العهد الملكي؟... كان الدكتور صلاح أول من كتب عن موضوع (الشكل والمضمون)، وذلك في العدد الأول من مجلة (الثقافة الجديدة) التي كانت حدثاً في وقتها (١٩٥٤؟) وفي

مطعم (أحمد سمينة) تناولت الطعام مع الدكتور صفاء الحافظ بعد أول انتخابات لنقابة المعلمين. كانت الوجبة بربع دينار، مطبوخة بالسمن الحيواني «الحر». وكان أحمد سمينة ما يزال معجباً بهتلر!... إن للزمن المقلب طبعاً يورث حرقه مستعذبة في المعدة... أما يزال سوق الهرج قائماً، يا ترى؟ اشتريت منه أقدم أسطوانات عراقية ذات يوم.. وماذا عن مكتبة (المنشي) لصاحبها قاسم الرجب؟ لا يزال نادماً لأنني استبهضت سعر كتاب عن (مؤتمر الموسيقى العربية المنعقد في القاهرة عام ١٩٣٢)، كان سعره خمسة دنانير، وهو مبلغ كبير يومذاك. لكن تلك كانت النسخة الوحيدة المتبقية. وكالعادة حين تعود لشرائه بعد أيام تجده نافداً.

وكان لا بد أن أزور مكتبة (بنّاي) في مدخل شارع السعدون. خرج إلى الشارع ليستقبلني بعد أن لمحني من خلف زجاج المحل. وكان حديثنا عن الكتب ذا شجون.

وقد أحنزني أن أفتقد - حتى قبل اغترابي، في واقع الحال - أي أثر لكتاب أجنبي (أعني باللغات الأجنبية). صحيح أن هناك إصدارات عراقية جيدة في حقول شتى، بما في ذلك ترجمات جبر الشكسبير، وبعض التراجم والمؤلفات الأخرى، بيد أنك لا تجد كتاباً واحداً باللغات الأجنبية. ربما باستثناء بعض القواميس والكتب العلمية، في كل مكاتب بغداد. ولا تعثر على أسطوانة واحدة لبيتهوفن أو سترافنسكي منذ عشرين عاماً، بعد أن كانت هناك أكثر من مكتبة عامرة بالكتب، باللغتين الانكليزية والفرنسية، وغيرهما من اللغات العالمية الحية، بما في ذلك الروسية، وأكثر من مكتبة عامرة بالأسطوانات الموسيقية، مثل مكتبة اوروزدي باك الممتازة. وكذلك مكتبة كورونيت في

بناية مرجان. وكانت ثمة مكتبة في نهاية شارع الرشيد، مقابل مخزن جقماجي، عثرت فيها على أسطوانات نادرة، مثل موسيقى شعوب أستراليا الأصليين.

كنت أحسني سائحاً في وطني، أحمل تعويذة الحصانة المريدية مع أنني لم أكن بحاجة إليها. (فاتي أن أذكر أن الصديق سلمان شكر أخبرني عندما اتصلت به هاتفياً قبل ذهابي إلى الوطن، وكان هو في زيارة إلى لندن، بأنني سأستقبل كملك، بفضل هذه التعويذة المريدية)... لكنني كنت أشعر أنني أشبه بسائح حتى في بيتي. وكان أفراد عائلتي تمضهم وتمرضهم هذه الحقيقة، حقيقة أنني جئت زائراً، لا عائداً. إن أفدح ما في الأمر أنك تحس بأن لك حضوراً نوستالجياً في وطنك. كل ما فيك بات ينتمي إلى عالم ماضٍ، فردوس مفقود. فهل أنت من أهل الكهف، أو بالأحرى من أهل الكهف بالقلوب؟ «إن أكثر الجنات حقيقة هي تلك التي فقدناها» (مارسيل بروست).

كانت بغداد عروساً رغم كل شيء، بأحيائها الجديدة والمجددة، وارضفتها النظيفة، مع أنها كانت تشكو من شح في المواد الغذائية والاستهلاكية، (كان ذلك قبل ما يسمى بحرب الخليج الثانية). وكان المواطنون يتطلعون إلى آفاق جديدة بعد انتهاء الحرب مع إيران، وخيل للجميع أن الوقت قد حان للأم الجراح وممارسة حياة طبيعية - أو شبه طبيعية - من جديد، وما دروا أن الحريق لم يُخمد إلا ليندلع هذه المرة أعتى وأدهى، ليأتي على اليابس والأخضر، ويحل خراب وأي خراب:

مناحة على خراب مدينة أور

«يا أبانا نانّا^(١١)، لقد حلّ الخراب في تلك المدينة...»

أشلاء أبنائها، وليس كسر الفخار تبعثرت شذر مذر في أحيائها ؛
أسوارها تهدمت ؛ أبناؤها ينوحون.

في مداخلها الفسيحة، حيث كانوا يتنزهون، ترامت جثث الموتى.
في شوارعها، حيث كانت تقام الأعياد، تبعثروا أشلاء.

في كل طرقاتها، حيث كانوا يتنزهون، ترامت جثث الموتى.

في أبهائها. حيث كانت تقام المهرجانات، تتكدس الجثث ركاماً.

أور - التي هلك ضعفاؤها وأقوياءها من الجوع ؛

الأمهات والآباء، الذين لم يبرحوا منازلهم أتت عليهم النيران ؛

الأطفال راقدون في حضن أمهاتهم،

وقد جرفتهم المياه مثل السمك ؛

في المدينة، هُجرت الزوجة، وهُجر الابن،

وتبعثرت المقتنيات هنا وهناك.

يا نانّا، لقد حلّ الدمار باور، وتبعثر أبناؤها شذر مذر».

XXX

هناك شيء كثير من اللامعقول يجري في العالم. فهل من المعقول

أن يتكرس هذا اللامعقول؟... إذن لماذا خرج راماثيكوس من الغابة؟

١١. نانّا هو الإله - القمر في الديانة السومرية، ويقابله (سين) في الديانة البابلية - الآشورية، وفي جنوب الجزيرة العربية.

الفصل الثامن

كان الصديق فؤاد التكريلي يمر عليّ معظم الأيام في الصباح ليصطحبني إلى دائرة يوسف الصائغ (السينما والمسرح)، أو أي مكان آخر، بسيارته المرسيديس القديمة. وأنا كنت الآن أو اصل حياة «يائسة» في إطارها السياسي، على الصعيدين الوطني والعالمي، بعد انهيار المنظومة الاشتراكية. لم أعد أشعر بأن هناك أملاً في التغيير. لقد انتهى كل شيء. وبقي لي الأدب، كمبرر لوجودي.

ذات صباح اصطحبني فؤاد معه إلى مقر عمل يوسف الصائغ. وهناك لاشيء نشر به سوى الشاي الذي تعافه نفسي لأنه قوي ويظل يغلي على النار ساعات، ومفرط في حلاوته. لكن صحبة يوسف ومناكبات فؤاد له تورثان في النفس بعض المسرة. ثم إنني كنت طيلة أيامي «العراقية» تلك اعيش مع هوميروس، الذي بدأت أكتب عنه دراسة... ثم دخلت ابتسام عبدالله في صحبة مخرج سينمائي مصري معروف (نسيت اسمه). وتم التعارف من جديد بيني وبينها بواسطة فؤاد. هي كانت جميلة،

ولديها اعتداد في نفسها، وهي جملة التهذيب، وفي تصوري أنها ليست ملتزمة سياسياً، مع أنها أقرب إليهم (أعني البعث أو القوميون). ولعلها تشعر بارتياح إلى بعدها عن اليسار من غير ما نفور منه.

قالت على حين فجأة: «أي كيان هذا، لقد تهاوى فجأة كبناء من كارتون».

لم يكن هذا الكلام موجهاً إلى أحد. لكنني شعرت أنه طعنني في الصميم. لماذا خذلنا الاتحاد السوفيتي بهذا الشكل المهين. هو غورباتشوف، أم أن المسألة أعمق من ذلك؟

أربعون عاماً - بقدر تعلق الأمر بي - من الإيمان بالاشتراكية تذهب سدى؟ أين هو الخلل؟ كنت منكمشاً على نفسي (في دخيلتي)، فأنا مدان رغماً عني، لأنني كنت أو من بهذا الفكر الذي تداعى. هل أنا جدير بالاحترام؟ أنا أعلم أنني أكثر من ذلك، أكثر من هذا الفكر الذي تداعى. أنا إنسان محترم، لي رصيد اجتماعي وأخلاقي محترم، وكاتب محترم. لكن الفكر الذي أتكى عليه تهاوى. وهذا الإحساس لا يشعر به فواد، لأنه كان وجودي النزعة. ولا يشعر به يوسف الصائغ لأنه طلق الشيوعية منذ أن انهار في دائرة الأمن، وكتب صفحة كاملة في جريدتهم يتبرأ فيها من اليسار. أما أنا فلا أزال أو من بالأفكار الاشتراكية، مع أنها انهارت؟ والغريب هو أنني ازددت الآن إيماناً بها، مع أنني كنت ضعيف الثقة في مقاومتها على البقاء.

أنا لم أحب ستالين يوماً. واكتشفت أن لينين يحقر المثقف، ويعتبره برغياً في ماكنة الحزب. ما قولنا، إذن، يتولستوي؟ كما اكتشفت أن ماركس لم يكن نبياً، وقد أنجب ابناً من خادمته. المجلس وحده كان

موضع إعجابي ؛ وربما بخارين أيضاً. كما أن اشتراكية لينين وستالين كانت معطوبة في رأيي. فلماذا آمنت بالاشتراكية، وازددت إيماناً بها الآن؟ هل ذلك لأنني أمقت الرأسمالية؟ كلا، أنا لا أمقت الرأسمالية. فلماذا؟ هل العيب فيّ أنا؟ بمعنى أنني أخطأت حين جعلت من نفسي كائناً سياسياً؟ هل كان ينبغي أن أترفع عن السياسة، ولا أحفل بكلام ابتسام عبد الله؟

لكن الواقع هو أنني ابتعدت عن السياسة منذ شباط ١٩٦٣. وهذا جعل غانم يسخر مني، أو يغمزني. لماذا لم أبتعد عن السياسة قبل ذلك؟ ألا أنني خدعت بلينين الذي يحث على النضال؟ لكنني لم أكن أصلح للنضال، وهو لا يصلح لي.

هذا لا أهمية له. الشيء الذي يصعب هضمه هو لماذا انهار نظام دام سبعين عاماً، وجعل الملايين من الناس تؤمن بقضيته؟ في إيران توفرت الفرصة لوصول اليسار إلى الحكم، ربما في ١٩٥٢. وفي العراق توفرت مثل هذه الفرصة في ١٩٥٩. وفي فرنسا، وإيطاليا توفرت مثل هذه الفرصة بعد الحرب العالمية الثانية. ثم تبين أن ذلك كله كان حلماً خائباً بعد انهيار الاشتراكية في أكبر بلد في العالم.

الأفكار تتزاحم في رأسي: السياسة في العراق ؛ «جننا في قطار أمريكي» (كان قائل هذا القول زميلي في الاعدادية المركزية) ؛ غورباتشوف... غورباتشوف، هل كان عميلاً للغرب؟ ومن يكون يلتسن؟ أم أن الاتحاد السوفيتي كان معطوباً ومنخوباً؟ في دار حسين التكمجي، بحضور محمود صبري، وغانم حمدون وآخرين، انفرد بي عادل حبة، وروى لي كيف أن رقيقة من حزب تودة انتقدت صناعة الأحذية في الاتحاد السوفيتي، لأن الناس لم تستطع ارتدائها. فوصل

خبرها إلى الأمن. واعتقلت، وتعرضت للتعذيب. ثم اغتصبها لافرانتي بيريا. لم أرد أن أصدق هذا الخبر لسنوات. ثم قلت مع نفسي: هل يمكن أن يكذب عادل حبة، أو أن الرفيقة كانت تكذب؟ وتوصلت إلى قناعة بأنهما لم يكذبا. وتحدثت عن هذه الحادثة فيما بعد في رواية (فرس البراري). فهل أسأت صنيعاً؟ ذلك أن هذا الحادث أن صح لا ينبغي أن يشطب إيجابيات النظام... لكن وزير داخلية ستالين، هل يمكن أن يغتصب شيوعية؟

أعود إلى ميخائيل غورباتشوف. نحن استبشرنا بأفكاره، التي كانت تبشر بالإصلاح، وبقينا نتطلع إلى أبعاد أطروحته حول ما سماه الغلازنوست (الانفتاح)، والبيروسترويكا (إعادة البناء). ثم اتضح أنها أكذوبة فارغة.

شخصية غورباتشوف اجتذبتني أول الأمر، على مدى عامين أو ثلاثة من حكمه. لقد بدا لي شخصية شيوعية متحررة وذكية وواعدة. نحن اعتدنا أن نجد الاتحاد السوفيتي بلداً شامخاً في سياسته، وأملنا أمام جبروت العالم الامبريالي الذي يتحكم في مصائرنا. لكن عظمة الاتحاد السوفيتي اهتزت عندنا بعد موت ستالين، وانكشف استبداديته الرهيبة. ولا أريد أن أتحدث عن لينين بالرغم من أنه كان أكثر ديمقراطية من ستالين بكثير. على الأقل هو لم يلجأ إلى تصفية رفاقه الآخرين الذين خالفوه الرأي... أريد أن أقول: إن نظام الحكم السوفيتي كان لاديمقراطياً، باستثناء فترة حكم لينين، وربما بضع سنوات من حكم ستالين. لكن أكبر ثغرة في النظام السوفيتي هي أنه زرع سياسة الخوف بين السكان برمتهم. وهذا ما اكده لي غائب طعمة فرمان في زيارتي للاتحاد السوفيتي ربما في ٧٦ أو ٧٧.

لذلك بدت إصلاحات غورباتشوف واعدة، بما في ذلك خلق جو من الديمقراطية. لكن هذه الإصلاحات كانت مضللة على ما يبدو، وتبطن شراً. وسأستشهد برأي ايريك هوبسبوم في سياسة غورباتشوف. أكد هوبسبوم أن سياسة غورباتشوف وزملائه الأصلاحيين سرعان ما اتضح إخفاقها الذريع داخل الاتحاد السوفيتي. فلربما كان هو وزملاؤه الإصلاحيون على قدر من التهور... وإن أفضل شيء للاتحاد السوفيتي وشعبه هو الاستمرار في التراجع البطيء، مع الأمل بتحسين الأوضاع تدريجياً تحت حكم إصلاحى أقل طموحاً وأكثر واقعية. وهذا ما كنا نتوقعه نحن الذين شهدنا الحياة السائرة نحو التحسن في المجر. وأنا أعتقد أن شيوعي ألمانيا الشرقية حققوا إنجازات جيدة، صار الألمان الشرقيون يحنون إليها بعد انهيار النظام، كما عكس لنا برنامج تلفزيوني عرضته قناة BBC. وأنا لا أضيف صوتي إلى منتقدي بناء جدار برلين، لأن دولة ألمانيا الشرقية اضطرت إليه بعد أن أرهاقها تهريب البضائع الشرقية لأنها أرخص. وأنا هنا أسجل تحفظي على انتقاد المفكر اليساري هوبسبوم سياسة الجدار:

قال طارق علي في مقال له بعنوان (اللانظام العالمي الجديد): «العديد من الناس في أوروبا الشرقية يمارسون إحساساً بالنوستالجيا إلى المجتمعات التي كانت قائمة قبل سقوط الاتحاد السوفيتي. إن الأنظمة الشيوعية التي حكمت المنظومة السوفيتية بعد وصول خروشوف يمكن اعتبارها دكتاتوريات اجتماعية: أنظمة ضعيفة بالأساس مع تركيبة سياسية استبدادية، لكن مع تركيبة اقتصادية قدمت للناس ديمقراطية اجتماعية على غرار بريطانيا والسويد إلى هذا الحد أو ذلك. في استفتاء جرى في كانون الثاني ٢٠١٥، أكد ٨٢ في المئة من الذين

شملهم هذا الاستفتاء في ألمانيا الشرقية السابقة، أن الحياة كانت أفضل قبل التوحيد. وعندما سئلوا عن الأسباب، أكدوا أنه كان هناك إحساس أكبر بالجماعة، وتسهيلات أكثر، ولم تكن النقود هاجساً مهيماً، والحياة الثقافية كانت أفضل، ولم يعاملوا كمواطنين من الدرجة الثانية، كما هو وضعهم الآن».

أعتقد أن وضع البشر الذين كانوا يؤمنون بالشيوعية، وما زال بعضهم، غريب جداً في الإطار السايكولوجي. هناك أحزاب بكاملها تخلت عن قضيتها. لكن ما هو وضع الأفراد الذين تشربت حياتهم بهذا المبدأ؟ إنهم لا يريدون، أو لا يستطيعون أن يتخلوا عن مبادئهم. فماذا؟

هناك إحساس بالصدر. أنا كنت أشعر أننا عُدرنا في آملنا وتطلعاتنا. فكيف تم ذلك بين عشية وضحاها، وكما عبرت عنه ابتسام عبد الله، كأنه بناء من كارتون تهاوى على حين فجأة. هذا الإحساس سيبقى منغصاً لي ولكل الرفاق الآخرين. وهل سيبقى هناك طعم للحياة، بعد انهيار الحلم؟

أنا كنت يومذاك فاقداً بوصلة حياتي. كنت في زيارة غريبة إلى وطني، بعد أن اضطررت إلى هجرانه، وبعد أن شعرت أنني لم أعد متمياً إليه، بالرغم من أن لي عائلة فيه لا تريدني أن أتخلى عنها. لكنني لن يكون لي موطن قدم راسخ في هذا الوطن. فقد فقدت عملي فيه لأنني لم أرد أن أكون امتثالياً. وأنا أمتعض أشد الامتعاض من الفكر الذي يتبناه حكام (أو حاكم) هذا البلد. فكيف سأستطيع أن أهضم الحياة فيه؟ لكن ماهي فرصتي في الحياة، وماذا سيكون وضعي - في العراق - المجهولة آفاقه - لن يكون لي عمل. وصحيح ان واجبي العائلي يحتم عليّ أن أرتبط بالعائلة التي تتعلق بي. وفي الخارج تراجعت الفرص التي كانت تجعلني

أواصل حياتي بكرامة. فماذا أفعل؟ لكن الذي حسم هذا التردد هو أن لدي إقامة في بلد أوروبي، رغم أنه لم يعد يوفر لي فرصة العمل. ومع ذلك أنا كنت زائراً وليس عائداً. لكن ماذا ينتظرن من مصير؟

هنا شعرت بأنني موزع بين «أن تكون أو لا تكون». وشعرت أنني سأبقى أقاوم الخذلانات، والصعوبات، ككاتب. وهذا سيعني أن وطني سيكون قلمي في المقام الأول، وسيصبح هو بوصلتي في الحياة. أنا كنت كاتباً قبل الآن، لكنني لم أمارس الكتابة كاحتراف. كما أنني لم أحقق بعد ما أريد أن أكتبه. فأمامي طريق ما يزال طويلاً.

لكنني تعرضت إلى صدمة لم أكن أتوقعها. فعشية عودتي من زيارتي التي مددتها إلى شهرين لقيت معارضة شديدة لسفري من لدن زوجتي باسمه والصديق نوري. لكأنهما كانا متفاهمين على هذا الموقف منذ مجيئي، أو منذ توجيه الدعوة لزيارتي. كنا في لقاء في بيت الصديق ماجد علاوي. وكانت الجلسة ودية جداً كالعادة. وبدأ ماجد بتقديم الويسكي، وزوجته خالدة بتقديم المزة (كان من ضمنها كباب مشوي اشتراه ماجد من محل كباب بالساطور في شارع ١٤ رمضان). كان ماجد قد أصبح يملك دخلاً محترماً الآن.

وفوجئت بقول نوري: «نحن لن نسمح لك بأن تغادرنا». ما أشد ما ينطوي عليه هذا الكلام من حب. لكن ما أشد ما ينطوي عليه من إخراج أيضاً. فانا أحبهم، ولا أريد أن أغادرهم، لكنني لم أجد لكبي أكبر نفسي في العراق. فكيف أوضح الأمر؟

قلت للصديق نوري: «أنا لا أريد فراقكم، لكن مكاني لم يعد العراق».

«أين؟»

«الكتاب.»

«وماذا في ذلك؟ أنت تستطيع أن تكتب هنا.»

«لا.»

«لكنك تكتب عن هوميروس، وتستطيع أن تجد مصادر حتى في المتحف العراقي.»

«آه، يا إلهي، لكنهم تدخلوا في ما اكتب، ألا تذكر ذلك؟»

«إلا أنه قال: «لكن فؤاد التكرلي هنا، ولم يتعرضوا به مع أنه أوجعهم في (الرجع البعيد).»

قلت له: «هذه حالة استثنائية.»

«اسمع، أنت لا تحبنا.»

«طبعاً، هذا غير صحيح. أنا أستطيع أن أكتب خارج العراق بحرية أكبر.»

«أكبر بكم؟ أنت لا زلت مرتبطاً بالعراق بعائلتك. ثم ما هي آفاق عملك في الخارج، وكيف ستعيش بعد انهيار المعسكر الاشتراكي الذي كان يؤويك؟»

كان هذا سؤالاً محرّجاً. فأنا لا أعرف ما هي آفاق حياتي في الخارج. لكنني كنت وفرت ثمانية عشر ألف دولار لمثل هذا اليوم. وفي وسعي ان أحصل على مقابل لكتاباتي في مجلة (الكرمل). لكن المجلة تصدر كل ثلاثة أشهر. أي أن المرود ضئيل. لكن هناك سبباً آخر لرغبتني في

البقاء خارج العراق لا أستطيع أن أبوح به. وهو على علم به. لكن هذا الموضوع لم يكن قابلاً للنقاش. وفي كل الأحوال أنا لم أقم بهذه الزيارة لكي أعود إلى العراق. العراق انتهى بالنسبة لي.

بدأت أشعر أنني كنت محشوراً في زاوية، وأن نوري يزداد «ضراوة» في نقاشه، لأنه أخذ يشعر أنني صرت أبتعد عنه. وهذا غير صحيح. الصحيح هو أنني أفكر في مستقبلي. ومستقبلي لن يكون في العراق. أما هو، نوري، فلا، وليست لديه أية رغبة في العيش في الخارج. هو يعتقد ويستطيع، أن يعيش في جزيرة في العراق. وهناك الفارق بين «عملنا»، هو طيب، وأنا أصبحت كاتباً بعد أن كنت مدرساً. وهذا لا أستطيع أن أجاهر به.

أخذ يشدد الخناق عليّ، لأنه مدرك أنه سيخسر أعز صديق له. أنا كنت بالنسبة له أقرب من زوجة ومن حبيبة. كنت أشكل معه «فريقاً» يطرد كل هموم الواقع. هو لم يكن يشعر بعزلة، لأنه كان يمضي كل لياليه في بيتنا. بيته أصبح بيتنا. وأن أتركهم يعني أنه سيصبح في عزلة «تامة»، لأن أحداً غيري لن يسد الفراغ الذي أتركه.

أما أنا فوضعي مختلف. وقد ظلت هناء تتساءل عن سر هذا الانسجام الكبير بيننا مع الفارق بين شخصيتنا، وفي الواقع أن هناك اختلافاً بين شخصيتنا. لكن الانفتاح في المشاعر بيننا هو سر هذا الانسجام الهائل بيننا.

كانت تلك الليلة أسوأ ليلة أمضيتها في العراق ؛ وقد توترت العلاقة فيما بيني وبين نوري إلى حدّ كبير. كان الآخرون يتابعون هذا النقاش بصمت. ولم تجد زوجتي حاجة إلى الكلام، ما دام نوري يعبر عن لسان

حالتها خير تعبير. ولم يتدخل في النقاش غيرنا. أنا كنت أدرك أن ماجد علاوي لم يكن يؤيد نوري في محاصرته إياي. وقد عبر لي عن رأيه بعد أكثر من عشر سنوات عندما التقينا في بيت أخيه (ابراهيم) في لندن.

قلت لنوري: «أنت لا يحق لك أن تحاصرني بنقاشك. أنا لم أكن أريد أن أقوم بهذه الزيارة لولا إلحاحك، وتوسلات ابنتي. أنا غاسل يدي من العراق. ولا أدري كيف تحملتم أتم الحرب مع ايران التي دامت ثماني سنوات. العراق مطلوب منه أن يخوض حروباً. وهو مقبل الآن على حرب جديدة».

«من قال لك؟ ومع من؟»

«لا أدري مع من. لكنني قرأت في مجلة (نيوتامبس) السوفيتية أن حرباً جديدة ستقع، وسيكون العراق أحد أطرافها. أنا لا أريد أن أعيش في بلد تفرض فيه عليّ سياسته المجنونة أو المشبوهة. أنا أرفض ذلك».

«هذا رجم في الغيب. الحرب مع ايران كانت غلطة أو خدعة. فلماذا تتكرر حتى مع لاعبين جدد؟»

«المشكلة، يا عزيزي، هي أنني لا أريد أن أعيش في بلد يحكمه رجل مشبوه، ويتصرف بمصائرها كما يشاء، أو كما يشاء موجهوه».

«هذا ليس جديداً. وأنت تتصرف بأنانية، ولا تحفل بعائلتك، وبأصدقائك».

قلت: «أنا بودي أن أقنعك بأن العراق محترق، وأن تتصرف في ضوء ذلك. وبودي أن أسحب عائلتي معي، لكن ذلك غير ممكن الآن، بالنسبة لظروف العائلة (مدارس البنات، الخ)، وبالنسبة لي. وأنا لم أفكر من

قبل في ترك العراق لو لم يضغط عليّ. ويومذاك لا يمكن اعتباري انانياً،
لأنني لم أرد أن أحترق. أما الآن فمن قال ان الوضع تغير. أنا لا أستطيع
أن أعيش في العراق بعد الآن. هل هذا أنانية؟»

«نعم، وأنا أناشدك بأن تبقى معنا، فليس هناك حريق في الافق».

«هل نحن نختلف الآن في نظرنا السياسية؟»

«هذا ليس مهماً. المحزن هو أنك تغيرت».

«أنا لا أستطيع أن أعيش في بلد يحكمه بلطجي».

«هل تريد أن تهيننا كلنا لأننا لا نريد أن نتخلى عن بلدنا مهما كانت
الظروف؟»

«أنت فقدت هدوءك، نوري، لا تقول عليّ».

«اسمع، يا صديقي، أنت تفكر في نفسك فقط».

«يوسفني أن أكرر القول إنني كاتب».

«لكنهم دعوك لزيارتهم بهذه الصفة. فهم يحترمونك».

«هذا صحيح جزئياً، وأنت تعلم ظروف دعوتي».

«ولماذا ترددت بعد كل تطميناتي ولهفتي؟ أنت لم تعد أنت».

شعرت أن الحديث بيننا كالحديث بين طرشان. هو يريدني أن أبقى ؛
وأنا لا أريد أن أبقى. كنت أريد أن ينتهي هذا الحوار لانه أصبح لا معنى
له بعد أن أكدت رغبتني بعدم البقاء في العراق. لكن نوري كان يريد أن
يقنعني بالبقاء، وقد ساءه جداً موقعي الرفض. كان متسلطاً في تلك

الجلسة، ويشعر كالمجروح. وهذا الجرح جاءه من أقرب صديق له.

قال: «يقي ألمي شديداً لأنك ترددت في زيارتنا بعد كل التطمينات التي قدمتها لك. هذا يعني أننا لم نعد نعني شيئاً بالنسبة لك».

«هذا غير صحيح، يا عزيزي، أنا تعرضت لضغوط شديدة لكي أمتنع عن تلبية دعوة المريد، باعتبارها دعوة من حكم أقل ما يقال فيه أنه معادٍ للشعب. والآن أنت تريدني أن أبقى في العراق. فماذا سيقول عني المثقفون الديمقراطيون؟ ألن أحترق ببقائي في العراق. ألا تفكر في سمعتي؟»

«ماذا، هل تريد أن تحول الكرة إلى ملعبتي؟ لماذا تترك الآخرين يتحكمون في مصيرك؟»

«هل أنت جاد؟ هؤلاء ليسوا آخرين، بل مثقفين نتحرك في فلكتهم».

قال: «فأنت تريد أن تتذرع بالمثقفين لكي تبعد عنا؟»

«أنا ابتعدت عنكم عندما تركت العراق، لكي لا أحترق. وسأبتعد عنكم الآن أيضاً، لكي لا أحترق أيضاً».

«طيب، أنا لا أريد لك أن تحترق».

الفصل التاسع

كنت في تلك الأثناء أفكر في كتابة دراسة عن هوميروس. ففي سياق قراءاتي عن الأساطير اليونانية، وقراءتي الإلياذة والأوديسة، توفرت لدي معلومات عن الحضارة اليونانية القديمة، ومعلومات عن الأدب والتاريخ المقارن مع شعوب منطقتنا. وأصبحت أسماء أسطورية يونانية، مثل آخيل، وسيزيف، ودايونيسوس، وهرقل، الخ، ضمن اهتماماتي. وأصبح هوميروس أحد أهم الأشخاص الذين كانوا يشغلون بالي. وفي أثناء زيارتي العراق كنت منصرفاً إلى هوميروس وعالمه. وكنت أذهب كل يوم تقريباً إلى بيت نوري السعدي لأراجع الموسوعة البريطانية. لكنني أنجزت كتابة الدراسة عن (هوميروس) عندما عدت من بغداد إلى بودابست. وأنا لا أزال أعتز كثيراً بهذه الدراسة التي غطت خمسين صفحة، ونشرتها أول الأمر في مجلة الكرمل - على ما أظن - ثم في كتاب (التلاقح الحضاري بين الشرق والغرب). في هذه الدراسة ناقشت فكرة الملحمة الهومرية وجذورها، أعني بذلك فكرة اختطاف

اميرة جميلة (هيلن)، وسوابقها التاريخية. وتطرت إلى وجود بعض النقاط المشتركة بين ملحمة جلجامش والإلياذة والأوديسة؛ وإلى وجود متوازيات مع قصة الأوديسة كمغامرة بحرية؛ وإلى قصص البطولة الملحمية (منذ سيرة سرجون الأكدي ٢٣٤٠ - ٢٢٨٤ ق. م). ؛ وإلى وجود متوازيات مع قصة حصان طروادة، التي ترمز إلى الخديعة العسكرية. ثم ناقشت معظم الأسماء المهمة الواردة في ملحمتي هوميروس، وسأكتفي هنا بذكر بعضها، مثل الدانيين الذين كان هوميروس يقصد بهم اليونانيين؛ وآخيل؛ وطروادة، ودايونيسوس نفسه، أو يوليسيز؛ والمتاهة Labyrinth؛ وهيلن بطلة الإلياذة وزوجة منيلاوس، أخي اغامنون، التي اختطفها باريس ابن پريام ملك طروادة؛ وكلمة الإلياذة Iliad المشتقة من Ilios اليونانية، وقد أشرت إلى أن المعاجم الغربية تحاول تجنب ذكر كلمة (إيل) السامية التي تقال للإله. كما ناقشت اسم (هوميروس) نفسه بشيء من الإسهاب.

كنت أجد لذة في قراءاتي الأسطورية واللغوية. وكانت قراءاتي مكثفة، لكنها حسنة الاختيار. فقد وقع اختياري واختيار آخرين على كتب لا تقدر بثمن. الجار الراحل، الدكتور فوزي رشيد أعارني كل الأجزاء المطبوعة يومذاك من معجم شيكاغو للأشوريات. وهذا قدم لي معجماً عن اللغتين السومرية والأكدية. والمستشرق التشيكي عرفني على كتاب المقارنة بين ست مجموعات لغوية لأيليتش سفيتيش، الذي لم يكن يقدر بثمن، رغم أنني لم أحصل سوى على الجزء الأول منه. ووجدت فائدة كبيرة في كتاب (الأساطير اليونانية) لروبرت غريفز. كما وجدت متعة وفائدة في قراءة كتابه الآخر (الإلهة البيضاء)، الذي عثرت عليه في لندن في أثناء زيارتي لها عام ١٩٨٠. وهنا علمت أن

الإلهة البيضاء تدعى Albina (ألبينا). ومنها سميت بريطانيا القديمة Albina. ومنها جاء اسم لبنان أيضاً. وأنا رجعت بذلك إلى كلمة (لبن) التي من بين معانيها البياض، في اللغات السامية - الحامية، واللغات الهندية الأوروبية. وقد كتبت كلمة جميلة عن الموضوع بعنوان (البحث عن الإلهة البيضاء).

ومن الكتب التي قدمت لي خدمة كبيرة، كتاب Hellenosemitica، الذي قدمته لي الصديقة (غ)، كما ذكرت سابقاً؛ وكتاب سوفيتي مترجم إلى العربية، بعنوان (الجديد حول الشرق القديم)، الذي أرسلته إليّ بمحض اختيارها الصديقة هناء. لقد قدم لي كتاب (هيلينوساميتيكا) لمايكل أستور التشيكي معلومات قيمة عن الجذور السامية للكثير من الكلمات والأسماء اليونانية. أما الكتاب الثاني (الجديد حول الشرق القديم)، فقد قدم لي معلومات قيمة أيضاً عن الفرضيات القديمة والجديدة عن موطن الأجداد الهندو - أوروبيين.

وأود أن أشير إلى كتاباتي اللغوية التي بدأت أنشرها في مجلة (الكرمل) التي كان يشرف عليها محمود درويش. بدأت هذه الكتابات بدراسة مطولة عن الجذور المشتركة بين اللغات السامية - الحامية واللغات الهندية - الأوروبية. وبعد ذلك صرت أرسل إلى الكرمل دراسات تحت عنوان (اهتمامات ميشولوجية واستطرادات لغوية)، وأعتقد أن هذه الدراسات حققت لي سمعة طيبة بين المثقفين. وأعترف بأن هذه الدراسات كانت شيقة جداً، وغنية في مادتها. وقد نشرتها في كتاب تحت عنوان (جولة في أقاليم اللغة والأسطورة)، طبع طبعين في دار المدى. وأنا أعتبر هذا الكتاب من بين أجمل كتاباتي. تشتمل مواد الكتاب على المواضيع الآتية: رموز الخصب في الأسطورة واللغة؛

والأشجار في عالمي الأسطورة واللغة؛ ومفردات رعوية؛ والطبيعة بين الأسطورة واللغة؛ وشيء عن الزمن.

لا أريد أن أفضل موضوعاً على آخر. لكنني سأتوقف عند موضوع (الأشجار). كلنا مغمومون بالأشجار، على ما أحسب. أما أنا فقد ازداد تعلقني بها، وحببي، بعد أن شاركت في ترجمة رواية (الدون الهادئ)، التي كانت الأشجار من بين أحب استطرادات ميخائيل شولوخوف، هي واسماء الأعشاب، والطيور، الخ. (لا أزال أذكر نبات الأرقطيون، الذي لم أكن أعرفه، لكنني طربت لاسمه). جاء في نهاية الجزء الثاني، بعد مقتل ميشا ودفنه: «وفي غضون أسبوعين نما على الرابية نبات الشيح والأرقطيون، وراحت سيقان الشوفان البري تراقص فوقه، وأزهر اللفت على جانبيه بصفرة بهيجة، وارتفعت سيقان البرسيم، وفاح الهواء بالسعتر والشيرم والندوة العسلية».

وفي أوروبا (الخضراء) وقعت في غرام الأشجار. في طريق ذهابي من بيتي في بودابست إلى مركز المدينة أصادف أشجاراً متنوعة حرصت على أن أعرف أسماءها. ففي فضاء مجمعنا السكني كانت هناك شجرة جوز، وصف من اشجار البندق، وفي الطريق المنحدر، كانت هناك أشجار زيزفون، وكستناء برية، وقيقب، وبتولا، وتنوب فضي، ودر دار، وسفرجل، ولوز، ودلب، الخ. وأصبحت هذه الأشجار صديقاتي.

وكتبت الدراسة عن الأشجار في عالمي الأسطورة واللغة بحب وتلذذ. فقد استهللت الكلمة بالرقية البابلية الآتية: «يا كوكرو، كوكرو، كوكرو، أنت أنجبت في الجبال المقدسة الطاهرة صغاراً من بغي مقدسة، بذور صنوبر من عذراء». ويا إلهي ما أظرف الكاتب البابلي هذا.

انا لي علاقة حميمة بالنخل، إنني من بيت الشوك، مالكي البساتين، وقد ولدت في الكراة. النخلة لم ينل اسمها إعجابي، لأن الخاء حرف ثقيل. لكنني أحببت اسمها في اللغات السامية، تمار. وأحببت اسم (تمارا)، الذي يطلق على الروسيات والقفقاسيات، ثم اقتبس منه بعض المثقفين العرب، مع أنه بضاعتنا تُرد إلينا.

بدأت دراستي بالحديث عن النخلة، بصفتها إلهة ولادة، كما كانت في مصر، وبابل، والجزيرة العربية، وفينيقيا. وفي القرآن عن مريم ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾. ولعل اصل كلمة (تامار) من كلمة (ماراتو) الأكديّة. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن كلمة (نخلة) العربيّة جاءت من (خولاميتو) الأكديّة. وأن كلمة (التمر) العربيّة، وكذلك (التمر) من كلمة (تمار). والتمر بالسومرية (زو - لوم - ما) ؛ وبالأكديّة suluppu. فهل السلاف العربيّة جاءت منها؟ والنخلة بالسومرية GISHIMMAR. وتسمى النخلة باليونانية فينقس Phoenix. وتقال هذه الكلمة للعنقاء أيضاً. كما تعني هذه الكلمة أرجوان. وإنما سميت العنقاء فينقس لأنها، كما تقول الأسطورة تتوالد على نخلة.

حديث النخلة طويل، وسأكتفي بهذا القدر عنها لأنقل إلى علاقتي بالنخلة، وبعد ذلك إلى شجرة التفاح. النخلة في رأيي شجرة شاذة عن بقية الشجر، وذلك ربما لأنها شجرة صحراوية. جذعها ليس خشباً طبيعياً؛ وأوراقها ليست أوراقاً طبيعية. لذلك أنا أحس بنوع من الخلل في تكوينها. كنت أشعر منذ صغري بهذا الخلل في تكوينها.

أنا لا خبرة لي في علم النبات. لكنني أعتقد أن سليات تكوين النخلة هي إيجابيات. لأنها بجذعها غير الصلد استطاعت أن تقاوم الجفاف والحرارة. إن أي شجرة أخرى لا تقاوم جفاف الصحراء. وهي قاومت

لأنها لم تبق شجرة كسائر الأشجار. وهناك شيء آخر، إنها بحكم طولها تحذب على بقية الأشجار وتحميها من لهيب الشمس. لذلك تزرع الحمضيات مثلاً تحت أشجار النخيل.

ثم إن التمر هو أعظم هدية تقدمها النخلة لابن الصحراء ولكل الناس. ويقال إن هناك أكثر من ٤٥٠ نوعاً من التمور. وسأذكر هنا بعض أنواع من التمر العراقي، مثل: الدقل، والمكسوم، والبرحي، والتبرزل، والخستاوي، والبربن، والأشوسي، والبريم، والخضراوي، والأزرق - الأزرق. ومن بين أكثر التمور شيوعاً في المنطقة الوسطى الزهدي. لكنني وجدت التمر السكري ألد أنواع التمور قاطبة، وهو ثمرة سعودي على ما أظن. وكان في أرض آل الشوك صف من السكريات جاء بفسائلها جدي من الحجاز. نحن كنا نحمل لهذه السكريات نظرة خاصة تختلف عن بقية أشجار النخيل في أرضنا. ولا أدري ما هو مصيرها بعد أن بني فندق ميليا منصور في أرضنا.

في دراستي عن الأشجار تحدثت أيضاً عن الصفصاف، والصنوبر، والبلوط، والزيتون، والكزوم، والتفاح، والرمان، الخ.

ومن بين الأشجار المثمرة أحببت البرتقال، والتفاح، والكرز. كان منظر ثمار البرتقال على أشجاره يأسرني في بساتين بعقوبة. ولزهر البرتقال، الأبيض، قبل أن يتحول إلى ثمرة رائحة مذهلة وذات شذى فريد من نوعه. وأنا واثق من أن البرتقال لو عرف في القديم لاحتل موقعاً لامعاً في عالم الأسطورة. لكن التفاح احتل هذا الموقع بدله. ويبدو أن معظم الفاكهة جاءتنا من الصين، وفي مقدمتها الحمضيات.

لكن التفاحة ربما كانت أجمل أنواع الفاكهة شكلاً. هي متفردة

في جماليتها بواسطة رصعيتها من أسفل ومن أعلى. هاتان الرصعتان لا نكاد نجد لهما مثيلاً في أية فاكهة أخرى. وهنا سرُّ جمالي آخر في التفاحة. فنحن إذا قطعنا التفاحة جانبياً، فسنجد في داخلها نجمة خماسية الشكل؛ وهذه كان ينظر إليها كرمز سحري. وإذا قطعناها عمودياً فسيوحي لنا ثبها بأنطباع جنسي. وربما لأجل هذا اقترن التفاح بالحب والجنس. فقد ورد ذكر التفاح في الأشعار التي تتغنى بمفاتيح الإلهة السومرية إنانا. وفي إحدى هذه القصائد إشارة إلى ان اتكاء إنانا إلى شجرة تفاح يجعلها مشتهاة. وفي قصيدة أخرى تُظهر إنانا مفاتها العارية لحببها مموز تلقاء شجرة تفاح. وفي رُقبة حب آشورية تُسدى نصيحة إلى خاطب ود العروس بتلاوة تعويذة على تفاحة أو رمانة (كان الرمان فاكهة حب أيضاً، وكذلك السفرجل).

وفي نشيد الأنشاد (في التوراة) جاء: «كالتفاحة في أشجار الغابة، كذلك حببب بين البنين. وفي ظله اشتهت الجلوس؛ وثمره حلو في حلقي». وفي موضع آخر: «أنعشوني بالتفاح، فقد أسقمني الحب».

وفي الأساطير اليونانية إن التفاحة كانت تقدم هدية كرمز للاعتراف بالحب. وقيل إن الجوارب في أيام العباسيين كُن طالما يهدين التفاح إلى من يكلفون بهن، أو يتعلقن هن بهم. وكمن يتركن عليه أثراً أو آثاراً بأسنانهن، وقد يكتبن عليه بعض أبيات رقيقة.

وقيل إن جارية صبية مضيئة الوجه مرّت بأبي نواس، فمازحته ساعة. وكان هو يومذاك صبياً أيضاً، مليح الوجه. ثم رمت الصبية الممراح إليه بتفاحة معضضة. فقال على البديهة من أبيات: «ليس ذاك العض من عيب لها / إنما ذاك سؤال للقبل».

كنت أريد أن أكتب عن موطن التفاح الأصلي: من أين جاء التفاح؟ لكنني سألجأ إلى الإيجاز، إنني في سباق مع الزمن، وصراع مع الكتابة. فالزمن، بمعنى، الذاكرة، والكتابة، يعرقلان مهمتي في الكتابة. وأنا أريد أن أتحدث عن أسفاري، التي جعلتني على تماس مع الحياة، والآخرين، ووفرت لي فرصاً ثمينة للكتابة. ومن أغنى هذه الفرص لقائي بالصديقة (غ)، التي تحدثت عنها في الصفحات السابقة. لكن (غ) أتاحت لي فرصاً للسفر إلى بلدان أخرى، لولاها لم تتوفر لي، بحكم العراقيل التي أتعرض إليها بواسطة جوازي العراقي الهزيل. ففي البدء استطاعت أن تهتئ لي فرصة زيارة اليونان وجزيرة كريت، بحكم علاقاتها اليونانية. وقد استفدت من سفرة كريت في رواية «الأوبرا والكلب»، التي سأعود إلى الحديث عنها. وأنزلتني شهراً كاملاً في بلدة في بريطانيا في عام ١٩٨٦. ثم استطعت السفر بواسطة بلجيكا غير مرة كانت أولها في ١٩٩١. وفي بروكسل أيضاً أنزلتني في شقة فاخرة في شارع شومان، أو لعله شارع لويز. وهنا أتيت لي أن ألتقي لأول مرة بكامل شياخ. فقد كان الصديق (سابقاً!) غانم حمدون على علم بحركتي، وقال لي: «هناك شاب عراقي مثقف يقيم في بلدة لوفان، سيسعدك أن يتعرف اليك». واتفقنا على موعد أمام مكتبة الدراسات الفلسفية واللاهوتية في جامعة لوفان. وبعد اللقاء جال بي كامل في أروقة المكتبة. ثم انتقلنا إلى مكتبة كان يومها مثقفون. وفي ركن من أركان المقهى بدأ كامل يحطرنني بسيل من كلامه السريع. فذكرني بعالم الفيزياء الدانماركي نيلز بور، الذي قال عنه برتراند راسل: إنه كان يتكلم بسرعة كان راسل يعجز عن متابعتها.

وكان طبيعياً أن يتحدث كامل عن قضايا الفكر والفلسفة. فهو درس الفلسفة في معاهد أكاديمية. وكان يتقن الفرنسية، والإيطالية، والإنكليزية، والفلمنكية، إلى جانب العربية. وتحدث عن فلسفة ما بعد الحداثة، التي كانت رائجة يومذاك. وذكر أسماء لم أسمع بها من قبل، مثل بودريار، وليوتارد، ولاكان، الخ. فقلت ما أحوجنا إلى مثل هذا الشاب، الذي يستطيع أن يسد الثغرة الفلسفية عندنا.

ولسوف تتوطد العلاقة بيني وبين كامل شياع. وسأقرأ له، ويقرأ لي، وقد كتب عن روايتي (الأوبرا والكلب) كلمة جميلة. ثم فجئنا بحادث اغتياله في ٢٠٠٨. وكتبت عنه كلمة في جريدة (الحياة) بعنوان (مسدس كاتم الصوت). وفيما بعد كتبت رواية قصيرة بعنوان (موعد مع الموت) مستوحاة من حادث اغتياله.

في تلك الزيارة (إلى بلجيكا) عثرت على كتاب بعنوان (Inanna)، فكان لقطعة بالنسبة لي. والتمست من الصديقة (غ) تصويره بآلة الاستنساخ. وعدت به إلى بودابست لأشعر بترجمته على الفور.

أنا كنت قد فرغت حديثاً من كتابة دراسة عن هوميروس. وكنت مشغول البال بشخصية هيلن التي كانت البطلة الخلفية للملحمة الأوديسية، ملحمة عن امرأة. فكيف كانت هيلن؟ لا أظن أن امرأة أخرى في تاريخ الأدب كانت في مضاهاتها.... جان دارك؟ هيلويز؟ هيلداغارد أوف بنغن؟ الولادة بنت المستكفي؟ السومريون أعطونا إنانا، ويعني اسمها (سيدة السماء). وهي تصور كحزمة قصب، وهذا أيضاً من معاني اسم هيلن.

لكن إنانا أصبحت عشتار بالأكديّة، وعشتارت بالكنعانية. وهذا

ربما يذكرنا بأفروديت. فأفروديت هي عشتار، لأن إنانا = عشتار هي إلهة الحب والحرب.

أنا لا أريد أن أكون معجباً بأولاء البطلات الأسطوريات، حتى بإنانا. لكن الكتاب الشعري عنها أثار فضولي في قيمته التقنية، بالرغم من سذاجته الأدبية المفرطة. أنا أعجبت كثيراً بتعدد الأصوات في هذه الإضمامة من الشعر. الشعر كان هنا ذا أصوات متعددة، رغم أنه بدائي، أو يمثل مرحلة طفولية من الشعر. وفي هذا كان متفوقاً على الشعر العربي الكلاسيكي الذي كان ذا صوت واحد.

في قصيدة (الغزل بين إنانا ومموز)، هناك صوت أوتو شقيق إنانا؛ وصوت إنانا، وصوت مموز (الراعي)؛ وصوت Ningal، أم إنانا؛ وصوت ننشوبور خادمة إنانا. والقصيدة في معظمها حوار بين مموز وإنانا.

وفي قصيدة (من الأعلى العظيم إلى الأسفل العظيم)، هناك عدة أصوات أيضاً: صوت إنانا؛ وصوت خادمتها ننشوبور؛ وصوت Neti حارس بوابة العالم الأسفل، وصوت أريشكيغال إلهة العالم الأسفل؛ وصوت الأب انليل؛ وصوت الأب ناننا؛ وصوت الأب آنكي؛ وصوت الكورغورا؛ وصوت الغالاتور؛ وصوت الغالا عفاريت العالم الأسفل؛ وصوت مموز. وهذه الأصوات تأخذ طابعاً أشبه بالحوار في تمثيلية. وهذا قد يدعو إلى الاعتقاد في نشوء التمثيل في سومر. وقد قرأت دراسة للدكتور فوزي رشيد في ١٩٨٩ بعنوان (المسرح عراقي الأصل) وجدتها جديرة بالتأمل. أنا لم أعد احفل باللهاث وراء إنجازاتنا التاريخية ولمن كان السبق في هذا الإنجاز الحضاري أو ذلك. فالحضارة الآن هي نتاج الغرب، ثم لا ننسى انهم ونحن أقرباء منذ عشرة آلاف

سنة حيث ابتعد الأوريون عنا بحثاً عن مواطن قدم جديدة في رحلة الخنطة من منطقتنا إلى الغرب (والشرق)، مع أن الشرق اقتات على الرز.

لكن مقولة الجذور السومرية للمسرح - قبل اليونان - قد تكون صحيحة. وربما كان نزول إنانا إلى العالم الأسفل أول عمل مسرحي في التاريخ. وما يدعو الدكتور فوزي رشيد الاعتقاد بممارسة التمثيل في سومر، وجود كلمة للممثل، ومثلها للممثلة في اللغة البابلية وهما «موميلو»، و «موميلتو». كما نلاحظ أن المصدر البابلي الذي اشتقت منه كلمتا الممثل والممثلة، هو «ميلولو»، ويعني «يلعب». ولعله ليس من باب المصادفة أن اللغات الأوروبية تستعمل الفعل «يلعب» في عملية التمثيل.

هذا كان استطراداً جانبياً. فموضوعنا هو الشعر الذي قيل في حق إنانا. ولعله كان أقدم شعر. لهذا سنجده شعراً ينطوي على الكثير من السذاجة. وهناك عنصر التكرار فيه. لكن فيه مصداقية في المشاعر كبيرة، وحرية مطلقة في التعبير عن هذه المشاعر. إنه شعور عارٍ، إذا جاز لي القول. وأنا سأذهب إلى القول إن إنانا نفسها ربما كانت عارية أحياناً من أي رداء. في مستهل قصيدة (إنانا وإله الحكمة) جاء:

«وضعت إنانا تاج البرية على رأسها

مضت إلى حضيرة الغنم، إلى الراعي

أسندت ظهرها إلى شجرة التفاح

عندما أسندت ظهرها إلى شجرة التفاح، خلب عضوها الأبصار،

وإذا انتشت بعضوها الذي يخلب الأبصار، ازدادت

الفتاة إنانا زهواً بنفسها».

ولاحظت أن هذه الأشعار ليس فيها محذور في الجنس. وهذا جعلني أتردد في ترجمتها، لأنها قد تسبب إشكالاً لدار النشر، وحرصاً لكثير من القراء. لكنني تغلبت على ترددي، لأن الامتناع عن ترجمة شعر بريء كل البراءة في التعبير عن المشاعر، سيحرماننا من الاطلاع على آدابنا والوقوف على سايكولوجية تلك المجتمعات التي نعتر بكونها واضحة اللبنة الأولى لكل مقومات الحضارة. مع ذلك، قال لي الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي بعد أن أهديته نسخة من الكتاب: «أهذا كتاب يستطيع إنسان أن يضعه في بيته؟». لكن كتاب (الأغاني) لأبي فرج لم يكن أقل من هذا الكتاب حياءً. وأنا الآن لا أملك سوى نسخة واحدة فقط من هذا الكتاب. ولا أدري كم يملك منه الناشر (صاحب دار الجمل). وقد أخبرني قبل بضع سنوات بأنه يفكر في طبع الكتاب طبعة ثانية من أجل أن تيسر قراءته الآن لدى الشعب العراقي، الذي كان محروماً منه، لكنه تردد، على ما يبدو، لأنه لم يجد الطرف مناسباً في العراق الآن لتوزيع مثل هذا الكتاب.

الكتاب صدر في ١٩٩٢ عن دار الجمل بعنوان (من روائع الشعر السومري). وكان في ودي أن أنقل إحدى قصائده في كتابي هذا، لكنني قد أقنع الناشر، السيد خالد المعالي، بإعادة طبعه. فأنا لديّ قناعة بأن هذا الكتاب سيجد رواجاً بين القراء العراقيين ليقفوا على نماذج لم تنشر من شعر مواطنيهم القدامى.

ويتعين عليّ أن أعترف بأن الأدب السومري تألق بعمليين أدبيين متميزين، هما ملحمة جلجامش، وهذه الإضمامة الجميلة من الشعر عن إنانا. وأنا هنا لست بصدد الحديث عن ملحمة جلجامش التي تعتبر من مفاخر الأدب القديم. لكنني أود أن أتوقف أكثر الآن قليلاً عند

الحديث عن إنانا. بالنسبة لي، أنا أضيف إنانا إلى الشخصيات الأدبية النسائية اللواتي استأثرن بحبي واهتمامي، مثل ماتيلد بطله رواية (الأحمر والأسود)؛ وأنا كارائنا؛ واليزابيث بنيت بطله رواية (كبرياء وهوى). في كل الأدب القديم لم أجدني منجذباً إلى شخصية نسائية مثل إنانا. هناك شخصيات نسائية متألفة في عالم الأساطير اليونانية والرومانية، لكنهن كنَّ «مصقولات» أكثر، وذلك لأنهن كنَّ أكثر تحضراً من إنانا، بحكم عامل التطور. لكن «بدائية». إنانا لها سحرها الكبير علينا في براءتها وسذاجتها وحريتها المطلقة. مع إنانا لم يكن هناك تابو أو محظور. وهذا ربما كان صادمًا لنا. لكنه هو الحقيقة الصادقة.

في (شجرة الخلاف)، جلجامش هو شقيقها، وسندها، وهازم العفاريت الذين يقلقون راحتها. وفي (الغزل بين إنانا ومموز) نجد إنانا أقوى شخصية من مموز، بالرغم من أنها تجحد لذتها معه، وتتعاطى معه فنون الحب بكل المشاعر الأرضية أو البشرية. وفي (إنانا وإله الحكمة) تُعامل إنانا بتوقير ومحبة من إله الحكمة أنكحي، الذي يمنحها كل فنون المعرفة والحياة. وأنا استمتعت بهذه القصيدة كثيراً، وسأنقل مقاطع منها. وتبارك إنانا في التراتيل السبع التي ترفع إليها. لكنها تذلل في نزولها إلى العالم الأسفل. ولا تعاد إلى العالم الأعلى إلا بعد أن تقدم بديلاً عنها. وهذا يعني أن هاجس الموت كان أكبر منغص لدى السومريين، لأن الموت لا يعني عندهم توقف الحياة، بل حياة شقية في أسفل الأرض، كأن يكون الطين طعام الموتى.

أريد أن أنهى حديثي عن هذه المجموعة الشعرية المكرسة كلها لإنانا، بأقتباس بعض ما جاء في قصيدة (إنانا وإله الحكمة):

تحرك إنانا في زورقها من أوروك إلى أريدو، لتستلم من أبيها

آنكي شعائر الأرض والسماء، بعد أن تعرض مفاتن أنوثتها لتخلب
الأبصار (!) وحين يعلم آنكي بخبرها، يرسل خادمه إيسيمود ليستقبلها
ويقدم لها كعكة معمولة بالزبدة، وماءً بارداً لينعشها، وجعة. ولدى
وصولها يشرب آنكي الجعة معها سوية بقدحيهما البرونزيين المترعين،
إلى أن يتتبع آنكي الشراب. ثم يقول آنكي، أصالة عن نفسي! ونيابة
عن مزارى المقدس!

سامح ابنتي إنانا

الكهنوتية العليا! الألوهية!

التاج الرفيع الخالد! عرش الملكية!

إنانا أجابت: أتسلمها!

ثم يرفع آنكي كأسه ويتقارع مع إنانا النخب مرة ثانية!

«أصالة عن نفسي! ونيابة عن مزارى المقدس!

سامح ابنتي إنانا

الحقيقة!

الهبوط إلى العالم الأسفل! الصعود من العالم الأسفل!

فن عمل الحب! تقبيل (...). (كلمة جنسية)

إنانا أجابت:

أتسلمها

وهكذا يرفع آنكي كأسه لإنانا أربع عشرة مرة.

ثم تقف إنانا أمام أبيها، وتعبر عن امتنانها لشرائع الحكمة التي منحها

أبوها. وتذكر ثمانين أعطية منحها أبوها آنكي، سنذكر بعضها:

أعطاني الصولجان السامي
أعطاني العصا
أعطاني الخنجر والسيف
أعطاني الرداء الأسود
أعطاني الرداء الملون
أعطاني إسدال الشعر
أعطاني عقص الشعر
أعطاني الراية
أعطاني الكنانة
أعطاني فن عمل الحب
أعطاني تقبيل (...). (كلمة جنسية)
أعطاني فن البغاء
أعطاني فن النجاح
أعطاني الحظيرة التي توفر الطعام
أعطاني تكويم الجمر
أعطاني الخوف
أعطاني الذعر
أعطاني الفزع
أعطاني إضرار النار
أعطاني إطفاء النار
أعطاني تأجيج المشاحنات

أعطني المشورة
أعطني تهدئة الخاطر
أعطني إصدار الأحكام
أعطني صنع القرار

.....

لكن أنكبي يسأل خادمه إيسيمود بعد أن توشك الفتاة أن تذهب إلى أوروك محملة بكل شعائر الأرض والسماء؛ أين هي تلك الأعطيات، ويؤكد إيسيمود أنه اعطاها لابنته.

فيطلب أنكبي من إيسيمود أن يأخذ معه مخلوقات الاينكوم لتعود بزورق السماء إلى اريدو. لقد تراجع عن كلمته. وهذا يثير سخط ابنته إنانا. وتستنجد بخادمتها أو وزيرتها المخلصة نشوبور لتسترجع الشرائع من المخلوقات التي أخذتها. وبعد كرفر تستعاد الشرائع إلى إنانا! آخ إنه شعر رائع في سذاجته.

الفصل العاشر

طلبت من أخي أمين أن يأخذني - في سيارته - إلى حيث كان شارعنا الذي كنا نسميه شارع الشوكية، وهو غير شارع الشواكة الذي لا علاقة لنا به. لقد أزيل شارعنا من الوجود بعد بناء فندق ميليا منصور. لكنني وقفت على السدة أمام دجلة الذي أصبح أكبر من ساقية بقليل. وسرنا باتجاه جسر السنك، الذي أقيم في فترة غيابي. وواصلنا السير باتجاه كراةة مريم، إلى بيت عبد المجيد القصاب الذي كان رئيساً لمجلس النواب العراقي في أيام العهد الملكي. ولم أستطع أن أحدد موقع مدرستي الابتدائية التي أمضيت فيها السنوات الثلاث الأولى..... كما لم نستطع أن نواصل السير إلى ما أصبح الآن يدعى بالمنطقة الخضراء.

كان شارعنا يهمني بلوعة. كان شارعنا هذا جزءاً من الأرض الواسعة التي كان يملكها أجدادي، والتي تمتد من الصالحية إلى أرض المسعودي غرباً، وإلى أسفل من شارعنا جنوباً، لا أدري كم هي المساحة بالضبط.

لكنني سمعت من عمي أحمد (الشوك) قبل وفاته في منتصف الثمانينات بعام أن أرضنا كانت تشمل كل المنطقة التي تقع فيها بناية المتحف العراقي، ومطار المثنى، وقصر النهاية، وقصر الزهور، وكل الأراضي التي سيطرت عليها العائلة المالكة؛ وكل منشآت السكك ودوائرها. وأكد عمي أنه بقي يراجع دائرة الطابو عشرين عاماً لكي يحصل على سند التملك لأراضينا في الحارثية والقادسية، ثم اكتشف أن الأوراق انتزعت من السجلات. ولا بد أن ذلك تم بإيعاز من العائلة المالكة التي صادرت الأرض. وهذا ممكن لأن العائلة المالكة لم تكن تملك شبراً من أرض العراق، فهي قدمت من الحجاز.

وأخبرني عمي في ذلك اللقاء (في لندن) أن أباه الحاج أمين الشوك، أي جدي، هو الذي أدخل زراعة الطماطم إلى العراق، وكذلك زراعة الماندارين؛ وأن عمي الحاج جاسم أدخل زراعة البطاطا.

لكنني سأحرف بقصتنا، وأنتقل إلى باب الشيخ، ثم أعود إلى الكرادة، وإلى شارعنا بالذات. ذكرت نضال ابنة أحمد الشوك الصغرى ان احد معارفها أخبرها أنه عثر على كتاب مؤلفه مساح بريطاني في ١٨٥٣، فيه خارطة لبغداد يرد فيها اسم شارع أو ربما زقاق في باب الشيخ باسم الشوك. وحدثني ابنة عمي الأخرى - التي ترفض أن أذكر اسمها - أن جدي كان يسكن في بيت في زقاق في باب الشيخ في جانب الرصافة. وبعد أن توفيت زوجته الثالثة (كان يتزوج تباعاً)، طلب يد ابنة المشرف على إدارة أملاكه، وكانت فاتنة جداً، على ما قيل، ولها عينان ملونتان. وقيل إنها اشترطت للاقتران بجدي أن يبني لها قصرأ في مكان «فرح». وهكذا بنى جدي لعروسه الفاتنة (جدتي) قصرأ في بستانه في كرادة مريم يطل على نهر دجلة

مباشرة. وفي هذا البيت ولدت أنا في عام ١٩٢٩. قالت لي أُمِّي إنني
جئت إلى الدنيا في خامس يوم دورة السنة. وهذا يعني أن ولادتي
كانت في ١٩٢٩/٣/٢٥.

وسأشير إلى ثلاثة قصور بنيت قريسة من بيت جدي، بعد أن اشترى
أصحابها الأرض من جدي. هي قصر خضوري، وقصر حميم، وقصر
ستيفان الأرمني ابن قنصل روسيا القيصريّة في بغداد في العهد العثماني،
وهذا يقدم تفسيراً أيضاً لعثورنا على نقود روسية قيصريّة وعثمانية في
بيت جدي.

ثم أصبح قصر خضوري وحميم مقراً للقيادة البريطانية بعد دخول
بريطانيا بغداد في الحرب العالمية الأولى. وبعد انتقال الإنكليز من
هذين القصرين إلى سفارتهم التي بنوها في الكريّمات، أقام عبد المحسن
السعدون في قصر خضوري. وأظن أنه انتحر هناك.

سأستميح القراء العذر لأنني أتقافز هنا وهناك فوق الأحداث. فنحن
جئنا من تركيا قبل أكثر من ثلاثمئة عام. ثم أقمنا في باب الشيخ قبل
أكثر من مئة عام، لكننا كنا نملك نصف جانب الكرخ منذ سنة ١٧٧٤
كما جاء في الوثيقة. فنحن أبناء البستان أيضاً. وهذا يتضح من علاقتنا
بالمزروعات (الطماطم، والماندارين، والبطاطا). وكنا نسمي شارعنا
«البستان» حتى بعد أن بنيت على جانبيه البيوت. وبعد بيت جدي
المطل على نهر دجلة. كان أبي أول من بنى بيتاً في «البستان»، وكذلك
عمي جمال (بنى بيتين متجاورين). ثم بنى أعمامي الآخرون بيوتهم.
كان ذلك منذ الثلاثينات.

ونحن كنا نحن إلى أرض السكك، بكل منشآتها، ودوائرها، لاسيما

قصر الكرنل وحدائقه الفسيحة، الذي أقام فيه نوري السعيد بعد رحيل الكرنل الذي كان مديراً عاماً للسكك. وبقيت في ذاكرتنا قصة بيع الأرض للألماني على حد قول أعمامي، قبل الحرب العالمية الأولى. وهي قصة تذكرنا بقصص الكاوبويز في إطار ما كان الناس يتداولونها. روى لي الموسيقي سلمان شكر، وكان هو من سكنة حي الشواكة أنه سمع من أبيه قصة بيع أراضي السكك للألماني. فقد تسلم جدي فرماناً من الباب العالي من اسطنبول، يقضي باستملاك أرض لتكون قاعدة لمحطات سكك حديد في بغداد، ضمن مشروع خط برلين بغداد، ولا بد من اقتطاع جزء من أراضي جدي لهذا الغرض، طبعاً بعد تعويض مالي لجدي يقدره الموظفون العاملون في السراي. وباع جدي تلك الأرض بمبلغ لم يكن زهيداً. وبالطبع سمع القاضي والداني بخبر هذه الصفقة. وشحذ بعض المتعطلين واللصوص أسلحتهم لاستلاب أكياس الليرات الذهبية التي سيعود بها أبناء الشوك من السراي. لكن جدي كان لديه جيش من الأبناء الأشداء الذين يجيدون ركوب الخيل، ويحسنون القتال. فذهبوا إلى السراي على صهوات جيادهم، مدججين ببنادقهم، واستلموا المال. وعادوا ليجدوا عدداً من اللصوص متربصين لهم. لكن اللصوص عادوا خائبين بعد أن أدركوا أن المعركة لن تكون في صالحهم. (وأنا رويت خبر هذه الحادثة بتفصيل أكثر في رواية «أحاديث يوم الأحد»).

ويتندر أعمامي بقصة أخيهم حسن الذي اختطف أخاهم الآخر سلمان من الطابور الذاهب إلى سفر برلك، والعودة به على صهوة جواده إلى بستاننا ليخفيه في مزرعة الدخن التي تعلقو سيقانها قامة إنسان.

أعود إلى شارعنا الذي لم يعد له وجود الآن. أنا عشت فيه أربعين عاماً باستثناء سنوات السفر إلى بيروت وأميركا. وسأشير فيه إلى «البقجة» التي تقع في نهايته. وقد بناها في الثلاثينات عمي عباس. والكلمة من أصل فارسي أو تركي، وتعني بستاناً صغيراً. وكانت في واقع الحال مشتملاً مع حديقة زرعت فيها مختلف الأشجار المثمرة. هي لم تُبن للسكن، بل للسهر فيها في بعض الليالي عندما كانت تدعى إليها راقصات ومغنيات. وأنا شاهدت فيها راقصات عندما كنت صغيراً. وكن يمثلن عالماً غريباً بالنسبة لنا، بأجسادهن شبه العارية، وترعش أجسادهن. وكان عمي عباس يدعو أصدقاءه من الوزراء وكبار الموظفين للسهر في هذه البقجة ومشاهدة الراقصات.

ولم يكن الرقص «الشرقي» يستهويني حتى فيما بعد عندما كنت أشاهده في السينما (المصرية). أنا لم أعجب بأي من الراقصات المصريات. لكنني غيرت رأبي عندما شاهدت راقصة لبنانية في كاباريه أوبيرج ببغداد في الستينات. لقد أدار رأسي رقص هذه الراقصة بفنها وليس بترعش صدرها أو مؤخرتها. وحفزي على كتابة صفحات «متألقة» عن الرقص في روايتي (فرس البراري).

وفيما بعد أعطى عمي عباس البقجة لابنه عبود لتكون معتكفاً له لدراسة الحقوق. فقد كان عبود الشوك أول جامعي من آل الشوك. وتعين مدير ناحية في ١٩٤١، وتقدم في الوظيفة إلى أن أصبح متصرفاً. وكان صديقاً لعبد الكريم قاسم، ربما بحكم عملهما في لواء ديالى، يوم كان عبود متصرفاً للواء.

وعندما احتل الإنكليز العراق مرة ثانية بعد حرب رشيد عالي

الكيلاي في ١٩٤١، أقاموا معسكرهم في أرضنا، واستأجروا البقجة
وبيت عمي محمد كمقر للقيادة العسكرية.

وبعد نهاية الحرب ترك الجيش البريطاني منطقتنا. واستأجر البقجة
مشف يهودي علمنا فيما بعد أنه من جماعة الرفيق فهد. فقد اعتقل
مع الرفاق فهد، وزكي بسيم، وحسين الشبيبي. وأعدموا في ١٩٤٩.
علمت أن هذا الرفيق هو يهودا صديق.

وأنا لم أكن في العراق بين السنوات ١٩٤٧ - ١٩٥٢. لكنني أذكر
أنني كنت أشاهد يهودا صديق، لأن مسكنه لم يكن بعيداً عن بيتنا.
وحدثتني ابنة عمي أنه كان يعطيها شوكلاته عندما يشاهدها تلعب في
الشارع (شارعنا).

وحدثني ضياء مطر أنه كان يبيت مع حسين الشبيبي في بيت أخيه
غير الشقيق جليل الشوك عندما ينزلان إلى بغداد. وعلمت أن جليل
بكي عندما سمع بحادث شق الرفيق حسين.

وقبل أن أنتهي من الحديث عن شارعنا أود أن أتوقف عند الحديث
عن أحمد الشوك (عمي)، لأنه من الشخصيات العراقية المهمة، لكنه
تعرض إلى الإهمال والملاحقة في عهد صدام حسين، ومات في المنفى
(في المغرب). وأنا كنت أحب أن أكتب رواية عنه، لأن حياته كانت
غنية جداً في أحداثها وارتباطاتها أو تداعياتها، لكنني أحجمت لثلا
يوجه إلي اللوم من أهله. ففي الرواية أنت لا تتعفف عن كتابة المبادل.
ومع ذلك، سأطرق إلى ذكر وقائع ستبدو مثيرة للفضول.

كان أحمد الشوك مديد القامة، وسيماً، وذا عينين ملونتين، ورثهما
من أمه. كان يملك قوة شخصية فرضها حتى على الكبار من أقاربه.

وكان يحيل التراب إلى ذهب. لذلك أصبح من أثري أثرياء العراق بسرعة نسبية. وهو عرف كيف يعيش حياته، بخصوص مسراته التي كان يمارسها حتى آخر يوم من حياته. ولا يتورع عن الإعلان عنها لنا، وهي مما يندرج في باب الإسرار (لا أستطيع أن أذكر نماذج منها). وأنا أشبهه بالشاعر العربي عمر بن أبي ربيعة، باستثناء موهبة الشعر، لاسيما بوسامته المعروفة، وغرام أمه به قبل غيرها من النساء. وكان هو آخر أبنائها، وكان مدلل أبيه أيضاً، جدنا الحاج أمين الشوك، صاحب الأطيان والثروة الواسعة. كانت أمه تلبسه أفخر اللباس، ويضع أبوه على رأسه الفينة (الطربوش)، ويصطحبه معه إلى مقهى البيروتى، ملتقى وجهاء بغداد. وكانت أمه ترافقه إلى الباب لتمسد على كتفه وتودعه بكلمتي «محضن، ابني». وعندما أدركت الوفاة جدي، أمسك بيد عمي جمال وهو على فراش الموت، وقال له: «سأترك أخاك الصغير أحمد أمانة بيدك». ولم ينس عمي هذه المناشدة. ففي شبابه باع عمي أحمد حصته من الأملاك إلى أبي، وسافر إلى إيران. وهناك بدد كل ما يملك على فانات طهران وفناناتها. وبعد أن ضيع كل ما يملك، أرسل خبراً إلى أخيه جمال بأن يهرع إليه ليعود به إلى بغداد، لأنه لم يعد يملك أجور السفر.

(سأنتقل الآن إلى صعيد آخر من هذه القصة، ثم أعود إليها).

أنا هنا سأحدث عن (دكة عاكف)^(١٢): عندما حاصر الجيش البريطاني البصرة في الحرب العالمية الأولى، فرّ الجنود العراقيون، واختبأوا في بساتين الحلة. وقد كونوا كتائب من بينهم لحراسة الفارين

١٢. دكة عاكف (بالجيم المصرية) تعني فعلة عاكف.

إلى الحلة. فأوفد والي بغداد العثماني رسولاً إلى الحاج شريف، والد عبد الرزاق زوج خالتي شفيقة، يطلب منه إلقاء القبض على الجنود الفارين وإرسالهم إلى بغداد. كان الحاج شريف صاحب الكلمة العليا في الحلة. فأجاب رسول الوالي أنه ليس لديه عسكر، وقال له: «أرسل إلي عسكراً، وعند ذلك سأنفذ الأمر».

أرسل الوالي عسكراً إلى الحلة، مع وفد اتصل بالحاج شريف، وطلب منه تزويد الجيش بالطعام.

وبما أن الحاج شريف «يحكم» أو «يملك» الحلة، فقد طلب من سكان الحلة وفلاحها أن يوفروا طعاماً للجنود. وهكذا جمع كل ما لدى الناس من خبز ولبن، وزبد، وحليب، وقيمر، وتمر، وقدم طعاماً للجنود.

بعد ذلك طلب من الحاج شريف أن يمد جسراً فوق نهر الحلة، ليعبر عليه الجنود إلى الضفة الثانية.

كان الانتقال بين ضفتي النهر تلك الأيام يتم بواسطة القفف. فجمع أهل الحلة جميع القفف المتيسرة، وخلعوا أبواب الدكاكين والبيوت، واستطاعوا أن يبنوا منها جسراً. فعبر الجنود، ووصلوا إلى الضفة الثانية من النهر.

كان قائد هذه الحملة يدعى عاكف. عندما انتهى الجيش من عبور النهر، التفت عاكف، وقال للحاج شريف: «أنت استطعت أن تطعم فرقة بكاملها، وأن تبني جسراً في فترة وجيزة. لكنك اعتذرت عن إلقاء القبض على الجنود الفارين من المعركة. لهذا حكمنا عليك وعلى أعضاء المجلس البلدي لمدينة الحلة بالإعدام شنقاً حتى الموت».

ومن حسن الحظ أن ابنه، عبد الرزاق شريف، كان في النجف يومذاك، في صحبة جميع نساء آل شريف، عند قريهم عبد المحسن شلاش، فنجوا هو من الإعدام، والنساء من السبي.

بعد ذلك أضرم الجيش العثماني النار في أسواق الحلة وبيوتها. وأخذ من وجد من النساء سبايا إلى استانبول. وقد مات أغلبهن في الطريق. وبقيت النار تشتعل في مخازن الحبوب في سوق الحلة أياماً طويلة. وتوجد الآن تلة صغيرة في مدينة الحلة أنشئت عليها حديقة تذكّر بالجثائن المعلقة، في مكان التلة التي تخلفت من حريق سوق الحبوب.

أما عبد الرزاق شريف فقد عاد من النجف مع بعض رجاله، وحملوا جثة أبيه الحاج شريف مع جثة زوج أخت عبد الرزاق. وعادوا بالجثمانين إلى النجف لدفنهما في مقبرة العائلة.

هذه الحادثة دفعت عبد الرزاق شريف للتعاون مع الجيش البريطاني. ثم منح بعد سنوات هدية من ملك الإمبراطورية البريطانية، هي علبة سكاير ذهبية مرصعة بالماس. ثم انتخب عبد الرزاق شريف نائباً عن الحلة في أول مجلس نيابي. وكان عندما يكون في بغداد لحضور جلسات مجلس النواب، يقيم في منزل عمي جمال زوج خالتي نعيمة، شقيقة الخالة شفيقة زوجة عبد الرزاق شريف. وعندما تزوجت خالتي نعيمة، أهدى لها عبد الرزاق شريف علبة السكاير الذهبية. وعلم بخبرها عمي أحمد فأرادها له، ولم يرفض شقيقه العم جمال له طلباً، وأعطاه العلبة الثمينة، المهداة من قبل ملك بريطانيا. لكن عمي جمال أخبر زوجته أن تطلب أي شيء آخر بدلها. واشترى لها علبة سكاير فضية مشغولة بالمينا... ثم أن عمي أحمد أهدى العلبة الذهبية إلى الفنانة عفيفة اسكندرا

في يومياتي هذه سأتوقف عند الحديث عن أحمد الشوك، لأنه كان شخصية غامضة جداً، ومات ميتة غامضة، بعد أن عاش حياة مرفهة جداً. لكن ثروته طمع فيها خير الله طلفاح وسيطر على ما كان في وسعه نهبه منها بوسائل غير شريفة، بما في ذلك اللجوء إلى اعتقال الرجل.

كنت أنا من بين من نالوا وده واعتزازه. ففور عودتي من أميركا زارني للتهنئة. وعندما تزوجت أهدي زوجتي سواراً ذهبياً فاخراً مرصعاً باللؤلؤ. وفي لندن أحب أن أكون في صحبته، وأعطاني مبلغاً من المال. وأحب أن أرافقه إلى المغرب ليعرفني بصديقه الكاتب ورئيس الديوان الملكي السيد أحمد بن سوسه، الذي أحب عمي أن أهديه كتاب (الأطروحة الفنطازية). ودعانا لتناول طعام الفطور في منزله، وكان فطوراً لم أتناول مثله في حياتي.

في زيارتي بريطانيا في عام ١٩٨٤، أقمت في شقته القريبة من محطة Gloster Road. أمضيت أياماً جميلة في صحبته وصحبة زوجته أم نبيل. كانت هي صاحبة ذوق في طبخها الذي يجمع بين المطبخ الشرقي والغربي. وفي بعض الأحيان كان العم يحمل الينا بيده الهامبرغر أو fish and chips. وكان يدخل معي في أحاديث شيقة عن أيامهم.

وذات يوم قال لي: «هل تحب أن أعرفك على الشخص الذي كسر رقبة عبد الكريم قاسم؟»

قلت له: «ماذا تقصد؟»

قال: «أنتم لا تعلمون شيئاً عن قضايا السياسة».

قلت له: «أوضح، أبا نبيل».

قال: «هل تذكر شخصاً اسمه علي كمال؟»

«نعم، أذكر هذا الاسم، كان مدير شرطة في الصالحية».

«أحسن، وقد استأجر بيت عمك محمد يوماً ما».

«لا أذكر ذلك بالضبط، لعل ذلك تم عندما كنت خارج العراق».

«هذا ممكن، وإلا لكنت تذكرت النادرة عن قصته مع النشالين. فبعد أن انتقل إلى بيت عمك محمد، ربما بعد رحيل الإنكليز الذين كانت قيادة معسكرهم في بيت عمك، كانت ابنته الصغيرة واقفة أمام الباب وهي ترتدي الأساور والحجول الذهبية، كعادة الأكراد. ومرّ نشال لم يعلم أن علي كمال انتقل إلى هذا البيت، وسرق كل مجوهرات الصغيرة. وعندما علمت أمها بخبر السرقة، أخذت تندب حظها، واتصلت بزوجها لتحيطه علماً بموضوع السرقة. فماذا قال لها علي كمال: «لا تبالي، يا حبيبي، فنحن لدينا قائمة بكل النشالة في بغداد». وبعد ساعات أعيدت المجوهرات إليهم!»

ثم قال: «لكنني سأصحبك إلى بيته هنا في لندن لتناول طعام الغداء عندهم، فهو صديق مقرب جداً إليّ، ثم نستمع إلى قصته مع عبد الكريم قاسم».

كان علي كمال طاعناً في السن، وكانت زوجته أصغر منه. وقد أعدت لنا وجبة لذيذة. هؤلاء الأغنياء يعطون للطعام نكهة أخرى. إنه نفس الطعام الذي نعهده نحن، سوى أنه يبدو شيئاً آخر. لكنني كنت متلهفياً إلى حديث علي كمال. أنا هنا أمام محاكمة لثورة ١٤ تموز. محاكمة قاسية وساخرة. وأنا على أية حال لست من المتحمسين لها.

فهي كانت ثورة رعاعية وفيها الكثير من الهمجية. وهذا لأن الضباط كانوا مفجريها.

قال علي كمال: «هل تعتقدون أن هذه الثورة قام بها العراقيون؟ هراء، نحن لا نملك زمام أمورنا بأيدينا. الإنكليز هم الذين كانوا وراء قيام ثورة ١٤ تموز في العراق، انتقاماً من ولي العهد عبد الإله، ونوري السعيد، لأنهما تقربا إلى الأمريكان».

إلا أنني قلت له: «لكن هذه الثورة أنهت الوجود العسكري البريطاني في الحبانية وفي الشعبية، إلى جانب إنهاء حلف بغداد».

«ثم ماذا، قال علي كمال. هذا لذر الرماد في العيون».

أنا لم أكن أريد أن أدافع عن أي شيء. وفي واقع الحال كنت متعاطفاً مع كل رجالات العهد الملكي، الذين أذلتهم الثورة، وعاملت بعضهم بوحشية.

سألته: «هل اعتقلت؟ أستاذ علي؟»

«هه، يسألني هل اعتقلت؟ ومن لم يعتقل؟»

ثم روى حكايته مع عبد الكريم قاسم. قال: إنه أرسل من المعتقل خيراً إلى عبد الكريم قاسم بأنه يود مقابلته لأمر مهم بشأن وثائق سياسية لديه. فأرسل عبد الكريم قاسم من يصطحبه لمقابلته في مقره في وزارة الدفاع. لكنه طلب أن يسمح له بجلب الوثائق من المكان الذي يخفيها فيه، فسمح له بذلك. ورافقه إلى مقر عبد الكريم قاسم. وهناك استقبله قاسم وتحدث معه بطريقته الوعظية حول أهداف الثورة. ثم قدم له علي كمال الوثائق عن الكويت. فتلقفها عبد الكريم قاسم وأوعز بإطلاق سراحه فوراً.

فقلت له: «هل كسرت رقبة عبد الكريم قاسم بهذه الوثائق؟»

فلوح بيده مستنكراً، وقال: «أنا ما دخلني في الموضوع؟»^(١٣)

في تلك الزيارة فاتخني العم بأن أعمل معه، فقلت له إنني لا أصلح لأي عمل عدا الكتابة.

وسألني: «ما هي الكتابة؟»

قلت له: «الكتابة هي الحب».

قال: «ماذا تقصد؟»

قلت له: «هل احببت امرأة حياً كبيراً؟»

«نعم، وأهديتها أحسن هدية».

قلت له: «الكتابة هي مثل المرأة التي أحببتها حياً كبيراً. هذا عندما تكتب شيئاً جميلاً».

«وكيف تكتب شيئاً جميلاً؟»

قلت له: «هذا هو بيت القصيد. الكتابة الجميلة لا تأتيك بيسر. الكتابة الجميلة قد تأتيك بعد أن ممزق أوراقاً وأوراقاً. وأنا لم أحقق حلمي بعد، مع أنني كتبت كتاباً لا مثيل له، هو الذي أعطيت نسخة منه إلى السيد أحمد بن سوسة..... سأقول لك أيها العم، إنني التقيت هنا بامرأة جميلة جداً. وتبادلنا معها العناوين. وأنا لا أعلم هل سأنال إعجابها. فإذا نلت إعجابها وأحبتني، فسأشعر أنني قد أستطيع أن أكتب ما يحقق طموحي».

١٣. كتبت بعد ذلك بعدة سنوات في روايتي (فرس البراري) عن لعبة الكويت القدرية.

«أين هي هذه المرأة؟ هل نستطيع الوصول إليها؟ أنا مستعد لأن أقدم لك ما تشاء لأجل الوصول إليها».

ضحكت، وقلت له: «المال لا يوصلنا إليها، عمي».

«فماذا؟»

«الكتابة».

«انت تعود إلى موضوع الكتابة. هل هي أعلى من المرأة؟»

«نعم».

«فانت لديك رأسمال مجز».

«لكنني لم أتمكن منها تماماً بعد. أنا أنجزت كتابين فقط حتى الآن.

و لم أجرب كتابة الرواية بعد».

«ما هي الرواية؟»

لا أذكر بماذا أجبته. في حدود علمي أنه لم يقرأ كتاباً في عمره، مع أنه يقرأ ويكتب. وأنا كنت برماً من نفسي، لأنني لم أكد أكتب شيئاً منذ أكثر من عشر سنوات، سوى كتيب صغير عن الموسيقى الإلكترونية. فهل انتهيت؟ كنت أحمل معي كتابي الأطروحة الفنطازية والدادائية، مع هذا الكتيب الصغير. لكن ثم ماذا؟

و لم أكسر هذا الصمت الطويل إلا في عام ١٩٨٧، عندما بدأت بالكتابة إلى مجلة الكرمل، وبقيت أرفدها بالدراسات إلى أن توقفت عن الصدور. وكنت حينها منصرفاً إلى عالم اللغة. وأصبح لي باع في هذا الموضوع.

الفصل الحادي عشر

كان الصديق عبد الرزاق الحميري يدعوني لزيارته في فيينا، هو وزوجته طيبة الأسنان البلغارية. وعندما كنا عائدین إلى بیتهم مساءً من مطعم، في زيارتي الأولى، مررنا أمام دار الأوبرا التي كانت على قيد خطوات من بیتهم، شاهدت طابوراً من الناس واقفاً أمام شباك تذاكر مغلق. وكان الوقت متأخراً نسبياً في الليل. فسألت صديقي عن ذلك، فأخبرني بأن هؤلاء المنتظرين في الطابور سيبتون الليلة بكاملها، ليكونوا سباقين في شراء تذاكر صباح اليوم التالي. فدهشت، وعلى الفور التمعت في ذهني فكرة كتابة رواية حول الموضوع.

لم أكن على عجلة من أمري. فقد أصبحت الآن غارقاً في عالم الكتابة، بعد أن امتنعت عليّ سنوات. كنت أريد أن أكتب في اللغة (والأسطورة)، وفي الموسيقى، وفي عالم الفلك، وفي الحياة، وعن قراءاتي. لكنني كنت أريد أن أبدأ بكتابة عمل قصصي مرهف. عمل قصصي أشبه بأغنية، وليس عن معصوب العينين، الذي ينتظر دوره.

فما زلت أفكر في محاولات صغيرة، لكنها متأققة، مثل (الحب الأول)، و(قصة رجل مجهول)، و(رسالة من امرأة مجهولة). وإذن، فلا أكتب عملاً موسيقياً، من وحي الأوبرا في فيينا. ودونت على ورقة أسماء كل الشوارع والمحلات في الطريق من بيت صديقي عبد الرزاق إلى دار الأوبرا، وما بعد ذلك. وهذا سيكفي في فيينا، مع أنني سأجعل المنطلق هو فيينا. وبدأت تتلملم في ذهني شخصيات هذا العمل الروائي، الذي سيكون قصيراً، كتمرين. البطلة ستكون عازفة بيانو من أب فلسطيني (زميلي أسد محمد قاسم)، والأم نمساوية، طبيبة أسنان (فيها شيء من دليانا، زوجة عبد الرزاق). أما عبد الرزاق فلن يكون له حضور في هذا العمل. وهناك فكرة، ستصبح هي محور الرواية: البحث عن حلقة مفقودة. والواقع أن هناك أكثر من حلقة مفقودة، إحداها، هي محاولة الوصول إلى الملحن الأندلسي لأشعار ملك اشبيلية الفونسو الحكيم. هذه الأشعار تدعى لاس كانتيفاس دي سانتا ماريا (اغاني سانتا ماريا). والحلقة المفقودة الثانية هي البحث عن الجذور الأندلسية لأغاني قصة أو كاسان ونيكوليت القروسطية. والحلقة المفقودة الأخرى هي البحث عن مصير أغنية عن (الجواري الثلاث) خرجت من قصر هارون الرشيد، ووصلت إسبانيا والبرتغال.

أنا لم أرد أن أثقل هذه الرواية بالبحث الأكاديمي أو غير الأكاديمي. لكن تلك الحلقات المفقودة مثيرة للفضول. وعلى أية حال أنا تلقيت ثناء لفكرة الرواية القائمة على الحلقة أو الحلقات المفقودة من السيدة رشيدة تركي، زوجة فؤاد التكري، في رسالة في عشر صفحات أرسلتها إليّ بعد أن أرسلتُ المخطوطة في ١٩٩٨ إلى فؤاد التكري، بعد أن طمرتها خمس سنوات. ثم شجعني فؤاد التكري على نشرها. وأنا

لم أكن في حاجة إلى هذه التزكية. بعد أن ازدادت ثقة الآن بأن رواية (الأوبرا والكلب) رواية جميلة جداً، ولعلها أفضل عمل روائي كتبه. رسالة رشيدة تركي أكدت أيضاً: «نقاط أساسية سأكتفي بالإشارة إليها لأن البريد لن يرحمني، وربما يهمني أن تعرف أنني كتبت ٤٠ صفحة عن هذه الرواية.....».

لماذا كتبت رشيدة ٤٠ صفحة عن هذه الرواية إن لم تكن أعجبت بها. نعم، لقد أعجبت بها، وقارنتها برواية (موسيقية) لكونديرا، وأخرى تبحث عن حلقة مفقودة لايمبرتو ايكو.

وكتب عنها كامل شياع كلمة عذبة في مجلة (الوسط) جاء فيها: «يستر لي القصر النسبي للرواية (١٦٦ صفحة) تكرار قراءتها لعدة مرات خلال الشهور الماضية. وما كنت سأستسيغ ذلك لولا قدرتها على فرض نفسها عليّ كقاريء انشدت لعالمها واستساغته حبكة وتفصيل. إن التمكن من ايجاد لغة مشتركة مع القارئ (الذي هو في هذه الحالة كاتب السطور) هو برأيي المعيار الأول لجودة الرواية. أما المعيار الثاني، فيتمثل في قدرة الرواية على أن تعيش بعد قراءتها حياة ثانية في ذهن قارئها، مبقية في نفسه أثراً يتماهى معه ويغريه بارتداد مسالك جديدة لسبر عالم الإنسان في حقيقته الوهمية أو في وهمه الحقيقي. تجربة كهذه حصلت لي مع «الأوبرا والكلب». فقد انطبعت في ذاكرتي ملامح شخصيتها الرئيسية على وجه الخصوص، لدرجة حسبت أنني قابلتها وتعرفت عليها مرة في زمن ما عاد يهمني التمييز بين واقعته وخياله.....».

وتراوحت الانطباعات الأخرى، المكتوبة وغير المكتوبة، بين الإعجاب والتعالي عليها. الصديق عبد الرزاق الحميري أعرب لي عن

عدم إعجابه بالنص، واعتبره محاولة فاشلة. وثمة كاتب سوري لعله مبتدئ، كتب عنها بلغة متطاولة. وكتبت عنها فاطمة المحسن بقدر غير قليل من التعالي والأستاذية، هي التي تخلت عن كتابة القصة بعد أن شعرت أنها ليست ابنة بجدتها في هذا الباب.

والحق أننا يجب أن نعتبر كتابة الرواية مهمة صعبة، وربما مجازفة. لذلك لم أبدأ أنا بكتابة أول عمل قصصي لي إلا بعد ممارسة الكتابة بخمسين عاماً. لكنني كتبت عشر روايات بعد ذلك التأخير.

ماذا قالت فاطمة عني وعن الرواية؟ إن هذا الطموح دغدغ كل الكتاب الذين يرون في كتابة الرواية تحقيقاً لحلم كبير. بقدر تعلق الأمر بي إنني كتبت الرواية لأنني كنت أشعر أنني روائي في طبيعتي حتى لو تأخر تحقيق هذه الرغبة. وفاطمة لا يحق لها على الإطلاق أن تتعالى على النص. هي تعالت عليّ حين اعتبرتني غير مؤهل لهذه المهمة، مهمة كتابة الرواية. وتعالّت على النص، وتجاهلت قيمته وجمالياته. قالت: «ليس هناك أهمية لكل أحداث الرواية، فالحدث مجرد ديكور يوئطر الرواية، وهو في أحيان على درجة من الضعف، مثل الشخصيات المكملة في الرواية. الشخصية الوحيدة المقنعة هي البطلة..... الخ».

هذا ليس نقداً، بل رشقاً بالحجارة. سأشير هنا إلى ناقد «كبير»، هو سانت بييف في تعامله مع رواية (الأحمر والأسود)، مفخرة الأدب الفرنسي.

قال سانت بييف: «إن فشل بيل [ستندال] ينجم عن كونه جاء إلى هذا الضرب من التأليف من خلال كتاباته النقدية فقط إلى جانب عدد من الأفكار المسبقة الثابتة حول الموضوع. لم تنعم عليه الطبيعة بالموهبة

الغنية، الخصة التي تتطلبها الكتابة القصصية..... الخ، هل نضحك،
أم نبتئس لأن هذا صدر عن كاتب «كبير»؟

آه، ما أشد بؤس النقد الأعمى. فاطمة لم تجد شيئاً جميلاً في كل
الرواية. الرواية كلها شيء بائس. حتى البطلة، الفنانة، المثقفة، الرقيقة،
الملمة بمعلومات موسيقية غنية، والمهم جداً إنها كانت تذوب رقة
وحساسية وجمالاً. جردتها من أية ميزة إيجابية، مع أنها سحرت كامل
شباع. ومقابل استهانة فاطمة بكل ما جاء في الرواية، كتب الروائي
محمود سعيد تحت اسم مصطفى علي نعمان: «أعطى المؤلف حيزاً مهماً
في الرواية للمكان. كل الأمكنة حيّة، تتحرك، تتفاعل مع القارئ،
سواء كان المكان اليونان أو فيينا أو المغرب، على شاطئ البحر، في
المقهى، أمام دار الأوبرا، في السيارة. وأعطى قدراً من الانتباه إلى أبطاله
فرسمها بضربات رشيقة من فرشته، لكنها دقيقة على رغم سرعتها.
فقد كانت الشخصيات الثانوية واضحة بينة لا غموض فيها وبخاصة
الأيوين والدكتور سالم وصديقه ناصر. أما فاطمة الغرنوقية فكانت
متألقة كمعظم فتيات المغرب الشقيق والحبيب».

أنا لا أنسى أن فاطمة كاتبة بارعة جداً في كتاباتها الموضوعية
الأخرى، لاسيما في كتابها الجميلين عن تمثيلات الحداثة في الثقافة
العراقية. لكن هذا لا يشفع لها استهانتها بعمل روائي أحرق الكاتب
أعصابه في كتابته عن حب وعناية. وبهذه المناسبة إنني أناشد الناشر،
الصديق فخري كريم، أن يعيد طبع الرواية لتكون متيسرة لمن لم يقرأها.

ذكرت أن مشهد الطابور حفزني على كتابة هذا العمل. لكن الرواية
كانت أكثر من ذلك بكثير. وهي في الأساس مبنية على عقدة البحث
عن حلقة أو حلقات مفقودة، كما ذكرت. وأنا كنت أريد أن أكتب

عن امرأة. وقد ابتكرت هذه الرواية من الخيلة، لكن المشربة بلمسات من الواقع. فأصبحت امرأة من لحم ودم، أعني من مشاعر (فرضت حضورها بقوة في ذاكرة كامل شياخ). وأنا تعلقت بها أيضاً وأورثتها اهتماماتي الموسيقية والبحثية، لكنني منححتها الحرية في التصرف كأنثى، ربما بشيء من التحفظ، لأن البحث كان هاجسها الأول.

كنت في تلك الأيام غارقاً حتى الهامة في موسيقى القرون الوسطى، وتتبع البدايات في الأشكال الموسيقية (الغربية)، كالمتالية، والسوناتا، الخ. وتوقفت طويلاً عند (النوبة) في الموسيقى العربية. كما كنت أتسلى كثيراً في قراءة أخبار الحلقات المفقودة في الموسيقى. مثل من هو الملحن العربي المجهول لاشعار سانتا ماريا لألفونسو الحكيم، وما هي قصة (او كاسان ونيكوليت) ذات الأصل البيزنطي - العربي؟ وأين حل الدهر بالأغنية التي خرجت من قصر هارون الرشيد، وتلاقفها الناس؟ والأهم من هذا هل ترجع أصول المتالية في الموسيقى الغربية إلى النوبة؟

وفي تلك الأيام بالذات بدأت أفكر في كتابة رواية، بعد أن نشأت لي علاقة مع أكثر من امرأة، وهذا يعني أنني أصبحت لدي تجربة مع النساء. وفي وسعي أن أكتب عن امرأة رقيقة، وفنانة، موسيقية، تعزف على البيانو.

فمن هم أبطال وبطلات رواية الأوبرا والكلب؟ ياسمين، البطلة الرئيسية، التي هي في إطار أبنه زميلي أسد محمد قاسم، لكنني رحلتها إلى امرأة أخرى أعرفها جيداً وأستطيع أن أجعل منها البطلة المناسبة للعمل. بما تتمتع به من مواصفات ومؤهلات. وأمها طيبة الأسنان النمساوية، التي استعرتها من زوجة عبد الرزاق الحميري. وأبوها أسد محمد قاسم الشاعر الفلسطيني صاحب المغامرات العجيبة مع النساء

(لقد صدرت الرواية قبل وفاته، وقرأها فسرّ بها). أما شخصية العازف سالم صبري فهو منير الله ويردي العازف على آلة الكلارينيت. وأما ناصر ابراهيم فهو الفنان خالد الجادر. وأما فاطمة المغربية، فهي الآنسة (ل. و). التي عرفني إليها خالد الجادر. وأما هيرمان، زوج ياسمين، فشخصية مختلقة بالكامل.

والحق أن بطلي الرواية الأساسيين هما ياسمين، والموسيقى. فالموسيقى هي اللحن الرئيسي للأوبرا والكلب، لكن دخولها في النص لم يكن شيئاً مقحماً بالمرّة، بل كان عنصراً حيويّاً جداً وأساسياً.

تأخرت في كتابة هذه الرواية، على صغرهما، أكثر من أية رواية أخرى، ومن أي عمل أدبي لي، لأنني كنت «مبتدئاً» في كتابة الرواية، وكنت أريد أن تكون المحاولة في المستوى اللائق بي. كنت أريد أن يكون موضوع الرواية مهماً ومشوقاً، بالرغم من أنها كانت «رواية السرد الصعب»، كما قال مصطفى علي نعمان. وكنت أريد أن أجعل البطلة الرئيسية نابضة بالحياة. وشخصية لا تُنسى، ليس بالضرورة في مواصفات متميزة، أو خارقة، كشخصية ماتيلد، بطلة (الأحمر والأسود)، بل شخصية تدخل إلى القلب، حتى في ضعفها. وأنا أعتقد أن ياسمين كانت كذلك. ولم يكن مهماً - في هذا العمل - أن يكون أي رجل، أو بطل، متألّفاً مثلها، لأن هذه الرواية هي رواية ياسمين. فهناك ثلاثة أبطال لهم علاقة بالبطلة، ويسهمون في بناء هيكل الرواية، لكنني أشعر بانحياز أكثر إلى شخصية زوجها هيرمان (الذي انفصلت عنه)، ربما لأنه كان شخصية لا تختلف عنها كثيراً في اهتماماته وفي مزاجيته. ثم إنه سدّ في الرواية ثغرة الحب، التي كانت ستحسب على الرواية لو غابت. رواية بطلتها فتاة وبلا حب؟ واعترف أيضاً بأن

الشخصية المثيرة للفضول في هذه الرواية، كانت شخصية الفتاة المغربية فاطمة، التي كانت تتصرف على نحو غير مألوف تماماً، لكن بما يترك انطباعاً جميلاً لدى القارئ. واعترف بأنني لم أختلق هذه الشخصية من عندي، بل هي فتاة حقيقية عرّفتني إليها خالد الجادر عندما كان في المغرب. واعترف بأن «فاطمة» كانت أعرب امرأة تعرفت إليها في حياتي. ويؤسفني أن الصلة بها انقطعت بعد زيارتي المغرب (الثالثة). ولم تحصل بينها وبينني علاقة عاطفية. وهي كانت، ربما كما أشرت، من أقارب العائلة المالكة في المغرب، وأخوها كان يشغل مركزاً مهماً في الجهاز الأمني في المغرب، وكل ما جاء عنها في الرواية كان شيئاً حقيقياً.

بقي أن أعترف بأن ياسمين كانت شخصية مختلقة في كل الرواية، عدا حضورها في كريت. في كريت كانت شخصية من لحم ودم، شخصية حقيقية. أما قبل ذلك، وبعد ذلك، فقد كانت بنت المخيلة. لكنها بنت مخيلة من لحم ودم، إذا جاز لي أن أقول. ذلك لأنني أحببت ياسمين وهي شخصية حقيقية ومختلقة، وبقيت في عيني شخصية حقيقية في كافة تجلياتها.

الحلقات المفقودة في رواية (الأوبرا والكلب) شغلت بالي كثيراً، ولأجل ذلك سافرت إلى المغرب مرتين نيابة عن البطلة في مهمة البحث عن هذه الحلقات المفقودة. ولعل أكثرها احتمالاً للعثور عليها هي محاولة الوصول إلى اللحن الموازي للحن (أو كاسان ونيكوليت) البيزنطي العربي، الذي تحدث عنه هنري جورج فارمر، المستشرق البريطاني ذو الاهتمامات الموسيقية الإسلامية. وأنا كنت أأمل أن أعثر على أثر له في المغرب. ولعلي أيضاً أستطيع العثور على أثر للأغنية التي خرجت من

قصر هارون الرشيد. ولن أفقد الأمل في محاولة معرفة ملحن أو ملحنين
أشعار سانتا ماريا لألفونسو الحكيم. آه، إنني أبحث عن أشباح، لكن
هذا سيدخل في سياق القصة. كنت سعيداً بعملتي لأنه سيصبح فضولي
المتلهف، وسيعالج عقدة الرواية. كانت حياتي في تلك الأيام مرتبطة
ومرتنهنة بتلك الحلقات المفقودة. لكن نقطة الضعف في كل هذه
المحاولة هو أنني لم أكن موسيقياً. ولعلها كانت وستكون نقطة ضعف
قاتلة. فكيف أستطيع مطاردة لحن أو ألحان، إن لم تكن علاقتي بالموسيقى
عملية؟ هذا يجعلني أندم على عدم استمرارتي على العزف على البيانو.
وأنا كتبت رواية عن أجمل موضوع موسيقي دون أن أكون قادراً على
متابعته، ومتأهلاً له. صحيح أنني أستطعت أن أفهمه حقاً روائياً، لكنه
لم يقدم لي قناعة كافية بالذي توصلت إليه. فأنا لم أتوصل إلى لحن
(او كاسان ونيكوليت)، ولم أستطع قراءة لحن المقطوعة الموسيقية عن
الآنسات الثلاث، اللواتي يذكرننا تماماً بأنسات هارون الرشيد. لهذا
لم أذكر هذا الموضوع في الرواية، سوى في إشارة وردت عنه في رسالة
المستشرق الشاب ميغيل. وأرى أن أتطرق هنا إلى هذا الموضوع الذي
ابتسرتة في الرواية بسبب عدم إقبالها بالاهتمامات الموسيقية.

كنت قدر قرأت للمستشرق الإسباني خوليان ريبيرا ان هناك لحناً من
القرون الوسطى كان العرب الأندلسيون والمسيحيون الإسبان يتغنون
به على حدٍ سواء، وكان شائعاً في شبه جزيرة إيبيريا كلها. وقد نشرت
الكاتبة كارولينا ميخالس دي فاسكونثيلوس كراساً قيماً تذكر فيه أدلة
على انتشاره وأدائه على المسرح وفي المحافل العامة في عهد غيل فيشته،
وقبل ذلك. وفيما بعد كان المسيحيون الإسبان يرددونه كأغنية للأطفال.

ومن كلمات هذه الأغنية:

ويرى خوليان ريبيرا أن calvi هي «قلبي» العربية، وهي كلمة شائعة في الشعر في كل الأزمان. أما orabi فلعل المقصود بها، كما يقول، (عريب) الشاعرة والمغنية العربية التي كانت لها قصيدة مغناة مطلعها «ماذا بقلبي».

على رغم أن هذا رأي قد يعوزه اليقين القاطع، إلا أنني رجعت إلى كتاب (الأغاني)، ولعلي بحثت فيه تحت اسم (عريب)، أو تحت أي مادة أخرى، فقرأت أن هارون الرشيد قال، وقد قيل: إن العباس بن الأحنف قالها على لسانه:

ملك الثلاث الآنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
ما لي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين، أعز من سلطاني
غته عريب: خفيف ثقيل الأول بالوسطى.

وذكر ريبيرا من بين أشعار الكانسو نيرو هذه الأبيات:

«من تودين أن ترافقي معك / يا إلهي / آه، فاطمة، فاطمة / تلك
الجارية الأندلسية الحسنة / حبها يمزق نياط قلبي / أنا متيم في حب
ثلاث جوار أندلسيات / عائشة، وفاطمة، ومريم..... الخ».

وهذا يذكرنا بالآنسات الثلاث في الأبيات التي تنسب إلى هارون الرشيد. لكن فلتتابع كلام خوليان ريبيرا: «ولحنها عذب جداً، وهو على النحو الآتي:

مي لا صول مي دوري مي

ري دو سي لا، لا سي دوري مي (ري مي)

ويبدأ المقطع الشعري (أعلاه) بأول هذين اللحنين، ويعاد ثلاث مرات ثم ينتهي باللحن الثاني، أي على النحو الآتي: «أ أ أ ي». وبهذا يتطابق مع الزجل العربي. وهو إيقاع مشابه لما كانت عريب تستعمله. كما إن مدى الأصوات في هذا اللحن لا يتجاوز الأوكتاف. وهو على غرار المؤلفات الكلاسيكية عند الموصلي».

وهذه المقطوعة عبارة عن منمنمة موسيقية، معبرة، وآسرة، وكاملة. ويقول ريبيرا: إن هذه المواصفات تتفق تماماً مع معلوماتنا عن المدرسة الإسلامية في إسبانيا، وبالتالي إن هذه الأغنية يمكن اعتبارها شهادة على عبقرية الفنان الذي أبدعها. ولم يقف أمر هذا اللحن، لحن «الجواري الثلاث» عند هذا الحد، بل تعداه إلى الصعيد العالمي، فقد نسج عليه مندلسون لحناً مهنماً في الحركة البطيئة من سمفونيته الرابعة، من دون تغيير أساسي على الصيغة الأولى. كما استخدمه ميير بير في أبرز مقاطع أوبرا «الأفريقية».

وكتبت رسالة إلى صديق مستعرب شاب من إسبانيا، ألتمس منه أن يفيدني حول هذا الموضوع. فأجابني برسالة جاء فيها:

«وتابعت موضوع الجاريات أو الآنسات الثلاث، على الصعيدين الموسيقي والفلسفي، لكن محاولاتي الموسيقية لم تسفر، في نطاق معرفتي الموسيقية المتواضعة جداً، عما يمكن أن أضيفه إلى معلوماتك، سوى أن الأغنية لم تنقرض، بل عاشت إلى أيامنا هذه. وتجدياً كراساً

حول صياغة لوركا الهارمونية لهذه الأغنية. أما الدلالة الفلسفية للموضوع فلعلها تذكرنا بالتقسيمات الثلاثية في التراث الهندي - الأوروبي، الذي تحدث عند دوموزيل بإفاضة».

ثم يخلص صديقي المستعرب إلى القول: «..... من كل ما سبق لا أراني متأكداً من وجود صلة مباشرة بين آنسات هارون الرشيد وآنسات الأغاني القروسطية الأسبانية».

قد لا أختلف معه، لكنني رأيت أن أعود إلى كتاب الأغاني (لأبي الفرج) حول آنسات هارون الرشيد. نقرأ بعد الخبر الذي ورد ذكره عنهن: «المهدي بن سابق (قال): حججت مع الرشيد آخر حجته، فكان الناس يتناشدون له في جواريه:

«ثلاث قد حللن حمى فؤادي / ويعطين الرغائب في ودادي /
نظمت قلوبهن بخيط قلبي / فهن قرابتي حتى التنادي / فمن يك حل
عن قلب محلاً / فهن من النواظر والسواد».

وُترجمت لي قصائد فدريكو غارسيا لوركا. وكانت من بينها قصيدة بعنوان (بنات مدينة خاين الأندلسيات). وتحت العنوان «أغنية فولكلورية من القرن الخامس عشر»، جاء فيها:

«ثلاث أندلسيات وقعت في غرامهن / من خاين / عائشة وفاطمة
ومريم / ثلاث أندلسيات مثيرات / ذهبن لالتقاط الزيتون / في خاين /
عائشة وفاطمة ومريم..... الخ».

أنا لا أريد أن أتوقف عند أهمية العدد ٣ في التراث الهندي -

الأوروبي، أو ربما حتى في التراث الإسلامي. لكنني ألاحظ أن الآنسات الثلاث وردن أيضاً في أغاني ألفونسو الحكيم (كانتيغاس). وهذا يدعوني إلى الاعتقاد بأن أغنية هارون الرشيد عن الآنسات الثلاث عاشت في أغاني ألفونسو الحكيم، وفي قصيدة لوركا. فينبغي أن لا ننسى أن ألفونسو الحكيم ألف مئة أغنية أول الأمر، على غرار المئة أغنية التي اختيرت لهارون الرشيد. لكن باسمين كانت تفكر في أشياء أخرى.

أذكر أن الأغنية التي خرجت من قصر هارون الرشيد استقر بها المقام في قرية برتغالية. ولم يهدأ لي بال إلا بعد أن اهتمت إلى مصدر هذا الخبر، وهو كتابي (الموسيقى بين الشرق والغرب)، الصادر عن دار الجمل ١٩٩٧. وسأنقل هنا ما جاء فيه لأن فيه تفاصيل أكثر وأغنى:

ذكر أسحاق الموصلي أن هارون الرشيد أرسل في طلبه ذات ليلة، وقد مضى شطر الليل، أي نصفه، فحضر. وطلب منه الرشيد أن يغنيه بحق جارية كانت ماثلة بين يديه، فغناه هذين البيتين:

جئن من الروم وقالقلا يرفلن في المرط ولين الملا

مقرطقات بصنوف الحلبي حبذا البيض وتلك الخلا

فاستحسنه الرشيد، وطرب له. ثم استوذن لوزيره الفضل بن الربيع، فكان له، فلما دخل، قال له الرشيد: «ما وراءك في هذا الوقت؟». قال: «خير يا أمير المؤمنين، ولكن جرى لي الساعة سبب لم يجز لي كتمانها».

حين سأله الرشيد عن نجلية الأمر، روى له الفضل قصة ظريفة وقعت له مع جوارٍ ثلاث من جواريه، هن: سحر، وضيا، وحنث. فاستظرف

الرشيد قصتهن (التي تمنعنا أسباب من ذكرها)، وأمر بحملهن إلى قصره، فجيء بهن، وكنّ آية في الجمال، وعلى حظ كبير من الذكاء، وولن عنده حظوة كبيرة، إلى حد أنه قال فيهن، وقيل إن العباس بن الأحنف قالها عن لسانه:

ملك الثلاث الأنسات عناني... الخ

وغنتها عريب المأمونية بإيقاع خفيف ثقيل الأول بالوسطى. ثم انتقلت هذا الأغنية من فم إلى فم في جميع أنحاء بغداد. وشاعت أغنية هارون الرشيد في العالم العربي كله. فقد أثر عن أحدهم أنه قال: حججت مع الرشيد آخر حجة، فكان الناس يتناشدون له في جواربه: ثلاث قد حللن حمى فؤادي... الخ.

وذكرت القصيدة الأصلية (ملك الثلاث الأنسات) نفسها مع تحريف طفيف في ألف ليلة وليلة، منسوبة هذه المرة إلى خليفة آخر، هو المتوكل.

ثم انتقلت إلى إسبانيا. وقلدها شعراء أندلسيون. كما نظم الخليفة الأموي الأندلسي، المستعين بالله، قصيدة على غرارها في محاولة منه لمضاهاة هارون الرشيد. وهي قصيدة طويلة يذهب الخليفة الأندلسي فيها إلى أن من شأن الحب أن يقهر حتى الملوك. واستشهد بها الفيلسوف الصوفي محيي الدين بن عربي في أكثر من موضع، في كتابه (الفتوحات المكية)، في سياق حديثه عن الدوافع النفسية في الحب الصوفي. وكتب ابن قزمان قصيدة زجلية يذكر فيها الجاريات الثلاث بالأسماء الآتية: عائشة، وزهرة، ومريم.

والظاهر أن هذه الصيغ انتقلت إلى أوروبا بنفَس صوفي أو رمزي.
فقد كتب دانتى أغنية من وحي أبيات هارون الرشيد، جاء فيها:

ثلاث نساء راودن قلبي

كباقة من الزهور يتربع في قلبها الحب

الذي هو سيد حياتي

بالغات الجمال، حقيقات

أمرهن مطاع

إنني أقول ما في القلب

ولا يكاد الكلام يسعفني

وهناك مجموعة من الأغاني الأندلسية تدعى «كانسيونيرو دي بلاسيو»، يرجع تأريخها إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ألف الكثير من نصوصها الشعرية على طريقة الزجل العربية، على غرار أزجال ابن قزمان الأندلسي. ولاحظ المستشرق خوليان ريبيرا (١٨٥٨ - ١٩٣٤) أن ما يعادل ٨٥ في المئة من اغاني المجموعة كتب بهذه الطريقة الزجلية، من بينها الأغنيتان رقم ١٧، ورقم ١٨، وهما تذكرانا بأغنية هارون الرشيد في موضوعها. تقول هاتان الأغنيتان:

أنا متيم في حب ثلاث عربيات

من حيان:

عائشة، وفاطمة، ومريم

ثلاث عربيات فانات

كن في طريقهن لجني الزيتون

فوجدناها مجتناة

في حَيَّان:

عائشة، وفاطمة، ومريم

وجدناها مجتناة

فعدن مغشيات عليهن

ذابلات الألوان

في حَيَّان:

عائشة، وفاطمة، ومريم

ثلاث عربيات حسناوات

كن في طريقهن لجني التفاح

فوجدنه مجتني

في حَيَّان:

عائشة، وفاطمة، ومريم

قلت لهن: من أنتن أيتها السيدات

يا من سلبتن حياتي؟

نحن مسيحيات بعد أن كنا عربيات

في حَيَّان:

عائشة، وفاطمة، ومريم

أما آخر صيغة لهذه الأغنية القديمة، في سياق جولتها في شبه جزيرة أيريرا، فقد عثرت عليها كارولينا ميكائيلس في حالة رثة إلى حدٍّ ما، كما يقول خوليان ريسيرا، وهي اليوم، ربما تلفظ أنفاسها في بلدة Parada

بالبرتغال. لكن الجواربي الثلاث كلهن مسيحيات وكلهن تحت اسم ماريانا. وهذه هي آخر صيغة لأغنية ولدت في بغداد قبل أكثر من ألف عام، وانتشرت في العالم الإسلامي، ثم انتقلت إلى إسبانيا..... ولا بد أنها على نفس إيقاع أغنية عريب المأمونية. على أن اللحن العربي كان يودى من قبل صوت واحد، بينما تغنى القصيدة الإسبانية على لسان جوقة.

ولا أريد أن أكرر بقية المعلومات عن مصير أغنية هارون الرشيد، التي تابع لحنها لوركا، من بعد مندلسون، وميير بير. وأنا كتبت أيضاً إلى مستعربة إسبانية أخرى من قرطبة، أستفسر منها أيضاً عن مصير هذه الأغنية. ومضى أكثر من عام ولم يصلني منها جواب. كان ذلك في تسعينات القرن الماضي. ثم علمت أن هذه المستعربة كانت في رحلة طويلة خارج إسبانيا.

وعلى أية حال كانت تلك محاولة مني خارج نطاق الرواية (الأوبرا والكلب). فياسمين كان يهمها أن تتوصل إلى هوية ملحن أو ملحني اغاني ألفونسو الحكيم. كما كان يهمها أن تعرف إن كانت المتتالية في شكلها المؤلف من أربع حركات كانت متأثرة بالنوبة العربية. وقد ذكرت ذلك بشيء من التفصيل في الرواية.

الفصل الثاني عشر

الوصول إلح بابك الجديدة

أنا الآن في بودابست، في منتصف التسعينات. وكانت قبل ذلك قد حدثت تغيرات كبيرة في الغربية وفي أرض الوطن. في المجر، حيث أقيم، تم التخلي عن النظام الاشتراكي، وتبني النظام الرأسمالي. وفي العراق فرض الحصار الاقتصادي منذ ١٩٩١. وأنا فقدت المعونة التي كنت استلمها من منظمة التحرير الفلسطينية. وبقيت أحمل دفتر إقامة لمدة عشر سنوات أو أكثر، لا أذكر. لكن ما جدواها بدون عمل. فهل سأخضع إلى حالة الأوكسودوس العراقية إلى بلد يمنح لجوءاً سياسياً أو إنسانياً؟ انها حالة مزرية لم تستثن أحداً، أصبح فيها جميع العراقيين، على اختلاف طبقاتهم ومؤهلاتهم، سواسية في شردهم. صرنا نعيش عصر ما قبل المسيح، هجرة جماعية بالمفرق، أي فرادى، إلى جميع بلدان العالم، بما في ذلك أبعد اصقاع الأرض. السؤال لماذا؟ لم يعد له صدى. وأنا ماذا أفعل بعد أن هجرت منزلي وعملي وتركت عائلتي في

العراق منذ خمسة عشر عاماً؟ وماذا استجديني مؤهلاتي الكتابية؟ لكنني كنت ما ازال اتردد إلى مقر منظمة التحرير الفلسطينية، الجديد، الأكثر تواضعاً من السابق، بحكم تقلص أو انعدام المساعدة المالية التي كانت تتلقاها المنظمة من الحكومة المجرية، على ما أحسب. وذات يوم تلقيت نداء تلفونياً - في مقر المنظمة - من أدونيس. أنا لم أكن منسياً بالمرّة، اذن. كان في زيارة لشقيقته وزوجها سفير سوريا بالمجر. اخبرني بأنني مدعو على غداء في مقر السفارة السورية في بودابست.

ذهبت إلى مقر السفارة السورية في سيارة أجرة، وتلقاني أول الأمر كلبان رهيبان من صنف الوولف أنزلا الرعب في أوصالي. لكن الشرطيين اللذين كانا في حراسة السفارة كانا في عوني. ولا أذكر من جاء إلى استقبالي، السفير أم أدونيس. المهم أنني اصططحت إلى غرفة الاستقبال بكل ترحاب. كنت وحدي مدعوأ، وكان في استقبالي أدونيس، وشقيقته الحسنة التي لا اذكر اسمها، وزوجها السفير، الذي كان جم اللطف والتهذيب. شعرت على الفور أنني في صحبة أحبّاء، مع أنني التقي بأدونيس للمرة الثانية فقط. فأدونيس يشعرك بالحميمية من أول لقاء. وفي لقائي الأول معه زرته في ١٩٧٠ في الجبل في لبنان في صحبة بلند الحيدري عندما زرت بيروت من أجل طبع كتابي (الأطروحة الفنطازية)، و (الدادائية). وكان رجلاً وديعاً جداً ومحباً. وشعرت بالألفة رأساً أيضاً مع زوجته السيدة خالدة سعيد. كان وسيماً وأميل إلى القصر. وأنت تحس في صحبته بتواضعه الجم. تحدثت عن هذا اللقاء الأول في مناسبة سابقة. لم نتحدث عن الشعر، لأن أدونيس يشغلك في مسائل أخرى. وفي لقائنا في بودابست تحدثنا عن أشياء كثيرة، أذكر من بينها إعجابه الجم بشخصية سكينة بنت الحسين. ثم

قال لي: «لماذا، يا أخي، أنت ظامر نفسك في بودابست؟ أنت مكانك في بريطانيا....».

كنت أعلم أن بودابست لم تعد تصلح لي. وعندما ذكّرني أدونيس بذلك، شعرت بضرورة الهجرة إلى بريطانيا. لكن الوصول إلى بريطانيا في التسعينات، وحتى اليوم، لم يكن ميسوراً جداً لمن يحمل جواز سفر عراقياً. وأنا لست ممن يفضلون الوصول إلى أية دولة عن طريق التزوير أو التهريب. وأنا كنت قد زرت بريطانيا في السابق عدة مرات، لكن هذا لا يشفع الآن. فما العمل، مع أن من هب ودب استطاع الوصول إلى بريطانيا بوسائل مختلفة، ومُنح اللجوء السياسي أو الإنساني.

وتمسعى من اصدقاء وُجّهت إليّ دعوة من ديوان الكوفة في لندن لإلقاء كلمة عن العراق القديم. لكن هذه الدعوة لا تضمن الحصول على تأشيرة دخول بريطانية ضمناً أكيداً. فما العمل؟ علمت أنني أستطيع الحصول على تأشيرة دخول بريطانية إذا كان جوازي يحتوي على تأشيرة دخول حديثة من أي بلد أوروبي غربي آخر. فاتصلت بأصدقاء مقيمين في بلجيكا، والتمست منهم توجيه دعوة إليّ لزيارة بلجيكا، ففعلوا. ثم قدمت الطلب إلى السفارة البلجيكية، فحصلت على التأشيرة بعد أن تأخر الجواب من الوطن الأم. بعد ذلك قدمت على تأشيرة الدخول البريطانية. فطلب نائب القنصل (في بودابست) مواجتهته. وكان شاباً لطيفاً، طرح عليّ عدداً من الأسئلة، وتجاذب الحديث معي بعد أن علم أنني كاتب. وفي الأخير سألني إن كنت أنوي البقاء في بريطانيا. وكان هذا سؤالاً محرجاً بالنسبة لي، لأنني لا أعرف الكذب. لكنني لم أر محيداً عن الكذب. ومُنحت تأشيرة الدخول البريطانية. ووصلت لندن في ٩ أيار، ١٩٩٥.... وإذن، أنا منذ هذا اليوم سأحل ضيفاً على عاصمة

الإمبراطورية البريطانية، التي استعمرت بلدي يوماً ما، ونهبت ثروته النفطية، وسأصبح مواطناً بريطانياً بفضل النظام السياسي المتقدم الذي يخولني هذا الحق بعد المكوث خمس سنوات في أراضيه. ولم أتأخر في الحصول على اللجوء السياسي لأن تاريخ حياتي حافل بالمضايقات السياسية، الموجهة في بعض أشكالها.

قال لي المحامي: «لا تبخل في ذكر المزيد من الدم إذا كنت تعرضت إلى التعذيب؛ فالموظفون المعنيون في وزارة الداخلية البريطانية يهرهم الحديث عن الدم». ومُنحت حق اللجوء السياسي مع ضمان معيشتي وسكني. إنها المدينة الفاضلة، اذن!

في ١٩٩٥/٥/٢٥ أقيمت كلمتي (ملامح من تاريخ العراق القديم)، بعد أن قدمني بكلمة مسهية الصديق غانم حمدون. كانت القاعة مكتظة حتى وقوفاً. كان إهداء الكلمة إلى (أنخدوانا) ابنة سارغون الأكدي وأقدم شخصية أدبية عرفت في التاريخ، من خلال التراتيل التي ألقتها ابتهاً بالإلهة (إنانا). ثم استهللت كلمتي بالأبيات الشعرية الآتية:

لما وردنا القادسية حيث مجتمع الرفاق

وشممت من أرض الحجاز نسيم أنفاس العراق

أيقنت لي ولمن أحب بجمع شمل واتفاق

فتملئ بعض الحاضرين لأن كلمة «القادسية» أصبحت مقترنة بأسم صدام حسين لتكرارها في دعاية الحرب العراقية الإيرانية. لكنهم سرعان ما نسوا كلمة «القادسية» في سياق كلمتي الطويلة التي أخذت تشير فضولهم. فقد تحدثت عن العراق من العصر الحجري القديم إلى سقوط بابل. وطعمت الكلمة باستشهادات لغوية، ضمن السياق.

واستطردت في ذكر أخبار مشوقة من تاريخ العراق. تحدثت، مثلاً، عن هواية سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق. م.)، الذي يحدثنا بنفسه عن مأثرة صب النحاس في الأعمال النحتية الضخمة، في قوله: «أنا سنحاريب، بالذكاء الحاد الذي وهبني إياه الإله إيا، وبتجاربي الخاصة، تمكنت من صب الأسود البرونزية الضخمة ذوات الأرجل المفتوحة عند الركب، والتي لم يسبق للملك قبلي أن قام بها.... وبنيت قالباً ضخماً من الطين لاثني عشر أسداً ضخماً مع اثني عشر ثوراً ضخماً فوق دعائم ضخمة وجذوع النخيل.... وصببت البرونز فيها كما تصب قطع نصف الشاقل». وللإيضاح، كانت عملية الصب مستخدمة منذ بداية الألف الثالث ق. م.

اهتمامات آشور بانبيال: يقول آشور بانبيال: «فن المعلم آداباً تعلمت: الكنز الخفي لكل فنون المعرفة الكتابية؛ علامات السماء والأرض.... ودرست النجوم على يد الأساتيد المتضلعين في فن التعاويذ الزيتية؛ وقمت بحل مسائل القسمة والضرب المعقدة؛ وقرأت الألواح الفنية السومرية والألواح الأكديّة الغامضة، التي يصعب إتقانها؛ واستمتعت بقرءة الأحجار من عهد ما قبل الطوفان».

وفي رسالة إلى المدعو شادونا يقول: «أمر من الملك إلى شادونا: صحتي جيدة، ليكن قلبك مفعماً بالأمل، عندما تصلك رسالتي، خذ معك شوما، ابن شوموكينا، وبليطير، أخاه، وأبلو ابن أركاتيلاني، وأمثال هؤلاء الناس من بورسييا كما تعلم، وكل الألواح التي في منازلهم، وكل الألواح المحفوظة في معبد أزيدا ابحت عنها، واجمع الألواح لأجل التعاويذ الملكية، والواح المترنمات في أيام نيسان، وتعويذة الكهنة المغنين في شهر تشرينو، وألواح التي تشتمل على سلسلة التعازيم في بيت

سلع، وتعويدة الكهنة المغنين لحساب الأيام، والتعاويد الأربعة لرأس
 السرير الملكي، وكل ما هو ضروري للقصر، وكل ما هو موجود،
 والألواح النادرة التي تعثر عليها في الطريق، التي لا يوجد لها مثيل
 في آشور، ابحت عنها واجلبها إليّ. وقد كتبت إلى شاتونو وموظفي
 الشاكو أيضاً. ضع هذه الألواح في صندوقك المتين. لن يمتنع أحد عن
 تقديم الألواح إليك. وإذا عثرت على لوح تميمة لم أذكرها لك، وإذا
 رأيت أنها تصلح لقصري، ابحت عنها واجلبها إليّ».

امتحان الملك:

في عيد رأس السنة الجديدة يُحتفل في الأحد عشر يوماً الأولى
 من نيسان البابلي (في حسابنا يقع بين آذار ونيسان) حيث يقع فيه
 الاعتدال الربيعي. وفي اليوم الرابع من أيام هذا العيد تمثل ملحمة
 الخليقة على غرار التمثيلات الأوروبية الدينية في القرون الوسطى.
 وفي اليوم الخامس يظهر الملك، ولا يُسمح له بالدخول إلا بعد أن
 ينزع شارة السلطان. وينبغي أن يتعرض إلى الإذلال، متيحاً لكاهن
 الششكالو أن يضربه بكف قوي على خده. وبعد ذلك يسحبه
 الكاهن من أذنه، ويجبره على الركوع إلى الأرض. ويتعين على الملك
 أن ينطق بالكلمات الآتية أمام الإله مردوك: «لم أرتكب خطيئة، يا
 إله البلدان، ولم أشكك في ألوهيتك. لم أدمر بابل. لم أتسبب في
 سقوطها.... معبد إيساجيلا لم أهمل طقوسه. لم أمطر حدود
 المواطنين بالصفعات.... لم أذلهم، كنت شديد الغيرة على بابل؛ لم
 أدمر أسوارها...».

بعد ذلك يطمّن الكاهن الملك بقوله:

«لا تخف.... الإله بعل سيصغي إلى صلاتك. سيباركك إلى الأبد.
سيقضي على عدوك، وعلى خصمك».

ثم تعادشارة السلطان إلى الملك. ويُصفع مرة أخرى. يصفعه الكاهن
صفعة قوية على خده. فإذا انثالت الدموع من عيني الملك فمعنى ذلك
أن بعلأ استجاب. وأما إذا لم تنهمر الدموع من عيني الملك، فإن بعلأ
غاضب، وسيظهر العدو ليقضي على ملكه.

كان جمهور المستمعين صنفين، مثقفين ومتعلمين جاؤوا ليروني
ويسمعوني؛ وآخرين كانوا ينشدون في مخلصاً لهم من محتهم العراقية.
وكان أقصى ما أستطيع أن أقدمه لهؤلاء هو إشارتي إلى تواضع ملك بابل
وتلقيه الصفعات من أجل أن يكون في خدمة بابل.

وكانت كلمتي هذه مدخلاً إلى حياتي الجديدة في أرض بابل الجديدة.

أكتب هذا الفصل بعد عشرين عاماً بالضبط من وصولي إلى بابل
الجديدة. كان غانم حمدون في انتظاري بالمطار. وأنا كنت أسحب
حقائبي بصعوبة. هرع إليّ ليساعدني، وهو مندهش لعدم تأخري عند
مدققي الجواز. كان استقبالي قد تم بأسرع ما يمكن من قبل الموظفة.

وبقيت ضيفاً عند غانم أربعة أشهر إلى أن عثرت على شقة ملائمة
جداً لي، سوى أنها تقع في الطابق الأرضي وليس الأول، كما كنت
أفضل. لكنني صرت أفضلها الآن بعد أن تقدم بي العمر ولم أكن أعلم
يومذاك أنني سأقضي بقية عمري في هذه الشقة.

كان أول شيء قمت به هو اقتناء جهاز موسيقى يوفي بكل الأغراض. فأنا الآن أريد أن أنتمي إلى الموسيقى. أريد أن أقرأ كل شيء عن الموسيقى، وأسمع كل الموسيقى (إن أمكن!)، وأكتب عن الموسيقى وتجربتي معها، وألتحف بالموسيقى. ولم أفكر حتى في الرواية، التي بقيت طيلة عمري أحاول الانتماء إليها.

ورأيت أن أوطد علاقتي براديو BBC3. وبحكم كوني أصبحت متقاعداً عن العمل منذ عام، فقد تكفلت الدولة البريطانية بأمر إعالتي وتوفير السكن لي. وهذا أتاح لي أن أكون متفرغاً، للموسيقى في الوقت الحالي. وهو تفرغ للكتابة أيضاً، وستكون في غالبها عن الموسيقى. وكانت قد تجمعت لدي مادة باتت تصلح لطبعها في كتاب، نشر بعنوان (الموسيقى بين الشرق والغرب)، صدر عن دار الجمل في ١٩٩٧. وكان هذا الكتاب مجموعة كتابات جميلة عن الموسيقى. لكنه لم يتحدث عن علاقتي الحميمة بالموسيقى، ولم يجب عن أسئلة ظلت تدور في رأسي عن الموسيقى، مثل: فلسفة الموسيقى؛ وفلسفة كل آلة من آلات الموسيقى؛ والموسيقا والميتافيزيقيا؛ وفلسفة التوافق والتنافر في الموسيقى؛ ومفهوم الموسيقى الرفيعة. وكنت أريد أن أكون على بينة من مستقبل الموسيقى، فأنا كنت مشغول البال منذ سنوات بالموسيقى الإلكترونية.

أنا أريد أن أتحدث عن مليون شيء، لكنني لم أعد أمتلك نفساً طويلاً. أصبح نفسي كنفس مصاب بالربو، أو بالسل. لكنني أريد أن أتحدث عن محنة الموسيقى الحديثة، أو مأساتها؛ وعن فلسفة التنافر في الموسيقى؛ وعن هاجس الأداء في موسيقى البيانو؛ وعن الميتافيزيقيا في الموسيقى.... وأنتقل بعد ذلك إلى حكايتي مع الفيزياء، قبل أن أنتقل إلى الرواية.

لكن ما هو مستقبل الموسيقى؟ وكان هذا السؤال يسري على الفنون

التشكيلية أيضاً؛ وربما الأدب. فالقرن العشرون كان قرن التحرر والانفلات، وربما الجنون. هناك حتى الشخصوس إلى أمام. لا مراوحة، ولا اجترار للماضي. دائماً إلى الأمام. وفي الموسيقى أصبح فاغنز نقطة الوثوب، أو خط اللارجعة. إن اوبرا (تريستان وايزولدة) التي ظهرت في ١٨٥٦ كانت ختام الموسيقى، أو الموسيقى المقامية. (وسأعود إلى فاغنز بمزيد من التفصيل). الطليعيون يريدون أن يتجاوزوها. وتجاوزها يعني الابتعاد عن الموسيقى، والولوج في عالم اللاموسيقى. يعني التخلي عن الأذن، وتبني العين في الموسيقى، أو القراءة بدل السماع. ووفق فلسفة ثيودور أدورنو، الذي يريد أن يعطي للموسيقى بُعداً اجتماعياً، يعني «استعذاب» الموسيقى القبيحة، والتخلي عن الموسيقى الجميلة، لأن القرن العشرين هو قرن القبح. هو يرى أن الموسيقى الجادة ينبغي أن تكون معقدة وكريهة أو قبيحة. لهذا تجد موسيقى أرنولد شونبرغ الاثني عشرية، أو اللامقامية، وحمل على موسيقى سترافنسكي، وهندميث، وسبليوز. (مع ان المجنون وحده من يحمل على موسيقى سبليوز).

أنا أعتقد أن جوهر المسألة هي فلسفة التنافر الصوتي. ويمكن تلخيصها بالحكاية الآتية: يروى أن تلميذاً كان يتلقى دروساً في الموسيقى على يد أستاذ صارم في التعليم، فضجر من طريقة أستاذه الصارمة، وانتقم منه على النحو الآتي: تسلسل إلى البيانو، بعد أن أوى أستاذه إلى النوم، وعزف على مفاتيحه مركباً هارمونياً ناقصاً (من النوع الذي يترك في الأذن انطباعاً بالتنافر، أو يجعل الأذن في حال ترقب لمركب صوتي يكمله). ثم اختبأ وراء الستارة. فما كان من أستاذه إلا أن ينهض بعد قليل متغلباً على نعاسه ومتحدياً شيخوخته، ويهبط درجات السلم،

ويأخذ طريقه إلى غرفة الموسيقى ليعزف المركب الصوتي الثاني، ثم يعود إلى فراشه بعد أن دمدم بشيء مع نفسه.

هذه الحكاية - صحيحة كانت أم موضوعة - تعبر عن موقفين من الموسيقى: الارتياح أم عدم الارتياح للتنافر الصوتي.

وأنا سأخاطب القارئ الذي لا يملك ثقافة موسيقية، وأوضح له مفهوم التنافر الصوتي بأبسط مفاهيمه:

في السلم الموسيقي توجد سبع نوبات موسيقية، هي المفاتيح البيض في البيانو. وهناك خمسة مفاتيح سود أخرى، تشكل مع المفاتيح البيض سلماً كروماتياً (ملوناً). ولأجل التبسيط سنكتفي بالنوبات السبع الأساسية، ونذكرها مع ذبذباتها في الثانية:

دو ري مي فا صول لا سي دو
(الأعلى)

٥١٢ ٤٨٠ ٤٢٧ ٣٨٤ ٣٤١ ٣٢٠ ٢٨٨ ٢٥٦

فإذا عزفت النوبة الأولى (دو مثلاً) مع الثامنة دو (الأعلى)، فسنحصل على توافق صوتي، حيث تكون النسبة بين ذبذبتيهما كنسبة ٢ إلى ١. ثم يلي ذلك من حيث التوافق، تألف الأولى مع الخامسة (دو مع صول)، حيث تكون النسبة بين ذبذبتيهما كنسبة ٣ إلى ٢، وهي أبسط نسبة بعد السابقة. ويلي ذلك تألف الأولى مع الرابعة، حيث تكون النسبة بين ذبذبتيهما كنسبة ٤ إلى ٣.

أما بقية التآلفات فتكون متنافرة، وهي الأولى مع الثالثة؛ ونسبة ذبذبتيهما كنسبة ٥ إلى ٤؛ والأولى مع الثانية، والنسبة بين ذبذبتيهما ٩ إلى ٨؛ ثم الأولى مع السابعة، والنسبة بين ذبذبتيهما كنسبة ١٥ إلى ٨. وهذه نسب معقدة رياضياً، وبالتالي غير مريحة للأذن. ويحصل التنافر الصوتي هنا من أداء صوتين غير متجانسين. ولدى سماع مثل هذه الأصوات تبقى الأذن في حال ترقب وانتظار عسى أن تأتي أصوات أخرى لتكملها.

وسأنتقل الآن بمفهوم التنافر إلى جرعة أثقل في تقنينها. سأنتقل إلى فاغنر الذي وضع التنافر على الحافة من حيث تقبل الأذن له. أما بعده فسننتقل من الموسيقى المقامية المستعذبة إلى الموسيقى اللامقامية غير المستعذبة. وأنا سأطرق إلى ذكر فيلسوف وموسيقي تركا أثراً مهماً على فاغنر في التعامل مع التنافر، هما شوبنهاور، وفرانز لست.

كنت أريد أن أصفي حسابي مع الموسيقى. ولاحظت أن موضوع التنافر في الموسيقى له أهمية قصوى بالنسبة لمستقبل الموسيقى. التنافر الصوتي هو نقطة الافتراق، أو مفترق الطرق في الموسيقى. تابعته باهتمام في موسيقى فاغنر، لأنها ستكون مفترق الطرق في الموسيقى. وفي ضوء قراءاتي لاحظت أن فاغنر كان متأثراً هنا بشخصين لعبا دوراً مهماً في التأثير على أفكاره الموسيقية، هما شوبنهاور والفيلسوف، وفرانز لست الموسيقي. فشوبنهاور يؤكد أنه حتى أبسط الألحان، التي هي تعاقب لنوطات مفردة، تدعونا لأن نريدها ترجع إلى القرار، مهما ابتعدت عنه. وإنها تثير فينا ضرباً من عدم الارتياح إذا انتهت إلى نوطة أخرى أعني القرار. ليس ذلك فحسب، بل ينبغي أن ينتهي اللحن ليس فقط عند تلك النوطة القرارية إياها، بل عند ضربة قوية في الإيقاع،

في الوقت نفسه. وإذا فشل الموسيقي في تحقيق هذين الغرضين، فإننا سنشعر بشيء من عدم الرضا، وبشيء من القلق. ويخلص شوبنهاور إلى أن «الموسيقى تتألف من تعاقب مركبات صوتية غير مريحة للأذن إلى هذا الحد أو ذاك، أو بالأحرى من مركبات صوتية تثير القلق، مع مركبات صوتية مريحة؛ مثلما أن حياة القلب (الإرادة) هي تعاقب للقلق في الحياة، من خلال الرغبة أو الخوف». وأكد شوبنهاور أننا حين نستمع إلى الموسيقى، فنحن لا نستطيع إلا أن نشعر. يمثل هذه التوقعات والرغبات. إنها شيء لا إرادي. وهذه الاستجابة لا علاقة لها بمعارفنا، أو ذكائنا، أو فهمنا. إن الغالبية العظمى من الناس ذوي الحس الموسيقي الطبيعي، الذين لم يتعلموا أي شيء عن الموسيقى، وليست لديهم أية فكرة حتى عن أبسط تقنياتها، مثل ترقيم الميزان في الفاصلة الموسيقية، أو ما هو مفهوم «القرار»، سيشعرون تماماً نفس الشعور كما لو كانوا ملمين بالتقنية الموسيقية. لذلك، إن الموسيقى، كالحياة، تعبر عن الوضع القلق الذي نحن فيه، إلى أن يتحقق توقف كل شيء، نهاية المقطوعة الموسيقية، أو نهاية حياة المرء. ويتحقق معها توقف الشعور بعدم الارتياح.

عند هذه النقطة يولي شوبنهاور اهتماماً خاصاً بوسيلة تقنية في الهارموني، تدعى «التعليق». وكانت هذه الفكرة هي التي ومضت في ذهن فاغنر. إن التعليق يخلق حالة من الترقب. وهذا يُلمس في المقطع ما قبل الأخير من المركب الصوتي في أي مقطوعة موسيقية. وهذا في واقع الحال تنافر تقريباً. الترقب ينطوي على تنافر في الموسيقى، وليس ذلك فحسب، بل إن التنافر يُفضي إلى تنافر آخر، إلى أن يعود ليستقر على الصوت القراري. هنا عندما يتحرك التنافر إلى تنافر آخر غير متوقع،

فإننا نشعر كأننا بحاجة إلى أخذ نَفَسٍ آخر، نتيجة لما فوجئنا به من تنافر آخر. وهذا يعني أن حل الترقب كأنه يجعلنا نسترد أنفاسنا المحبوسة. التي تزداد توتراً عند التأخير.

عندما قرأ فاغنز هذا الكلام، شعر أنه تلقف فكرة موسيقية، فكرة تأليف قطعة موسيقية كاملة، في الواقع أوبرا كاملة، على نفس النمط من عملية الترقب. فالموسيقى ستتحرك، على طول، من تنافر إلى تنافر، بصورة تجعل الأذن في حال ترقب مستمر لحل لم يأت. لكن هناك حلاً واحداً لذلك كله، هو المركب الصوتي النهائي، الذي هو نهاية النص الموسيقي، وفي الأوبرا نهاية حياة البطل.

وهنا يبقى المركب الصوتي الأول في أوبرا (تريستان)، الذي عُرف بمركب تريستان الصوتي أشهر مركب صوتي في تاريخ الموسيقى. فهو ينطوي ليس على تنافر صوتي واحد، بل على تنافرين صوتيين، وبذلك يخلق عند المستمع رغبتين معذبتين في مفعولهما، لنشدان الحل. والمركب الصوتي الذي يتحرك إليه، يحل أحد هذين التنافرين، لكن ليس الآخر، وبذلك يحقق حلاً، لكنه ليس الحل الكامل. وعلى هذا النمط تتحرك موسيقى فاغنز: في كل حركة لمركب صوتي هناك شيء يُحَلّ، لكن ليس كل شيء. كل مركب صوتي يُحَلّ بطريقة يبقى فيها الآخر، أو يظهر فيها مركب صوتي جديد، وهكذا، في كل لحظة تشعر الأذن الموسيقية أنها تطمنت جزئياً، لكنها ظلت في الوقت نفسه محبطة. وهذا يستمر في العمل كله. ولا يُحَلّ التنافر كله إلا في نقطة واحدة، هي المركب الصوتي الأخير؛ وهذا هو أيضاً نهاية كل شيء، الأبطال، واهتمامنا بهم، والعمل الأوبرالي كله.

قال إيرنست نيومان، وهو أحد أبرز كتبة سيرة حياة فاغنز: إن

(تريستان وإيزولدة) هي شوبنهاور من المركز إلى المحيط. إن الفكرة الأساسية لها التي تعتبر بذرة العمل كله كانت استجابة لقراءة شوبنهاور. وكل شيء فيها مستوحى من شوبنهاور: العلاقة بين الموسيقى والعناصر الأخرى في الدراما، المغزى المركزي للقصة، والمخيلة الأدبية التي تسود النص، كلها بوحى من شوبنهاور. لقد أكد توماس مان أن هذا الانصهار بين فاغنر وشوبنهاور كان مثالاً صارخاً في كل الثقافة الغربية ذات العلاقة المتكافلة بين فنان خلاق أصيل ومفكر كبير. لكن هذا لا يعني أن على المرء أن يُلم بفلسفة شوبنهاور ليتبين الجانب الفني في (تريستان).

كما ينبغي أن نفظن إلى الدين الكبير الذي كان يدين به فاغنر إلى فرانز لست، إلى حدّ أن كل تجديدات فاغنر، وكل تقنياته، كانت لها جذور عند لست. وهذا كان واضحاً في عنصر التنافر الصوتي، الذي اتخذ عند فاغنر منهجية راسخة أصبحت منطلقاً لكل الرغبات في التوسع بعنصر التنافر بعده. إن إحدى حيل فاغنر المفضلة كانت في التعامل مع الكيان البنائي لكل الهارمونية الغربية، المركب الصوتي الثلاثي المعروف. فإما أن يعترضه قليلاً، ليجعل منه مركباً صوتياً «منقوصاً»، أو يوسعه قليلاً ليجعل منه مركباً صوتياً «مزيداً». إن المركبات الصوتية المنقوصة أو المزيدة تتمخض عن أشياء غريبة في طريقة تصرفها. إنها تصبح غير مستقرة وتنشأ لها نزعة إلى زعزعة المزاجية، لأنها تنحرف عن المألوف المريح للسمع، باحثة عن علاقات مع مركبات صوتية غير مألوفة. إنها عنصر إقلاق في الموسيقى. إنها تخلق انطباعاً من التوتر، والقلق، واللايقينية. لقد استعملها فاغنر بغزارة في أشهر أوبراته ليخلق جواً من الألم أو التوجع أو ليخبرنا بأن شيئاً غير مريح قد يحدث. لكن

هذه المركبات الصوتية القلقة، بمنقوصاتها أو مزاداتها، هي هارمونيات فرانز لست الداكنة في الأساس. إن سمفونية (فاوست) لفرانز لست التي ألفها في ١٨٥٥ تبدأ بلحن موجع مكون كلياً من مركبات صوتية مزيدة، يتبعها فوراً تقريباً تفجر عن الألم الشديد، مطعم بسلسلة من المركبات الصوتية المنقوصة الصارخة (هنا يبرز دور فرانز لست في سمفونيته فاوست كسابق لفاغنر). ولحنه الأفتتاحي يحتوي على اثنتي عشرة نوتة: انه يستعمل كل النوطات الاثنتي عشرة للسلم الموسيقي الغربي بدون تكرار أي منها. فيلى ماذا يؤول بنا هذا؟ حسن، إنه سيؤول بنا إلى انهيار النظام المقامي، وبالتالي انهيار الحضارة الموسيقية الغربية التي نعرفها. لكن الموسيقى عند فاغنر بقيت تراوغ في مغازلتها الأذن، وذلك في إدخالها عنصر التنافر الصوتي، لكن ليس بصورة مطلقة. كان فاغنر يخلق تنافرات صوتية لكي يحلها. إنها سايكولوجية التلاعب بمزاجية المستمع وإقلاق راحته بإمطاره بتنافر في إثر تنافر، إلى أن يجد الحل في آخر المطاف. لكن المشكلة هنا أن الموسيقى الغربية وصلت إلى درب مسدود، أو مفترق طرق، إما العودة إلى نظام المقامية، أو المضي قدماً في نهج التنافر. وآثر الموسيقيون الأكثر نزوعاً نحو التغيير والتجديد المضي قدماً في ما بدأه فاغنر. فتبنى أرنولد شونبرغ وأتباعه الموسيقى الاثنتي عشرية بالكامل، وأحدثوا قطيعة مع النظام المقامي الذي يتعامل مع النوطات بصورة تراتبية، أي حسب ارتياح الأذن لها. وأصبحت الموسيقى تولّف للموسيقين وليس للجماهير. فربح هؤلاء الموسيقيون النقاد، وخسروا المستمعين.... وأنا لا أدري من يتحمل المسؤولية هنا، النقاد الذين يلهثون وراء التنظيرات النظرية، أم الموسيقيون الطليعيون؟

وكنت أفضل أن أكتب فصلاً خاصاً عن علاقتي بالفيزياء، لأن

موضوع ميكانيك الكم، ومبدأ الاحتمية (أو الحتمية) ظل شاغلاً بالي عقوداً من السنين، منذ علاقتي بالفيزياء، إلى وقت قريب، حيث وقفت على تجارب متأخرة تؤكد مبدأ الحتمية، أي الظاهرة الجسيمية والموجية للكيانات ما تحت الذرية، في آن واحد. وقد عاجلت هذا الموضوع وغيره في كتابي (الثورة العلمية الحديثة وما بعدها)، و (تأملات في الفيزياء الحديثة).

ورأيت من المفيد هنا أن أعيد نشر كلمة بعنوان (فيزياء بلا أينشتاين)

فيزياء بلا أينشتاين؟

نشر هارولد أسبدن في بداية عام الاحتفال بمئوية أينشتاين، في ٢٠٠٥، مقدمة تحت عنوان «فيزياء بلا أينشتاين: مراجعة بعد مئة عام»، ذكر فيها لماذا لا تستحق نظرية أينشتاين حول النسبية كل تلك الضجة التي طُبلت لها، وكيف انها أعاقت العمل نحو فهم أفضل للكون، وللجاذبية. وجاء فيها أيضاً أن لمن المحزن أن يكون نقد نظرية أينشتاين موضوعاً غير مرحب فيه في ٢٠٠٥، لأن أينشتاين اعتُبر بطلاً ينبغي تمجيده حتى الآن بعدما أخذ عدد الطلبة المعجبين به بالتناقص. ثم إن نظرية أينشتاين لم تعد موضوعاً يمكن أن يستأثر باهتمام الطلبة الطموحين، إذا أخذنا في الاعتبار أن مئة عام مرت عليها.

من الأركان الأساسية لنظرية النسبية الخاصة لأينشتاين، التي ظهرت في العام ١٩٠٥، أن سرعة الضوء ثابتة وأنها أقصى سرعة في الكون. لكن هذه الحقيقة بقيت موضع تساؤل لدى البعض من العلماء. ما قولنا، مثلاً، في السرعة التي تنتقل فيها الجاذبية؟ شيء مدهل، لكنه لا يكاد يثير الانتباه. فمنذ نيوتن كان يقال: إن مفعول الجاذبية فوري،

أو آني. فماذا يعني هذا؟ ألا يعني أن هناك سرعة تفوق سرعة الضوء بكثير؟ يقول توم بيثل: «إن أحداً لم يُعر هذا الموضوع اهتماماً حتى الآن، باستثناء مجلة علمية محترمة جداً نشرت مقالاً ستسفس خلاصته، إذا تم قبولها على النطاق العام، أسس الفيزياء الحديثة، ونظرية آينشتاين عن النسبية على وجه الخصوص. يذهب هذا المقال الذي نُشر في ١٩٩٨، إلى أن السرعة التي يتم فيها مفعول الجاذبية ينبغي أن تكون عشرين بليون مرة ضعف سرعة الضوء على الأقل. إن هذا سيناقض نظرية النسبية الخاصة القائلة إنه ليس هناك شيء أسرع من الضوء. وهذا الزعم عن المنزلة الخاصة لسرعة الضوء كان قد أصبح من الأشياء المسلم بها بين المتعلمين في القرن العشرين».

كان كاتب هذا المقال، الذي أشار إليه توم بيثل، هو الفيزيائي والفلكي الأميركي اللامع توم فان فلاندرن. لا شك في أن مقاله هذا كان صدمة أو اختراقاً للعرف السائد في دنيا الفضاء. فمئذ سنين، كان معظم محرري المجلات الفيزيائية السائدة يرفضون بصورة أوتوماتيكية أي مقال يطعن في نظرية النسبية الخاصة (لآينشتاين). لكن الأنترنت قضى على احتكار النشر، وشجعت بعض المجلات العلمية على أن تفتح صدرها لبعض الآراء المعارضة و«المنشقة». فصار محبو الحقيقة العلمية يجدون ضالتهم في الأنترنت. لأن المجلات العلمية الرسمية لا تشفي غليلهم في طرح وجهات النظر المخالفة.

تزعم الفيزياء الحديثة أن آينشتاين صحح مفهوم نيوتن عن الجاذبية. نيوتن قال: إن سرعة الجاذبية فورية، أما آينشتاين فقد تبني نظرية غيربر القائلة: إن سرعة الجاذبية تساوي سرعة الضوء (من دون أن يعترف بأسبقية غيربر). مع ذلك، لاحظنا أن سرعة الجاذبية تفوق سرعة

الضوء بكثير، وهو أقرب إلى تصور نيوتن. فهل ينبغي الاعتذار إلى نيوتن؟

أما لماذا يجب أن تفوق سرعة الجاذبية سرعة الضوء، فذلك وفق المنطق الآتي: إذا كانت سرعة الجاذبية مثل سرعة الضوء، فلا بد من أن يكون هناك تأخر ملموس في فعلها. ففي وقت وصول «جذب» الشمس إلينا، فإن الأرض ستكون «تحركت» مقدار ٨،٣ دقيقة (وهو وقت وصول الضوء من الشمس إلينا). وفي غضون ذلك لن يكون جذب الشمس للأرض في الخط نفسه المستقيم لجذب الأرض للشمس. إن نتيجة عدم تطابق هاتين القوتين ستترتب عليها مضاعفة بعد الأرض عن الشمس في غضون ١٢٠٠ سنة. ومعروف أن هذا لا يحدث. إن ثبات مدارات الكواكب يؤكد لنا أن الجاذبية ينبغي أن تفعل مفعولها أسرع من الضوء بكثير. والإيمان بهذا التفسير جعل نيوتن يقرّ بأن قوة الجاذبية ينبغي أن تكون فورية. والمعطيات الفلكية تعزز ذلك.

وفي السنوات الأخيرة أجريت تجارب تؤكد أن سرعة الجاذبية تفوق سرعة الضوء بكثير.

يقول توم بيثل: «قد يبدو مستغرباً أن شيئاً أساسياً بالنسبة إلى فهمنا للفيزياء يمكن أن يبقى موضع نقاش». ويقول فان فلاندرن: «إن أكثر الأسئلة المطروحة على بساط البحث ولا يزال موضع مناقشة هو: ما هي سرعة الجاذبية؟». والغريب أن هذا السؤال نادراً ما يطرح في صفوف الدراسة الجامعية، لأن معظم الأساتذة ومعظم الكتب المدرسية تتحاشى السؤال. إنهم يعلمون أنها سريعة جداً، لكنهم لثقفوا أيضاً بالألا يجعلوا أي شيء يتجاوز حدود سرعة آينشتاين (أي سرعة الضوء).

لكن العالم الفرنسي لايلاس أعطى عام ١٨٢٥ حداً أدنى لسرعة الجاذبية، هو مئة مليون مرة ضعف سرعة الضوء، وذلك لتلافي الاضطرابات المتوقع حدوثها في حركة القمر لو كانت سرعة الجاذبية أبطأ من ذلك. ويبدو أنه كان أقرب إلى السرعة التي يقترحها بعض العلماء اليوم (فان فلاندرن مثلاً)، وهي عشرون بليون مرة ضعف سرعة الضوء. إن هذه السرعة هائلة جداً، لكنها ليست آنية، أو فورية، أو لانهائية. ولو كانت آنية لأصبح مفعولها أقرب إلى السحر، فهل تأتي هذه الحقيقة متعارضة مع نظرية النسبية الخاصة لآينشتاين، التي تؤكد أن سرعة الضوء (٣٠٠ ألف كلم في الثانية) هي أقصى سرعة في الكون؟ يقول توم فان فلاندرن: «الجواب نعم، ولا». ويفضل فلاندرن القول أن نظرية آينشتاين كانت ناقصة وليست بجانبه الصواب.

إن عيب نظرية النسبية الخاصة لآينشتاين، التي تؤكد أن سرعة الضوء هي أقصى سرعة في الكون، تم تلافيه في نظرية النسبية الخاصة للعالم الهولندي لورنتس، التي نشرها في ١٩٠٤، أي قبل نظرية آينشتاين بعام. وأن نسبية آينشتاين الخاصة لا تستطيع تقديم تفسير لسرعة الجاذبية التي تفوق سرعة الضوء (بكثير جداً، كما رأينا)، لكن نسبية لورنتس تستطيع تقديم هذا التفسير. وهذا دعا الكثير من العلماء إلى اعتماد نسبية لورنتس بدلاً من نسبية آينشتاين. وعلى أية حال، كانت نظرية النسبية في بادئ أمرها تدعى نظرية لورنتس - آينشتاين.

وهناك طعون أيضاً في نظرية النسبية العامة لآينشتاين (نشرت في ١٩١٦)، حول تفسيرها الهندسي للجاذبية، في زعمها أن الجاذبية تسبب من انحناء الفضاء والزمن. هنا يشبه الفضاء - الزمن في نسبية آينشتاين العامة بمشمع ذي بُعدين، وأن وجود جرم كبير، كالشمس، في

الفضاء - الزمن سيسبب انحناءً أو انبعاجاً في الفضاء - الزمن، وهذا يسبب انجذاب أجرام أخرى أصغر، كالأرض، تجاه الشمس الجالسة في فجوة الفضاء. إن هذا يعني اعتبار الفضاء شيئاً ملموساً أو صلباً، كالمشمع. لكن الفضاء فراغ بحت لا يمكن أن ينحني أو ينبعج. إن انبعاجه يصعب تصويره أو هضمه. وهكذا نلاحظ أن الجاذبية في ضوء التفسير الهندسي لنظرية النسبية العامة ليست «قوة»، وليست قادرة على البث، لأن الجسم المجذب يتبع مساراً منحنياً في «الفضاء - الزمن» من دون وجود قوة تفعل فعلها. وهذا يتعارض مع مبدأ العلة والمعلول. لأجل هذا يطالب عدد متزايد من علماء الفيزياء بإعادة النظر في نظريتي النسبية لآينشتاين.

الفصل الثالث عشر

حين كتبت الأوبرا والكلب في أوائل التسعينات طمرتها زهاء ست سنوات، ثم نشرتها بعد أن استأنست برأي الصديق فؤاد التكرلي. وأيقنت أنها أجمل رواية كتبتها. هل قلت ذلك قبل الآن؟ أرجو المذدرة، فأنا متقدم في السن. مع ذلك فإنني لم أكتب الرواية التي أحلم بها، مع أنني كنت أشعر أنني قادر على كتابة رواية مذهلة. إلا أن هذا لم يحصل. أذلك لأنني ضيعت فرصتي في كتابات متفرقة؟

أنا عندي أن هناك ثلاثة روائيين في العالم لم يظهر أروع منهم، هم ستندال، وتولستوي، ودوستوفسكي، ورغم أنه يضجرتني، ورغم ان ستندال تألق في عمل واحد فقط، هو (الأحمر والأسود)، وربما في (دير بارم) أيضاً، ورغم أن لي مآخذ على (الأحمر والأسود)، وربما مآخذ أيضاً على (آنا كارائينا)، لأنهما روايتان - في رأيي - وليست رواية. لكنني أعتبر ماتيلد (بطلة الأحمر والأسود) أروع بطلة روائية

على الاطلاق. لهذا أنا أشعر أنني لا أستطيع أن اكتب عن شخصية من مستوى ماتيلد. وهذا يتركني محبطاً.

روايتي الأولى بعد الأوبرا والكلب، (السراب الأحمر)، هي رواية عن مدينة فاضلة ينشئها مثقفون في ركن منعزل في عراق البعث. وكنت أريد أن أكتب عن الرجال المعصوبي العينين؛ وعن امرأة. هذه المرأة ستكون هي الرواية. فمتى سأقدمها؟ أنا لست على عجلة من أمري. لكنني مع ذلك أفكر متى سأقدمها. اخترت لها اسماً، لا أدري كيف اصطفتيه من بين كل الأسماء: داليا... لم يعجبني. هي كانت أحب بكثير من اسمها. وهي كانت شخصية روائية بحق، مع أن نسختها التي اقتبستها عنها لا تقل عنها روعة. (فيما بعد سأكتشف أن النسخة الأصلية عصابة).

لكنني كنت أريد أن يكون دخولها الرواية شيئاً بارعاً. كان دخولها في الصفحة ١٦٦. لم اكن متعجلاً. قلت: «اتصلت به مريم، وقالت له عبر الهاتف: «هل لديك استعداد لاستضافتي مع زميلة فاتنة؟»

آه، لم يكن هناك موجب لكلمة «فاتنة»، بل كان أفضل لو قلت «زميلتي». لا بأس، هذه التفاصيل لن تخدش الرواية.

ثم قالت مريم: «حدثت زميلتي داليا عن تجربة كوردره (أي المدينة الفاضلة)، فذهلت. ما رأيك؟ نذهب سوياً يوم الخميس القادم؟»

هكذا دخلت داليا فضاء الرواية. إنه كله عمل روائي بحت، لا علاقة له بالواقع. فمريم لم تكن يومذاك في العراق. وهي لا تعرف داليا. وداليا لم تكن في العراق يومذاك. لكنهما لم تكونا من بنات المخيلة البحتة. هما من بين معارفي، مثلما كانت ماتيلد من بين معارف ستندال، من

لحم ودم، وتحت اسم ماتيلد. لكن دخول داليا فضاء الرواية عن طريق انبهارها بالمدينة الفاضلة كان عملاً بارعاً يستدعي الإعجاب. لكن ما هي المدينة الفاضلة؟

هي لولب الرواية، وملهمتي في كتابتها. المدينة الفاضلة كانت المحرك الأساسي لكتابة الرواية. وأنا لم أختلقها من المخيلة، بل انتزعتها من الواقع، من إبداع فريقنا الثقافي الذي أراد أن يتغلب على السأم والابتذال بإنشاء مدينة فاضلة على صدر نهر ديالى بعيداً عن الدنيا والسلطة.

كتبت فاطمة المحسن عن رواية (السراب الأحمر): «في مفتوح روايته، يبنى الراوي منتجاً للمثقفين العراقيين على كتف نهر ديالى، بضعة أمتار عن أكبر تجمع لبساتين المنطقة الوسطى. ذلك الحيز لم يكن مجرد يوتوبيا ترمز إلى عزلة المثقف عن مجتمعه، بل هو الواقع مجسداً في توق إلى الأتلجنسيا العراقية إلى استكشاف المكان العراقي والعودة إلى الطبيعة وتكوين مستعمرة للحرية بعيداً عن رقابة السلطة».

لكن هذه المدينة الفاضلة كانت فرصة مقتنصة من الواقع الاستبدادي والساحق لكل الأحلام، وليست حلماً دائماً. لذلك كانت أشبه بأمنية مسترقة من هذا الواقع. مع ذلك استطعت أن أخلق فيها حياة كاملة في سياق موقوتيتها. نقلت حياة المدينة إليها، إلى هذا المكان المنعزل عن العالم. وأصبح نزلاء هذه المدينة الفاضلة يتحركون بكل حرية في فضاء هذه المدينة. وكنت أريد أن أنشئ مستعمرة داخل هذه المستعمرة. وهذا ما فعلته. كان هناك ثلاثة أشخاص مرشحين لأن يكونوا أعضاء هذه المستعمرة المتحررة من القيود، هم الدكتور رمزي، ومريم، وهشام المقدادي. وفيما بعد ستثير فضول داليا هذه المستعمرة داخل المستعمرة،

وتغريها في أن تقف على حقيقتها. لكن داليا لم تبق أكثر من ليلة والنهار التالي لها، لأن بقاءها كان محكوماً بهذه الموقوتية الزمنية.

وأنا كنت أريد أن أجعل المستعمرة داخل مستعمرة حرة بصورة مطلقة. أتحت الفرصة للثالث المذكور أن يستقلوا قارباً مطاطياً ويتعدوا به عن الآخرين ليسبحوا عراة. وهذا ما كان في المخطوطة الأولى من الرواية. وعندما عرضت النص على غانم حمدون ليبيدي رأيه فيه، ثارت ثائرتة، وطلب مني أن ألغي هذا المشهد، أو يقطع صلته بي، متذرعاً بأنه سيعرضنا إلى النقد الجارح والتهجم من لدن الإسلاميين، فاضطرت أن ألبسهم لباس السباحة. وكان موقفي المتحرر هذا من بين الأسباب التي جعلت غانم يقاطعني.

وأنا اعترف بأن الحياة في «المستوطنة» لم تكن خارج المؤلف على الإطلاق، لكنني أدخلت ذلك المشهد من عندي للتعبير عن ذهنية الثالث المتحررة، علماً بأن مريم لم تكن إحدى نزلاء المستوطنة، سوى أنني على علم بتحررها، فهي كانت تسبح في ألمانيا عارية، ولم يكن لديها مانع في أن تفعل ذلك في محيط معزول.

وأضفي حضور داليا على الرواية حيوية وبهجة. وستبقى هي أهم وأحب شخصيات هذه الرواية. وستصبح عنصراً مهماً في رواياتي الأخرى. وكما قلت إنني لم أختلقها من المخيلة، بل هي شخصية حقيقية كان لها حضور حيوي في معظم رواياتي. وسأعترف بأنني كنت أبحث عن شخصية مثلها لها خلفية أكثر تحضراً. فالنموذج الأصلي - الحقيقي - لداليا هو أنها نصف عربية ونصف بريطانية. لكنني جعلتها من عائلة لبنانية، هاجرت إلى العراق في أيام العهد الملكي. جاء في الرواية:

«تتلمي داليا إلى أسرة لبنانية قدمت إلى العراق منذ أوائل الخمسينات. كان أبوها خبيراً في شركة النفط، وله علاقة شخصية بكونبنيان، والجالية النفطية، وبعض العائلات العراقية المعروفة التي شاركت في الحكم، والوسط الثقافي النخبوي. وكان منزلهم الفاخر في عرصات الهندية ملتقى هذه الأوساط. وأبو داليا، السيد نبيل بارودي، مثقف من طراز رفيع، ويحمل شهادة الماجستير في هندسة النفط من بريطانيا. وكان من هواة فن الرسم بصورة خاصة. فاقتنى عدداً من أفضل اللوحات الفنية العراقية. وتعرف بمعظم الفنانين التشكيليين، ومعظم الموسيقيين والعازفين، العراقيين، والأجانب...»..

وجاء أيضاً: «داليا تذكر أشباح أشخاص لهم وزنهم في دنيا الفن والموسيقى من بين من كان يتردد إلى منزلهم، مثل الشريف محيي الدين حيدر (مدير معهد الفنون الجميلة، وعازف العود الشهير)، وساندو ألبو، عازف الكمان الروماني، ومسعود جميل عازف التشيلو التركي. لكن ذلك كله كان يوم كانت صغيرة. أما فيما بعد، فقد كانت تأنس كثيراً لأحاديث المايسترو الألماني مومر مع أبيها، ولعزف منير بشير، وطقوسه التي يفرضها في أثناء العزف...».

وهناك تفاصيل أخرى - في الرواية - عن حياة العائلة، وهي كلها كانت ترويه لي (غ)، الشخصية الحقيقية لداليا. واعترف بأن فؤاد التكريلي أذهلته شخصية داليا، والأجواء التي كانت تحيا في وسطها. وهو تعرّف إلى (غ) فيما بعد بواسطتي، بعد أن أحبت أن تستشيريه في مسألة قانونية. لكنه تعامل معها بغير رسة، وهي لا تنسى ذلك. فقلت لها مازحاً: «ذلك لأنك فاتنة، وأراد أن يتعالى عليك!».

السراب الأحمر كانت، مثل الأوبرا والكلب، موضع نقاش غير

منصف أو «متخلف»، كما تبين لي. وأنا لا أدري لماذا استقبلت بهذا الموقف السلبي من قبل عدد من المثقفين، بالرغم من أنها نالت ثناء من كتبوا عنها، بمن فيهم فيصل دراج، وفاطمة المحسن (التي غمزتني بفظاظة في كتابتها عن الأوبرا والكلب)، ووصل إلى علمي أن بعض معارفي من «التقدميين» اعتبر الرواية إساءة إلى اليسار!! وأثار سخريتي وجزعي أن بعض «المثقفين» أعرب عن تملله على تصرف البطل فيما يتعلق بالمسائل العاطفية. أنا لا أرى ضرورة لمناقشة هذه الانطباعات التافهة.

تحدثت أنا والصدیق نوري السعدي عن مفهوم البطل في السياسة والحياة. أما الآن فأود أن أطرح مفهوم البطل الروائي. من هو البطل الروائي؟ هناك مصطلح كان متداولاً في الأدب الماركسي: البطل النموذجي. ولا أدري إذا كان ما يزال له وقعه في عالم النقد. في جلسة دار فيها نقاش عن كتاباتي الرواية، ألمح أحدهم إلى أن رواياتي تفتقر إلى البطل النموذجي. لا أذكر كيف عقت؟. هل نعتبر جوليان سوريل بطلاً نموذجياً، هذا المواطن الذي ينتمي إلى طبقة متواضعة، لكنه وقف في وجه أبناء الطبقة الأرستقراطية، ورتّع أعتى فتاة من بنات هذه الطبقة. ومن هو، أو من هم الأبطال النموذجيون في رواية (الحرب والسلام)، وفي رواية (آنا كارائينا)؟ من هو البطل النموذجي في (الجريمة والعقاب)، وفي (الدون الهادي)، وفي رواية (جان كريستوف لرومان رولان)، وفي (البحث عن الزمن المفقود)؟ وهل كان كل من (دارسي) و (اليزابيث بنيت) بطلاً نموذجياً؟ ثم ما هو موقع ماتيلد التي بهرتني أكثر من جوليان سوريل؟

نعم، إن البطل النموذجي يمكن أن يعلن عن نفسه بوضوح، كما في

شخصية سوريل، وفي شخصية بيتشورين في (بطل من هذا الزمان). لكنه يضللنا في الكثير من الأعمال الروائية الأخرى. على سبيل المثال، هل هناك ضرورة لأن نبحت عن بطل روائي نموذجي، أو بطلة روائية نموذجية، في رواية (الأوبرا والكلب)؟ رواية (الأوبرا والكلب) هي رواية تحوم حول البحث عن حلقة مفقودة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وهذا هو سر أهميتها. لكن هذا ليس كل شيء في الرواية. فالرواية، إلى جانب ذلك، هي رواية الفتاة ياسمين بكل مشاعرها وأحاسيسها في تعاملها مع هذا الموضوع، وبكل علاقاتها مع الآخرين. وأنا أشعر أنها كانت انطلاقة بارعة في تجربتي مع الرواية. لكنني لم أنصرف إلى كتابة الرواية إلا بعد كتابة (السراب الأحمر)، التي كانت بداية مشروع روائي متعدد، لأنه سيتناول سيرة حياة مثقف عراقي تحت اسم هشام المقدادي. وهنا دخلت شخصية امرأة هي المحفز الرئيسي لكتابة الرواية، أعني بها شخصية داليا.

وأنا سأتابع حياة البطل هشام المقدادي، والبطلة داليا بارودي على مدى خمس روايات، سيكون لحضور ابنتهما شهرزاد دور مركزي في الجزأين الأخيرين. وسينتقل اهتمامي إلى شهرزاد كشخصية روائية من طراز خاص.

في هذه المناسبة سأعلن عن حضور ثلاث شخصيات نسائية مهمة في أعمال الروائية، هن داليا، وشهرزاد، وثمارا، التي سيتكرس حضورها في روايتين جديدتين، بعد السلسلة الخماسية، هما (فرس البراري)، و(الفرس الزرقاء).

كانت رحلتي مع هذه الروايات جولة جميلة نقلتني إلى أجواء فردوسية، رغم ما رافقها من هموم (على مصائر البطلات).

كان البطل واحداً - تقريباً - في كل هذه الروايات، وإن تغير اسمه (الى هيثم بغدادى) في الروايتين الأخيرتين؛ باستثناء (الأوبرا والكلب) التي لم يكن له حضور فيها. أما البطلات الثلاث فلكل منهن شخصيتها الخاصة، لكن يجمعهن شيء مشترك، هو تحررهن الزائد. وقد فقدت السيطرة على بعضهن، وترتبت على ذلك نتائج جاءت مغايرة لرغباتي.

وفي الواقع إنني كنت أريد أن أخلق بطلة روائية متميزة. وكانت شهرزاد ابنة داليا وهشام مرشحة لهذه المهمة. وأنا كان لي حساب، وما يزال، مع الفيزياء. فجعلت شهرزاد متألقة في هذه المادة. مع أنني أحببت كل نسائي الروائية، إلا أنني تعلقت بشهرزاد أكثر من البقية، لأنها كانت تحمل رسالتي (في العلم)، وأنا أنشأتها مذ كانت صغيرة (في رواية زنا بق بين الأغم) وتابعت مسيرتها في الحياة يوماً بعد يوم، لأنني كنت أريد لها أن تتألق في الفيزياء، وتصبح فتاة من طراز خاص (هو الجزء الرابع من المسلسل). وقد كانت. ولكنني خذلتها في اللحظات الأخيرة، عندما جعلتها ضعيفة امام الجنس، بعد أن كانت فوق كل شيء.

إن (فتاة من طراز خاص) تبقى My master piece، رغم أنني خذلت البطلة، وجعلتها مخلوقة معقدة جداً، إلى حد أنها أحالت حياتها وحياة أمها وأبيها إلى جحيم، وهذا بالرغم من أنها لم تراجع عن اهتماماتها الفيزيائية المتألقة.

ولا أدري لماذا فقدت السيطرة عليها، ولم أستطع استرجاع وضعها النفسي المتداعي إلا بشق النفس، وفي نهاية الرواية تقريباً.

كان هشام المقدادي يتوسم في ابنته نبوغاً في العلم، وعلى وجه

التخصيص الفيزياء. وهو كان يطمح إلى أن يشكل مع ابنته شهرزاد فريقاً علمياً للتصدي للسياسة «اليمينية» التي تتبعها المؤسسة العلمية الرسمية وكان يتابع اهتماماتها العلمية هذه، ويعقد عليها آماله.

كان موضوع (الفوضى والنظام في الكون) شاغل بالهما. وكثيراً ما كانا يتبادلان الأحاديث حول هذا الموضوع، ومواضيع أخرى علمية وعاطفية تشغل بال شهرزاد. وسأنتقل نموذجاً من هذه الأحاديث التي كانت تدور بينهما. كانت هي تؤلف كتاباً عن الفوضى والنظام في الكون. سألهما أبوها هل كتبت شيئاً؟، فأجابته بالإيجاب. فأحب أن يعرف ماذا كتبت. قالت:

«ينبغي أن يدخل في حسابنا، باب، أن الفوضى تعني الفناء التدريجي للطاقة (الكونية)؛ وتعني أيضاً عدم القدرة على التنبؤ. لكن هناك أكثر من تحدٍ لنظرية الفوضى في مفهومها الثاني (عدم القدرة على التنبؤ)؛ أهم هذه التحديات ميكانيك الكم. وميكانيك الكم هو الفيزياء؛ والفيزياء هي العلم. (تعلم، باب، إن رذرفورد قال: «إن العلم هو إما فيزياء، أو جمع طوابع، وإن صرنا ننحني الآن أمام إنجازات علم الأحياء»)، وينبغي أن يدخل في حسابنا أن ميكانيك الكم تخلى في بعض التجارب المتأخرة عن لا حتميته. تذكر، باب، التجربة الهندية اليابانية؛ وتجربة معهد ماكس بلانك في برلين ومعهد باسادينا في كاليفورنيا؛ وتجربة شهريار أفشر في جامعة هارفرد الأميركية وغيرها؛ التي برهنت على إمكانية قياس الطبيعة الجسيمية والطبيعة الموجية في وقت معاً للكائنات ما تحت الذرية. وهذا تحدٍ أيضاً لنظرية الفوضى».

وأشارت أيضاً إلى أن بول ديفز قال في ١٩٨٩، في مؤتمر لدراسة النظام ونظرية التعقيد: إن حقيقة كون وجود البشر، وإنهم يستطيعون

فهم أداء الكون على نطاق واسع يعني أن الكون ككل يجب أن يكون بشكل ما algorithmically compressible، بعبارة أخرى، لا يمكن أن يخضع كلياً إلى قانون الفوضى.

وقالت: وأنا أريد أن أؤكد أن الفوضى لا ينبغي أن تكون فزاعة. وأنها يجب أن تكون حافزاً لدى البشر على فهمها وتعزيز قدراتهم من أجل الهيمنة عليها. لكن التحدي الأكبر الذي أواجهه هو الفوضى في مفهومها الأول، المخرب، الذي يتجسد في القانون الديناميكي الحراري الثاني. والبناء هو النظام في الكون. ومن بين الأمثلة على ذلك وجود الحياة. لكن هذا متداخل مع القانون الديناميكي الحراري الثاني، لأنه يتم على حساب صرف طاقة. فهل هناك خلق للطاقة مستمر أيضاً؟ كيف، وأين؟ إن علم الفلك ما يزال قاصراً عن تقديم إجابات لمثل هذه الأسئلة، لأن المؤسسة العلمية تشبث بنظرية الانفجار الكبير، ولا تريد أن تصغي إلى الطعون فيها. وأنا سأبقى في ما يشبه الضياع بين نظرية الانفجار الكبير والقانون الديناميكي الحراري الثاني».

ويشني أبوها كثيراً على عملها، ويتمنى لو تنصدي أيضاً إلى موضوع كان يود هو لو عاجله، هو موضوع (الفيزياء إلى أين؟). لكن شهرزاد تجد ذلك أكبر من طاقتها، وتلمح إلى أنها لم تخلق للفيزياء وحدها، وتقول له: «أن حالي معقدة، باب، بين الطموح الأكاديمي والحب...».

كانت رواياتي عن شهرزاد محاولة للكتابة عن امرأة متميزة. واخترت لها أن تكون متفوقة في الرياضيات والفيزياء، إلى جانب تمتعها بجمال «اكزوتيكى» شرقي أسر، وبشخصية كاريزمية دوخت المحيطين بها. لكن شهرزاد وجدت نفسها في موضوع تخصصها في الفيزياء إنها كانت تسبح ضد التيار. فهي لم تؤمن بنظرية الانفجار الكبير

التي تبناها المؤسسة العلمية الرسمية؛ وكانت غير مرتاحة لأسطورة آينشتاين التي تحاول المؤسسة العلمية التستر عليها؛ وساءها أن المؤسسة بقيت تؤمن بمبدأ الاحتمية الذي جاء به فيرنر هايزنبرغ ونيلز بور في العشرينات من القرن العشرين؛ ولم تقبل التجارب الأخيرة (منذ أوائل التسعينات) التي أكدت بطلان هذا المبدأ. وهذا الموقف الذي تبنته شهرزاد حرمها من مباركة المؤسسة العلمية الرسمية، ومن فرص التقدم في مجال اختصاصها. فلم يعد عليها بالفائدة تفوقها العلمي. وهذا بالتالي، أورثها كآبة مقيمة، وحرمها من أن تصبح سعيدة في حياتها. هذا إلى أنها لم تكن موفقة في حياتها العاطفية.

أعترف بأني كنت لصيقاً بعالم رواياتي الخاص بي. وهذا لم يتغير حتى في كتابتي عن حدث لا ينتمي إليّ، بل إلى الجميع، هو الكتابة عن مقتل المثقف كامل شياح. وقد خيل هنا لفاطمة المحسن أنني صادرت مقتل كامل وسحبته إلى فلكي. لكن هذا كان في إطار شكلي بحت، وبقي كامل متعالياً على كل شيء، لاسيما الموت، الذي خذلنا بارمائه في أحضانه، بكل شجاعة، واستهانة حتى بنا، نحن الذين كنا نريد له أن يوفر نفسه للثقافة والأدب، ولا يقدم نفسه ضحية مجانية لقوى الظلام. رواية (موعد مع الموت) ناقشت قصة مقتل كامل شياح بطريقة روائية بحثة كتبت بمزيد من التصرف. واعترف بأن «انتماءها» إلى عالم رواياتي الأخرى، من خلال إدخال شخصيات من عالمي الروائي أحدث شيئاً من الارتباك لدى القارئ المطلع على عالم رواياتي الأخرى. لكن هذا لم يغير في شيء لدى القارئ الاعتيادي. المهم أنني قلت ما كنت أريد أن أقوله عن مثقف فيه ملامح من كامل شياح. وأحسبني كنت موفقاً في هذه المهمة. فقد قال فوزي كريم عن الكتاب:

«قرأته البارحة في ليلة واحدة، لأني وجدت فيه أكثر من عامل مشوق...». ثم قال: «الأمر الذي لا أملك القدرة النقدية على البت به هو مصدر عنصر التشويق الذي أشرت إليه. هل هو كامن في الكتاب كرواية، أم في الكتاب كسيرة لشخص أعرفه عن قرب؟ هل لاحقت صفحات الكتاب بفعل فضول لمعرفة ما خفي عليّ من أحداث، وأفكار صديق أعرفه؟» لكنه يؤكد بعد ذلك مباشرة: «في كتاب الأستاذ علي الشوك الجديد من الصعب الفصل بين هذين. فالكتاب «سيرة» وضعت بصيغة روائية موفقة». وسأشير إلى ملاحظات فوزي عن الرواية. أريد أن أقول إن فوزي لم تهمة أبعاد أخرى في الرواية تتعد بها عن صلب الموضوع، كان يهيمه الوقوف على حقيقة الحدث، وكيف عاجله الكاتب. أما فاطمة المحسن فقد قالت عن الرواية: «لعلها مهمة صعبة لرواية كتبت على استعجال، وفي ظرف نفسي ضاغط». الرواية لم تكتب على استعجال، وأقسم أن وضعي النفسي لم يكن ضاغطاً أو مهزوزاً!

لكنني أود أن أناقش موضوع الرواية، روايتي، هل كانت عملاً روائياً (في الأساس)، أم «شبه سيرة»، أم «سيرة»؟ أنا تعمدت أن أمّوه كثيراً في شخصية البطل رياض العبيدي، وجعلته يختلف كثيراً عن كامل شياح، في المظهر (على سبيل المثال كان رياض أزرق العينين)، وفي سلوكه وحياته. أنا لم أكتب سيرة، وما كانت تلك مهمتي. قد تكون هذه مهمة أخيه مثلاً. أنا كتبت رواية. ومن أسفي أن فوزي تعامل معها كسيرة وليس «سيرة»، كما ذكر في مستهل كلمته. وكذلك تعاملت فاطمة مع النص. لذلك حاسبني كل منهما، من منطلقه، لأنني لم ألتزم بسيرة حياة «كامل». لكن كيف ألتزم بسيرة

حياته وقد أدخلت أشخاصاً آخرين روائيين إلى عالم القصة. قال فوزي: إنني أقحمت شخصية نسائية «مصطنعة»، هي شهرزاد على عالم كامل شياع. لكن البطل لم يكن كامل شياع، بل رياض العبيدي. وقد تصرفت كثيراً في حياته، وعلاقاته. وكانت شهرزاد شخصية محورية في القصة. في نص أرسله شهاب الدوري إلى المؤلف باللغة الإنكليزية، يقع في ١٥ صفحة، قال: «.... ليست شهرزاد واحدة من بين الشخصيات الروائية الرئيسية فحسب.... بل هي تمثل أيضاً دور شخص يقوم مقام الراوي في هذا العمل. إنها على ما يبدو تشغل دوراً مركزياً في القصة...».

أنا أعتز أن كامل شياع كان شخصاً غامضاً في حياته. وأنا ناقشت في الرواية شخصية البطل الغامضة. وسأعتز بأن كامل شياع قال لي في آخر مكالمة تلفونية بيننا، وكان ذلك قبل مقتله ببضعة أيام: إنه فقد الثقة في نفسه بالكتابة. فأدهشني بذلك. لكن اعترافه هذا، الذي لم أكن ميالاً إلى تصديقه، جعلني أعتبر رياض العبيدي، الشخصية الروائية التي مماهيه، غير راضٍ عن نفسه وعن إنجازه الأدبي. وذهبت إلى الاعتقاد بأن رياض العبيدي كان يريد أن يكون كاتباً إبداعياً، في كتابة المسرحية على سبيل المثال، وهو شيء كان تصوراً من عندي. ولعل هذا جعل فاطمة المحسن تزعم أنني قزمت كامل شياع أمام هشام المقدادي (في الرواية)، الذي يماهي علي الشوك. وهذا لا معنى له طبعاً. فالبطل رياض العبيدي كان موضع حب وإعجاب هشام المقدادي، لكنه كان شخصية غامضة أيضاً. وأنا لا أنسى اعترافه لي بأنه فقد الثقة في نفسه في الكتابة، وربما جعله هذا الاعتقاد يستهين بنفسه وبالحياة. (أنا لم أتطرق في الرواية إلى فقدان البطل (أو كامل) ثقته في نفسه بالكتابة)، لكنني

أشير إلى ذلك هنا لأول مرة. وأنا أعتقد أن كامل لم يكن محقاً في تصويره هذا. إن مثل هذا التصور يمكن أن يخامر ذهن أي كاتب.

وأنا أدعو القراء إلى قراءة (موعد مع الموت)، لأنها رواية ممتعة كتبت بأسلوب جميل غير تقليدي. الرواية صادرة عن دار المدى.

الفصل الرابع عشر

سأنتقل الآن إلى بقية أعمال الروائية، وهي عن شخصية امرأة تدعى غمارا، كتبت عنها ثلاث روايات، هي (غمارا) ؛ و(فرس البراري) ؛ و(الفرس الزرقاء).

جرثومة هذه الكتب الثلاثة هي رسالة، استلمتها في ١٩٩١ من سيدة. وسأنتقل رسالتها هنا، لأنها كانت محفزي على كتابة ثلاثة نصوص، أو أربعة في واقع الحال. النص الأول يغطي ٨٥ صفحة، وقد ألغيته بعد أن أرسلته للطبع ثم سحبه. كان بعنوان (رسالة من امرأة ليست مجهولة).

كتبت الرسالة التي أرسلتها إليّ صديقة باللغة الإنكليزية، وأنا أنقل نصها هنا مترجماً إلى العربية:

عزيزي هيثم

بدأت بكتابة رسالة (قبل هذه)، ثم مزقتها لأنني رأيت أن لا أدخل في

مزيد من التفاصيل. كما سبق أن علمت، أنا لا أشعر الآن أنني مرتاحة
 البال بأي شكل من الأشكال. إنني أشعر أنني في حال متزعزعة وممزقة
 تماماً... لا بد أنك تدرك شعور المرأة عندما تفقد أملها في مستقبلها،
 هيثم، لعلك تدرك ذلك، لكنك لا تستطيع أن تفهم هذا الإحساس
 تماماً، لأنك رجل، سيعود يوماً ما إلى عائلته، ويعرف أين هو مستقبه،
 رغم كل الوعود التي قطعته لي. لقد كنتَ تدرك ذلك دائماً، ولست
 ألومك على ذلك. ولا ينبغي أن أحمل ضغناً عليك بسبب ذلك،
 نحن كلنا بشر، ونريد حياتنا ومستقبلنا أن يكونا على أفضل ما تتيحه
 الظروف. أنا أيضاً أريد أن أعيش، وأن أكون سعيدة. لكنني أشعر،
 لسوء الحظ، أنني لقيت إهمالاً. فأنا لم أعد أنتمي إلى أي مكان، أو
 إلى أي إنسان (أنا أتحدث عن المستقبل). هذا الإحساس كان يملكني
 دائماً، لكنه الآن صار يورقني. ولست ألوم أحداً على ذلك. كنت أنا
 أتمتع بالقدرة على توجيه حياتي الوجهة التي أريدها. وكنت دائماً أتبع
 غرائزي. هكذا كنت منذ صباي. كنت دائماً أريد أن أنهج نهجي
 الخاص. وقد فعلت ذلك. وأتمنى الآن حقاً لو أن الأمور كانت مختلفة،
 أتمنى لو أنني واجهت ظروفاً أقسى لربما ساعدني ذلك الآن على تدبير
 أموري على نحو أفضل.... إنني أكتب إليك الآن لأنني أشعر أنني
 لا أستطيع الاختباء وراء الحقائق. لقد قلت لي عبر الهاتف: إن عليّ
 أن آخذ في الحسبان أن هناك من هم في أوضاع أسوأ، صدقتني إنني
 أفكر في الآخرين لكن هذه ليست الوسيلة التي تنسى فيها نفسك
 وهمومك. لا أريد أن أشغل بال الآخرين في مشاكلني. بل أتمنى
 أن يكون في مقدوري حل مشاكلني بيدي. يتدأ أنني لا أنسى أن
 الأشخاص الذين امتصوا رحيق شبابي (زوجي)؛ وكانوا في حاجة
 إليّ بقدر ما تعلق بهم لإعجابي بمواهبهم (أنت)، حاولوا أن يتخلوا

عني الآن. عندما قلت لي عبر الهاتف: «إذا كنتُ أنا عائقاً، وإذا كان انسحابي يحل المشكلة، فأنا على استعداد للانسحاب، لأجل وضع حدٍّ لعذابك، ورغم صعوبة تحمل مثل هذا القرار، فأنا جاهز لعمل أي شيء من أجلك». أي أن تتوارى عن عالمي. هيثم، إن آخر شيء يمكن أن يطرأ على بالي هو أن أسمع مثل هذا الكلام البارد من الرجل الذي كنت أحبه دائماً، وأحبته في أصعب المواقف. أنا لم أراجع قط، ولم يمنعني شيء من الرغبة في أن أكون معك. ثم، أو لم أكن تلك المرأة التي تبعث البهجة في حياتك بين الحين والآخر؟ أنا لا أريد أن يشار إليّ بأنني امرأتك التي أصبحت الآن لديها مشاكل، وكأنك تبقى نفسك في معزل عن أي شيء.

٢١ تموز ١٩٩٢

عندما قلتُ لك إنني جادة في طلاق زوجي، فإن علاقتي الحالية بك لن تغير الأشياء. وإذا رأيت اتخاذ هذا القرار، فإنني سأأخذه. وبقدر تعلق الأمر بنا، أنت وأنا، فأنا سأبقى تلك المحبة، وسأظل أشعر بالحاجة إلى أن ألتقيك، لكن ينبغي عليك حقاً أن تبرهن على أنك تهتم بي.

هل تعتقد أننا لو قطعنا الصلة بيننا، فإن ذلك سيحل مشاكلي، ويعيدني إلى زوجي؟ مطلقاً، لا.... زوجي لا يريد طلاقاً، يئد أنني أفكر في نفسي: (إذا حدث أن افترقنا، أنت وأنا)، وانقطعت بيننا الأسباب، فلن أفكر في الارتباط بأي رجل آخر. أفلا تعتقد، والحال هذه، أنني أستحق - بعد كل الذي مرّ عليّ - أكثر من أن تقترح عليّ

بأن تنسحب، لحل المشكلة؟ إن ما أنا في حاجة إليه الآن هو أن تُشعري بأنك تُعنى بي من كل قلبك وفي كافة الظروف. تشعرني بأن هناك من يمنحني حبه، ولا يدير ظهره لكل ما عشناه سوية.

أرجو أن تتلفن إليّ بعد قراءة هذه الرسالة، ولا تحاول أن تعيد علي سمعي «أنت لم تفهميني»، أنا أفهم لماذا تقترح تلك الأشياء عليّ. أنت لا تريد أن تكون سبب عذابي. لتعلم أن فراقك عني سيكون هو سبب عذابي. لقد قدمت ما كنت أريد أن أقدمه إلى رجل كان كل شيء بالنسبة لي؛ ولا أحسبني أطلب الكثير الآن. لذا ينبغي عليك أن تفهمني.

مع كل حبي.

تقاراً.

في الختام، أنا لا أريد أن تعتبرني تلك المرأة التي ستدبر أمرها، المرأة التي يتعين عليها أن تحل مشاكلها، المرأة التي تجدها أمامك دائماً، مهما عاملتها.

أشعر أنني أهنت بعض الشيء. لأجل هذا كتبت تلك الكلمات الأخيرة. لكنك تعلم أنني لا أريد أن أعقد العلاقة بيننا. أنا لا أنشد سوى أن أكون أكثر اطمئناناً.

كنت الآن قد فرغت من علاقتي (الروائية) مع شهرزاد. كانت آخر علاقتي بها في دورها في قصة (موعد مع الموت)، مع أنني أمضيت أياماً جميلة معها قبل ذلك في رواية (أحاديث يوم الأحد). هذا مع أنني خذلتها، لأنني قمعت رغبتها في أن تحب أباهاً، مع أن أباهاً كان

الرجل الوحيد الذي تعتقد أنه يصلح لها كحبيب. على أية حال، أنا أنهيت علاقتي بشهرزاد، وأنا أشعر بالأسف لأنني لم أكن سعيداً مع هذه العلاقة. وبالتالي شعرت أنني لم أنصف المرأة في تلك الكتابات الروائية.

وشهرزاد كانت شخصية مختلفة مئة بالمئة. لكنها كانت أحب امرأة إليّ، كما قلت، بين النساء الحقيقيات والمختلقات. كانت أحب حتى من أمها التي نشأت لي معها علاقة حقيقية؛ وأحب من أولريكا الألمانية، التي كانت الضلع أو الساق الثاني في رواية (مثلث متساوي الساقين). ولا أدري لماذا لم أتحدث عن رواية (مثلث متساوي الساقين)، مع أن بطليها امرأتان حقيقتان. أو لعلني تحدثت عنها ونسيت؟

أنا أنتقل إلى مجموعة جديدة من الروايات بطلتها امرأة واحدة، هي في إطار ما «داليا» متجددة، وفي إطار آخر امرأة من الخيال. لم أكن في البدء أنوي أن أكتب أكثر من صيغة واحدة. كنت أريد أن أكتب رواية عن قصة حب ثلاثي، مركب، أو معقد. قصة حب تصبح رباعية بعد دخول عنصر جديد سيقى بعيداً عن «الاكثواء» بنار الحب، مع أنه سيخلق جواً جديداً من الصراع أو التآزم. إنها لعبة، لكنها لعبة تراجيدية.

كُتبت رواية (تمارا) في فترة قصيرة نسبياً: هيثم بغداددي مثقف متزوج يترك العراق لأسباب سياسية. ثم يلتقي في خارج العراق بامرأة متزوجة أيضاً. ويحب بعضهما الآخر، ويعيشان سوية عدة سنوات. ثم تفاجئه زوجته بالالتحاق به، بعد أن تنتهي دراسة ابنتها وابنتهما. فضطرت تمارا إلى الالتحاق بأختها في أميركا، لكن هيثم لا يطيق الحياة مع زوجته، فيفصل عنها، ويتصل بتمارا يلتحق بها. ويفاجأ بأن تمارا

التحقت بشريك حياة جديد، أميركي، تتعلق به كثيراً، لأنه يسوع في سلوكه، وكان قد أقال عثرتها بعد ان خذلها هيثم، مع أنه أعطاها وعداً بالعودة إليها. لكن صديقها الجديد أندرو يفرض عليها أن تعود إلى هيثم، انطلاقاً من فلسفته المسيحية، ولا يتراجع عن هذا القرار. فتجد تمارا نفسها ملزمة بالعودة إلى هيثم، لكن قلبها أصبح مع اندرو.

هذا تكثيف جائر لرواية تقع في ٣٠٠ صفحة.

أنا لم أكن راضياً تماماً عن هذا النص الجميل، لكنه لم يخل من مآخذ. ومأخذي أنا على هذا النص هو أنني جعلت تمارا تتخلى عن قوة شخصيتها منذ التحاقها بصديقها الجديد. فهي كانت شخصية مركزية أو محورية إلى الأخير تقريباً، ثم هوى نجمها منذ التحاقها بأندرو. ففقدت كل سحرها وقوتها.

على أنني أعترف بأنني كنت متحرراً جداً في كتابة هذا النص، وكنت أتعامل مع المرأة بحرية مطلقة تقريباً. كنت أريد أن تتمتع المرأة بمثل ما يتمتع به الرجل من حرية. لكن ردود أفعال القراء كانت متباينة. بعضها، وهي الغالبة، كان رأيها إيجابياً، والأقل كان سلبياً. وقارئتان أعطتا النص خمس نجومات من خمس. لكن إحدى القارئات، وهي محجبة، كتبت عن الرواية كلمة متشنجة جداً. جاء في كلمتها: «سأضطر ولأول مرة أن أستعمل بعض الكلمات النابية أو المصطلحات التي لا تلائمني ولكنها تلائم الرواية. لم تصعقني دناءة أفكارها والحب الشيطاني الذي يجعل أي إنسان يزدرى الحب كما تزدرى الرذيلة...».

أنا أرثي لحالي لأنني وُجِدت في أمة متخلفة جداً لا تستحق أن تمارس حياتها في القرن الحادي والعشرين. وجود مثل هذه القارئة بين ظهرانينا

يجعلني أشعر بخلل شنيع في عالمنا، وأنني لا أنتمي حقاً إلى هذا العالم. هذه القارئة تذكرني بوزيرة عراقية كانت تمثل المرأة وهي ترتدي العباءة، وترضى أن يؤدب الرجل المرأة. لكنني لن أتوقف أكثر عند هذه القارئة.

أنا لم أرتح إلى سلوك البطلة تمارا، ولا إلى سلوك البطل هيثم. الشخصية الروائية الوحيدة التي نالت إعجابي في عملي الروائي هذا، هي شخصية أندرو اليسوعية، الذي رفض إبقاء تمارا معه بعد أن عاد إليها صديقها (هيثم). اعترف أنها رواية شيقة عن مثلي حب، كان مثلثها الثاني أكثر إثارة للفضول من الأول. الأولى كان مثلث حب بين الزوج والزوجة وصديقة الزوج تمارا. أما الثاني فكان مثلث حب بين هيثم و تمارا وصديقها الجديد أندرو. المثير للفضول هنا هو أن المحب الجديد لم يكن متعلقاً بتمارا سوى من منطلق مسيحي بعد أن أقالها من عثرتها. و تمارا أصبحت عاشقة ومثيمة في حبه إلى حد إثارة إستياء حبيبها الأول هيثم. هنا، أنا وجدت معادلة غريبة من نوعها في علاقة الحب المثلثة، معادلة أفقدت الحب طابعه المألوف، بعزوف المحب الجديد عن ممارسة دوره كمحب، انتصاراً للمحب الأول. وهذا فت في عضد تمارا وربما حرمتها سعادتها حتى مع محبها الأول. فكانت الحصلة خسارة الجميع.

فرايت أن أعيد كتابة هذه الرواية من جديد. بالرغم من أنها نشرت. هذه المرة على لسان البطلة تمارا. كنت أريد أن تكون البطلة فرساً جموحاً، فاخترت العنوان التالي (فرس البراري). واستسلمت إلى متطلبات السوق، فأضفت إلى العنوان: اعترافات امرأة. وكانت المؤهلات الأساسية التي تتمتع بها البطلة هي جمالها الخارق، مع ذكاء لافت. لكن هذه الرواية نمت تدريجياً لتصبح عملاً فيه سمات ملحمة. البنية الأساسية للرواية هي شخصية تمارا القيسي، وشخصية هيثم

بغدادى، مع حضور زوجها تحسين كيلانى. ثم يحصل توسع فى دخول شخصيات أخرى، سيكون لها حضور لامع فى النص. وسيطغى لحن رئيسى لهذه الرواية، هو الجمال والمال. وسيكون محور الرواية، رغم كل غنى الرواية وتشعباتها.

أنا سأحدث عن هذه الرواية بشيء من الإسهاب، لأنها أصبحت شاغلاً كبيراً بالنسبة لى، سبب لى همأ كبيراً لم يفارقنى حتى الآن. ذلك أن رواية (فرس البرارى) ستبقى أكبر مغامرة أدبية فى حياتى، وستظل توغر جرحاً فى ذاكرتى، لأننى أسأت إلى البطلة إساءة بالغة لم أستطع التخلص منها. وكانت هذه الإساءة غير مخطط لها فى البدء، لكنها فرضت نفسها على الرواية دون إرادة منى، وبقيت تعذبني. فكتبت رواية مكملة لها، فى مسعى لترميم إساءتى، وأحسب أننى أفلحت جزئياً.

وجاء على غلاف الرواية:

«كُتبت هذه الرواية للآخرين، وليس للقراء المحافظين أو المتحفظين. فهى فى هذا الإطار قد تكون صادمة لكثير من القراء. لكنها مثيرة للفضول فى كل الأحوال. هى رواية تنتمى إلى القرن الحادى والعشرين، وإلى قراء متحررين. هى اعترافات امرأة من خلفية برجوازية، وفيها دم عربى ودم غربى، أميركى. امرأة متحررة جداً، لكنها لا تنسى أنها تعيش فى مجتمع. وهذا الصراع بين الانطلاق الذاتى بلا إحساس بالقيود، وشبح المجتمع الذى يؤمن بقيم، يؤرقها ويعكر حياتها.

«إن الفكرة الأساسية التى يحوم حولها موضوع الرواية هى جمال المرأة الخارق، وما سترتب عليه. وهذا انطلاقاً من مقولة أناتول

فرانس: «الجمال هو أعظم قوة على وجه الأرض». من هذه الخلفية، ومن خلفية أخرى وهي قول جان بول سارتر: «الجماليات هن بين أن يكن برجوازيات أو بنات هوى»، نشأت لدى الكاتب فكرة الرواية.

فأي مصير سيكون للجمال؟

إنها اعترافات امرأة استدرجت إلى ركوب مغامرة جنونية، من دون أن تدري. لكن هذه النزوة لم تنل من مكانتها، فلقد ظلت متألفة في عالمها، وموضع حب وإعجاب بين الناس الذين تتحرك ضمن دائرتهم، على الرغم من أنها ستظل تمارس إحساساً قاتلاً بالندم عن نزوتها.

والرواية، إلى جانب ذلك، بانوراما شيقة في أحداثها وأفكارها.

سألتنى امرأة من أقاربي قرأت الرواية، من هي شخصية تمارا؟ فقلت لها: إنها شخصية مختلفة. فلم تصدق. وهذا من شأنه أن يطرح سؤالاً أو أسئلة عن شخصيات الرواية. قريتي لم يفتها أن تلاحظ أن هيثم البغدادي فيه الكثير من شخصيتي أنا، وهذا صحيح. وأضيف أن شخصية اسبرانتا مستوحاة من شخصية هناء أدور، وسيتضح هذا في الكتاب الثاني (الفرس الزرقاء) على نحو أوضح. أما بقية أبطال الرواية فكلهم مختلفون.

وفي الرواية، أو الروايتين، فرس البراري؛ والفرس الزرقاء، هناك شخصيات أخرى، نسائية ورجالية، متألفة أيضاً، بمن فيهم الشخصيات الثانوية. وأنا أخص بالذكر شخصية اسبرانتا المذهلة، التي استضافت هيثم عندها ليمضي شهراً كاملاً معها في برلين (الشرقية) في شقتها المؤلفة من غرفة واحدة، دون أن يحصل بينهما وصال جنسي. كما استفدت من رواية رفيق عن فتاة إيرانية من حزب تودة اليساري،

سميتها أناهيد صفوي، حول اغتصابها من قبل لافرانتي بيريا، وزير داخلية ستالين، بعد اعتقالها بسبب انتقادها لبعض نواقص النظام.

كان القسم الأول من الرواية كتاب هيثم بحق. ولعله كان أروع أقسام الكتاب. هنا تألق هيثم في أحاديثه الساحرة عن خلفياته الثقافية، والأدبية، والموسيقية، التي جننت تمارا، وفي أحاديثه عن «نساءه»، التي كانت تصغي إليها تمارا والآخرون بانبهار.

تم اللقاء بين هيثم و تمارا في لندن، في شقة عائلة صديقة لكليهما. هو كان قادماً من بودابست التي آوته من مضايقات السلطة العراقية؛ وهي كانت قادمة من العراق في محاولة لإكمال دراستها، بعد أن خاب ظنها في زوجها المليونير، السكير، ومعاشر النساء. في هذا اللقاء يجتمع مثقف من طراز رفيع مع ملكة جمال. هو يبهره جمالها وسحر شخصيتها؛ وهي تبهرها ثقافته وسحر شخصيته. نال أعجابها بتواضعه الجرم المحبب إلى النفس: «أنا أشعر أنني فاشل في الحياة لأنني لم أفلح في تعلم الرقص». لكن حديثه صار يأخذ بمجامع قلبها. لقد أسرها في حديثه عن موسيقى الهاربسيكورد. لا أحد في الدنيا استطاع أن يذهلها في الحديث عن روح الدعابة والنكتة في موسيقى الهاربسيكورد، وعن نفوره من ضربات الدربةكة الوقحة. وروى للحضور عن وقع أصوات «الدنبك» المبحوح على سمعه عندما كان ما يزال صغيراً. وكانت تأنس لأبيات الشعر القديمة التي كان يلقيها على مسمعها.

مع أن هيثم سيكون الملع شخصية في هذه الرواية، إلا أن الرواية هي رواية تمارا. وستظهر شخصيات روائية أخرى لها وزنها، لكن هيثم و تمارا سيبقيان محور الرواية. هيثم يرمز إلى سلطان الفكر، أما تمارا فترمز إلى سلطان الجسد. وأنا لم أرد هنا أن أوزع الأدوار بين الرجل والمرأة.

ففي روايتي (فتاة من طراز خاص) كرست للمرأة (شهرزاد) دوراً
فكرياً، هو النبوغ في الفيزياء.

سأعترف بأن فلسفتي في رواية (فرس البراري)، ومكملتها (الفرس
الزرقاء) كانت معقدة تجاه البطلة، ولا تُستوعب بسهولة. أنا مأخوذ
بشخصية المسيح وفلسفته. سواء كانت حقيقية أم مختلقة. وقد ناقشت
هذه الفكرة في الجزء الثاني من الرواية. كانت فلسفة المسيح تشغل بالي
منذ كتابة روايتي (فتاة من طراز خاص)، حيث جعلت البطلة شهرزاد
ترتبط بهوارد لأن فيه مواصفات مسيح. هذا لأن شخصية المسيح
مهيمنة عليّ. أنا رجل ذو نزعات يسوعية بصرف النظر عن أفكار
المتحررة. وعندما بدأت أكتب (فرس البراري)، كان في ذهني أن أكتب
عن امرأة فيها شيء من الأثنين اللتين ارتبطت حياتهما بالمسيح، أعني
بهما مريم المجدلية؛ ومريم بنت عنيا. وهاتان الحواريتان، من حوار
المسيح، كانتا أحب الحواريين إلى المسيح، مع أنهما كانتا بغيين. وهذا
الموضوع شغل بالي كثيراً. أحب الحواريين إلى المسيح كانتا بغيين.

وأنا لم يرد في بالي أول الأمر أن أجعل تماراً تمارس البغاء إلا فيما
بعد، بعد منتصف الرواية. وذلك عندما جاءت في بالي شخصيتا البغيين
في قصتهما مع المسيح (إحدهما هي التي أنزلت جسسه من الصليب
بعد الصلب). وكانت تماراً تدور في فلك هيثم بغداددي، ذي المؤهلات
الثقافية العالية، والنزعات الدنيوية. ثم ثور عليه لفقره، وتركه لثلتحق
بأمها في أميركا، وتقع في سحر أندرو كلارك، صديق إيان زوج أختها،
وكلاهما مختصان في الفلسفة. لكن أندرو كلارك كان نسخة أخرى
من المسيح، مثل هوارد بطل رواية (فتاة من طراز خاص). ولم أجد ما

يدعوني إلى التردد في جعل تماراً تمارس البغاء، لكأنها كانت في إطار فلسفتي. بمثابة مريم المجدلية، بالرغم من كل دنيوية الرواية.

أنا أعلم أن شخصية تماراً مروان القيسي ستبقى ملغزة أمام القراء. لماذا مارست البغاء وهي لم تكن مقسرة على ذلك؟ سيؤسفني أن القراء لن يدركوا فلسفتي في كوني اعتبرت تماراً شخصية من «جالية» المسيح، بعد ارتباطها مع أندرو، الذي كان يدعى مسيحاً ثانياً. تماراً كانت دنيوية إلى أقصى حد، وتعزز كثيراً بجمالها وجسدها، لكنها آثرت الانتماء إلى أندرو بعد هجران صديقها هيثم الذي لا يضاويه أحد في غزارة معارفه وثقافته، لأن أندرو يحقق لها انتماءً روحياً غامضاً في مواصفاته اليسوعية. وأنا تعاملت مع تماراً كمريم مجدلية أخرى، بل وأكثر سحراً من المجدلية، وأكثر دنيوية. هنا كنت أريد أن أتعامل مع نزق الجسد، وتألقه الذي يرقى إلى مصاف القدسية. وهذا اتخذ تعبيره في فن الرقص (الشرقي)، الذي تألقت فيه تماراً، وتمردت عليه. لقد أصبحت تماراً قديسة الرقص الشرقي بعد أن تمردت عليه وطورته وشذبتته من ابتدالاته. لكن ما أحزنها هو أنها لم تستطع فرض سطوة هذا الرقص على مسيحها المتعالي على الرقص. كانت ترقص للآخرين، فالرقص وجد للرجال، لكن أحب انسان إليها خذلها بعزوفه عن الرقص. لكن تماراً لم تستسلم. إنها تعلم أنها أتقنت فناً لا يدانيها فيه احد في تقنياته العالية. وسوف تؤدي عرضاً في مسرح البولشوي لن يستطيع حبيها أندرو كلارك، المتعالي، ان يتغيب عنه.

وكنت أريد لتمارا أن لا يقف في وجهها شيء، كأن تطوع أكبر بليونير في أميركا. وقد طوعته، لكنه لم يتخل عن شروطه وإملاءاته،

كأن يفرض عليها أن لا ترقص لأحد غيره. وهو كان صاحب سطوة هائلة ونزوات. من بين نزواته أنه كان يطلب منها أن ترقص على أنغام موسيقى الأورغن. وكان هذا يليب أهواءها.

لكن مراجعات روايتي، وهي بعد مخطوطة، احتججن على الحرية المطلقة التي منحتها لتماما، إلى حدّ استهانتها بولائها المطلق لمسيحها اندرو، فوضعتُ حداً لاندفاعتها، وكبحت علاقتها بالبليونير (جورج هاملتون)، وجعلتها تتخذ قراراً بتجميد علاقتها العاطفية مع الرجال، عن فيهم أندرو، الذي أسمعها كلاماً بأنها متحررة أكثر مما ينبغي. وهذا أحزن ابنتي زينب، أعني قرار تمارا بمقاطعة الحياة، مع أنها كانت من بين من حاسبها على حريتها المطلقة. كانت هذه نهاية غير مريحة بالنسبة للقارئ وللرواية. لكنني اعتمدتها لكي أضع حداً لجموح البطلة تمارا، مع أن ذلك جاء ضد رغبتني.

وأنا أقول ذلك مرة أخرى لأحيط بعض النقاد علماً بأنني لم أجرب كتابة الرواية لكي يقال عني أنني مارست كتابة الرواية أيضاً، باعتبارها حلم كل كاتب. لقد ذكرت في مستهل هذه المذكرات أن الرواية كانت هاجسي الأول عندما بدأت أفكر في الكتابة. فأنا الآن إنما أحقق حلمي الأول وكأنه إحساس بأداء الواجب. فأنا كنت أكتب المواضيع غير الإبداعية بحسب لا يقل عن رغبتني في كتابة الرواية. الفرق الوحيد هنا، مع الرواية، هو أنك تنشئ علاقات مع أبطال الرواية التي تكتبها. وحتى هذه العلاقات قد لا تقل حميمية عن الأشياء غير الإبداعية التي تكسب عنها. وقد أشرت إلى علاقتي الحميمة التي نشأت بيني وبين الأشجار التي كتبت عنها.

لكنني أعتزف الآن بأن علاقتي مع أبطال رواياتي أصبحت شيئاً لا

ينفصل عن حياتي. وسأقتصر في الحديث عن البطلة الرئيسية تمارا في رواية (فرس البراري)، وتعاملي معها. هي وجدت في شخص هيثم بغدادي رجل أحلامها. لكن «الشيطان» هنا وسوس في أذني، فرأيت أن أعرض العلاقة بينها وبين صديقها إلى الامتحان، لأخلق أجواء تعكر، أو تبليل، أو تفسد هذه العلاقة حيناً من الزمن، وقد تكون فاتحة لانقلاب جوهرري في سيرة حياة البطلة، ينحرف بمسار الرواية ربما بنسبة مئة وثمانين درجة. فأنا هنا دخل في روعي أن أجعل من البطلة نسخة مشابهة لشخصية مريم المجدلوية.

أنا لم أحاسب نفسي كثيراً على جنوح تمارا، لأنني أردتها أن تكون مثل مريم المجدلوية. هي حاسبت نفسها كثيراً، ولم تتساهل مع «زلتها». ولأجل أن يُرد إليها الاعتبار كتبت الجزء الآخر المكمل لفرس البراري، وأطلقت عليه اسم الفرس الزرقاء. هنا أردت أن أجعل منها بطلة روائية متألفة. وهذا من خلال جسدها بالذات. لم تكن هي في حاجة إلى أن تبرع أو تنبغ في شيء ذهني. جسدها كان قميناً بأن يحقق لها تألقاً لا مثيل له، من خلال الرقص. وكانت أبرع راقصة في العالم، هي شريكة حياة المسيح الثاني. فأية مفارقة جميلة هذه. لكن هل سيفطن النقد أو النقاد إلى ذلك؟

الشخصان المهمان في حياة تمارا، وفي الرواية، هما هيثم، وأندرو. وهما على طرفي نقيض في طباعهما. الأول كان انبساطياً، extrovert، والثاني كان انطوائياً، introvert. وكان لكل منهما تأثير مهم عليها. لكنها عشقت الثاني أكثر بكثير من الأول. فما هو سر هذا الانجذاب نحوه؟ أذلك لأن تمارا كانت مأخوذة بيسوعية أندرو؟ حاجة الجانحة إلى التسامح؟ مع ذلك لم يكن أندرو شديد التسامح. ثم أنه لم يقدر

براعتها في الرقص. فلماذا كان أندرو معبودها؟ ولماذا تعلق هو بها أكثر من غيرها من النساء؟ والأكثر مدعاة إلى التساؤل، لماذا سحرته من اللقاء الأول مع أنها لم تخفِ نزوعها إلى الجنوح؟ ولماذا بقي ينتظرها شهوراً وهو يعلم أنها كانت متمية إلى عالم اللذة، عالم الرجال؟..... ولماذا أحب المسيح مريم المجدلية أكثر من بقية الحوارين؟

ثم ألا يترتب على ذلك أن نحب مريم المجدلية، وأن لا يكون لدينا موقف سلبي من البغاء، لأن مريم المجدلية كانت بغيًا. فما هو البغاء؟ إنني أناقش هنا موضوعاً محرّجاً تماماً. المرأة التي كان المسيح يفضلها على كل حواريه كانت بغيًا. ما هو البغاء، إذن؟

ولأتوقف عند الرواية، أعني فرس البراري. هل تساهلت أنا مع جنوح تمارا، لأنها ستلتقي بشخص فيه مواصفات المسيح، أي أنه لا يحمل موقفاً سلبياً من البغاء؟ وهل سيبقى موقفي متساهلاً مع جنوح تمارا لو لم يكن لأندرو حضور في الرواية؟ وهل كان حضور أندرو في الرواية شيئاً أساسياً؟ ماذا لو لم يكن له حضور في الرواية؟ هل كانت تمارا ستلجأ إلى غيره، إلى هيثم مثلاً، عندما تقرر الكف عن ممارسة البغاء؟ وفي هذه الحال هل كان وجود أندرو نافلاً؟ بل هل كنت أفكر في وجود شخص متسامح مع البغاء عندما دفعت تمارا إلى ممارسة البغاء؟ هذا السؤال قد يفسد المعادلة بين إقدام تمارا على ممارسة البغاء، ووجود «مسيح» يتسامح معها، فيقدم تبريراً لممارستها. وهذا يجعلني أشعر بأن وجود أندرو في الرواية كان ضرورياً، ولن تكون هناك أهمية للبديل عن أندرو، مثل هيثم، لأن هذا البديل ليس مسيحياً، أو «مسيحاً».

أنا هنا أنقل مركز الثقل في الرواية من هيثم العلامة إلى أندرو «المسيح». لكن تمارا تبقى لؤلؤة الرواية. وهي على أية حال كل الرواية،

بالرغم من أن الرواية ستشكو من فراغ هائل بغياب هيثم وأندرو. ومع أن الرواية هي كل شخصياتها، فمن فيهم ابسط الأشخاص الثانويين، إلا أن (فرس البراري) هي تمارا، وهيثم، وأندرو. وأنا انتقلت منذ منتصف الرواية من هيثم إلى أندرو، لأن أندرو سيكون لاعباً رئيسياً في مغامرة تمارا في ممارسة عمل الليل.

إنني أسائل نفسي هل كان مشوار الجنوح، أعني ممارسة عمل الليل ضرورياً؟ وأجيب نفسي أنه لم يكن ضرورياً بأي شكل من الأشكال. لذلك أنا نادم عليه. وأما وقد سبق السيف العذل، كما يقال، فقد وجدت في شخصية أندرو، ذي المواصفات المسيحية ذريعة لي في تقبل جنوح تمارا. إن وجوده في الرواية كشخصية يسوعية، يمكن أن يجعلنا نراهي تمارا بشخصية مريم المجدلية. وأنا، في واقع الحال، منبهراً أمام وجود بغيين في سيرة حياة المسيح. ومن اللافت أن الكنيسة اعترفت بتفوق مريم المجدلية على بقية حواربي المسيح. وأنا أود أن أشير إلى قول أندرو لتمارا في حضور الآخرين: «لكن هل تعلمين لماذا تعلقت بك عندما جنحت؟ كنت عندي مريم المجدلية. وهذا يقدم تفسيراً لغرامي بجنوحك. تعلمين أنني كنت أعتبرك قديسة».

هذا يجعلني أشعر أن جنوح تمارا كأنه كان مبرراً لوجود شخصية يسوعية مثل أندرو.

رواية (فرس البراري) حافلة بالأبطال، وفي المقدمة منهم، هيثم، الشخصية المتألقة في الرواية. ثم يأتي أندرو كشخصية لامعة أخرى. لكن أندرو لا يتفوق على هيثم في مؤهلاته. شيء واحد جعله متفوقاً على هيثم، في عيني تمارا، وحسب قناعاتنا نحن أيضاً، هو يسوعيته. وانتماء تمارا إليه فور قطيعتها مع عالم الليل، كان لمسح زلّة الجنوح، ورداً

للاعتبار لها. فأندرو هو شخصية محورية أو مركزية في الرواية. لكن وجوده لم تكن له ضرورة لولا جنوح تمارا. وهذا لا يقلل من أهميته. فقد أصبح أندرو أو كسجيناً بالنسبة لحياة تمارا. صحيح أن لجوءها إليه بعد ممارسة عمل الليل، وهي تبكي بلا توقف، كان مشهداً ميلودرامياً أكثر مما ينبغي. لكن هذا يؤكد أن أندرو كان هو الأمل الوحيد لها لاستعادة حياتها الطبيعية، وذلك بفضل الفلسفة التي يؤمن بها.

أنا هنا كنت أريد أن أناقش مسألة البغاء. وقد فرضته في الرواية على تمارا بصورة مقحمة، وغير متوقعة أو مبررة. لكنني أردت أن أناقش الموضوع رغم إساءتي إلى تمارا المسكينة، أو الرائعة لتحملها إملءاتي عليها. ما هو البغاء؟ ولماذا كان مقدساً يوماً ما؟ أنا لا أستطيع أن أقدم موقفاً واضحاً أو محدداً منه. وكيف تعاملت معه الأديان؟ في المسيحية هناك تسامح تام معه. وحتى اليهودية أظن أنها ليست متشنجة تجاهه. وفي القرآن هناك آية تتعامل مع البغاء بتسامح أيضاً لكن في الإطار الذي يمارس فيه. جاء في القرآن: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا (اي الزواج) لَتَبْتَعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. هذا موقف متسامح حتى بعد ممارسته البغاء. لكن ماذا عن النساء اللواتي يمارسن البغاء من غير إكراه؟ لا ذكر هنا في القرآن إلى مثل هذه الحالات. لكنني أعتقد أن الإسلام يتسامح مع التي «يُقسرها» وضعها المالي على تعاطي البغاء. لكن ماذا عن اللواتي يمارسنه بدون إكراه أيّاً كان شكله، مثل تمارا؟ هل فرضت أنا على تمارا شيئاً خارج إطار القيم؟ هل كانت حالتها تعجيزية أمام القيم الاجتماعية والدينية؟... أنا حاولت أن أناقش حتى هذه الحالة من تعاطي البغاء بصورة طوعية لا إكراه فيها. وأدخلت في روع

تمارا أن تنخرط في سلك الرهينة لتجد فيه غفرانا لـ «زلتها». فماذا كان موقف رئيسة الدير من زلتها؟ قالت لها: لا موجب أبداً لهذه الحساسية من زلتها، ولا داعي لانخراطها في سلك الرهينة. ثم إنها إذا دخلت السلك، فستلمس كل الراهبات منها أن تعلمهن الرقص الشرقي!

لكن ابنتي زينب عقت قائلة: «أنا أحسست أن موقف مديرة الدير يعكس رأي البطلة ليس إلا. أو ربما أمانيتها. نعم، أعلم أن المسيحية الحقنة رأسمالها التسامح، لكن أن تعتبر بائعة الهوى قديسة، لم أستطع فهمه. إدخالها الفرح والسعادة في حياة من عاشرها؟ هناك تناقض، لأن هذه لم تك غايتها في الأساس حسب اعتراف البطلة، كان هدفها المال والمتعة والشعور بالحرية التي لم تك تفتقدتها بالأساس....؟

ولعل من المفيد أن أنقل بعد ذلك، أو قبل ذلك، الحوار الذي دار بين رئيسة الدير وتمارا:

قالت لي الأخت مريم: - لنبدأ بطلبك. أنت تريدين الانتماء إلى سلكنا، هل لي أن أسألك لماذا يا ابنتي؟

قلت لها: - أنت قرأت اعترافاتي، يا سيدتي، وأنا أريد أن أكفر عن خطاياي مع الرجال.

- أية خطايا، يا طفلي؟ تلك لم تكن خطايا، هل تعلمين؟

- فما هي، يا أخت؟

قالت لذهولي: - أنت كنت يوتوبيا بالنسبة للرجال، يوتوبيا، وأنت كنت تعلمين بذلك، ففيم عذاب الضمير؟

- لكنني كنت أستلم مالا من الرجال، يا أخت.

- مال، ما عيب ذلك؟ البابا كان يستلم مالا لقاء صكوك الغفران، وهي قبض ربح. أما أنت فاستلمت مالا لقاء اللذة التي قدمتها للرجال.

قلت للأخت مريم: - ما هي اللذة، يا أخت؟

قالت: - تسأليني عن اللذة، وأنت كلك لذة. أنت من أجمل اللوحات الفنية في الوجود. إن النظر إليك سعادة، فكيف لو تم امتلاكك؟

- لكنك تتحدثين عن الامتلاك، يا أخت.

- نعم، الامتلاك هو يوتوبيا. وأنت كنت توزعين سحرك على الرجال، لقاء مال طبعاً، وإلا ماذا سيكون ثمن سحرك؟

- فأنا لم أكن مخطئة، يا سيدتي؟

- لا تكوني بلهاء، يا ابنتي، أنت كنت يوتوبيا. عودي إلى مسيحك أندرو كلارك، فأنت لست في حاجة إلى أن تـزفي إلى المسيح الأكبر. هو ليس في حاجة إليك.

أنا لا أريد أن أتوقف أكثر عند هذه الرواية. لكنني أود أن أقول إن تمارا كان لديها المزيد مما يمكن أن تقدمه لنا كبطلة روائية. فهي أصبحت أعظم راقصة في الفن الشرقي المشذب؛ كما بات في وسعها أن تمارس فن الكتابة بعد أن أبدعت في كتابة مذكراتها. فرأيت أن أكتب عنها جزءاً آخر مكملاً لفرس البراري. وقد تم إنجاز هذا الكتاب تحت عنوان (الفرس الزرقاء)، الذي تألقت فيه تمارا، كما تألقت فيه أندرو أيضاً،

وآخرون، عن فيهم رئيسة الدير الأخت مريم، التي توثقت العلاقة بين
تمارا وبينها.

كنت أود أن اتوقف هنا في مذكراتي المتسرة هذه. لكنني لا أريد أن
أكون معزلاً أو اعتزالياً بالمرة عن حياتنا، مع أن لي عذري في اعتزالي.
فأنا كنت وما أزال متشائماً جداً في ما يخص السياسة في عالمنا العربي.
وما يجري فيه الآن يزيدني، ويزيدنا، تشاؤماً. نحن لم يكتب لنا أن
نتقدم. العالم العربي ليس مسموحاً له، وليس متاحاً له أن يتقدم.
وعندما لاحت بوادر تملل هنا وهناك في عالمنا العربي، قلت: لا بد
إن وراء الأكمة ما وراءها. هذا التملل يبدو مشبوهاً. واختاروا لهذا
التملل عنواناً زاهياً: الربيع العربي.

أخبرني أحد اقربائي من المقيمين في ألمانيا أن ربيع تونس كانت وراءه
ألمانيا. وطلبت منه أن يزودني بالمصدر، لكنه لم يصلني. وهذا بات جزءاً
من السلوك العربي. وتعلمون إلى أين أفضى الربيع العربي، بمصر، وبليبيا.
وقد أحزنني أن معظم المثقفين في مصر خدعوا بلعبة الربيع العربي.
وأحزنني أكثر أن العناصر الديمقراطية في مصر أسهمت في وصول
الإخوان المسلمين إلى الحكم، بذريعة أن لا يعود أنصار مبارك....
وكانت ثلاثة الأثافي بزرع داعش في العراق وسوريا وتمدها إلى
بقية البلدان العربية. أحد أبطال روايتي (الفرس الزرقاء) المعدة للطبع
يتساءل: «ماذا يجري في العالم العربي. أمن الممكن أن يتحرك التاريخ
إلى الورا؟»

أنا الآن أشعر في حالة شديدة من الإجهاد، ولا أعتقد أنني أستطيع
أن أوصل الكتابة بعد ذلك. وأنا لم أكن أفكر في كتابة شيء بعد
رواية (الفرس الزرقاء)، لكن الصديق الفنان فيصل لعبيي التمس مني أن

أكتب بضع صفحات عن سيرة حياتي، لأنه مزعم على كتابة شيء عن رواياتي. فرأيت أن أرسل نسخة منها إلى الصديق فخري كريم. وحال وصول بريدي الإلكتروني، أجاب الصديق فخري بالرسالة الآتية:

«عزيزي علي

سيرة قراءتها ممتعة، مع أنها لا ترسم ملامح ذلك الزمن الذي طاردت فيه أحلامك بإصرار، وكتبت رغم كل شيء الرواية التي تحب، سوى أنها توزعت في دزينة من الروايات التي كتبت، وتلك التي ظلت طي المستور في الأعماق البعيدة.!

ألا ترى أن الكاتب العبقري، أو حتى مشروع الكاتب المجيد يقول في نهاية المطاف: إن الرواية الأجل عصية على الكتابة، لأنها سرعان ما تتبدد بين محيط الحروف حين تنبعث من مكانها في النفس الإنسانية المحبطة، بسبب فشل عرضي لقصة حب لم تكتمل فصولها في السر، أو أجهضت لتعرضها لعملية اغتصاب بإماطة اللثام عنها قبل الأوان.

واضح أنك كتبت، تحت هاجس العجالة، وليس تحت ضغط العجالة....، وبودي أن لا تسمح لمثل هذه الضغوط أن تستلك من حالة الإلهام.

قد تكتب بضعة سطور أخيرة فتكون هي الكتابة المكتملة.....

لا أدري إذا كنت مصيباً، فهذه هي المرة الأولى التي أقرأ فيها، في وقفة إنسانية ذكرى رفاق لم يخلوا بحياتهم لكي نظل نعيش ونفعل، وربما لأنهم اعتقدوا بأنهم سيخلدون باستمراريتنا. هل «هي ما يُشبهه» عودة الروح....؟

في هذه الساعة المتأخرة قرأت سيرتك المُستقطعة، وأغرنتني بكتابة هذه السطور التي أخشى أن تدخل في باب الادعاء....
نم وأنت علي الشوك، دون حاجة لمزيدٍ أو خشية إنكار».

لم أتلقُ الرسالة بارتياح أول الأمر. ثم لما أعدت قراءتها، فكرت في أن أكتب سيرة حياة أطول. وكانت هذه السيرة التي بين يدي القراء.

لكن هل ستكون مثار نقاش، أو ربما تساؤل واستنكار؟ أنا كتبتها بكل تلقائية وصدق، على أية حال. وقد كتبتها للصديق فخري في المقام الأول. وقد اختصرت الأسماء بحروفها الأولى أول الأمر، لكنه بعد الاطلاع على الصفحات الأولى التي كنت أَدفع بها إليه، رأى أن تكون الأسماء على حقيقتها. فاستجبت له، باستثناء بعض الأسماء لأسباب خاصة.

لكن هذه السيرة ستكون مهداة إلى كل من يهمله أن يقرأ لي. وأنا أعتذر لأن هذه الصفحات جاءت معصرة جداً، لأن الكتابة لم تعد تسلس لي القياد بعد تعب العمر وضمور الذاكرة.

ويتعين عليّ أن أؤكد أخيراً أن هذا الكتاب لم يظهر إلى الوجود بدون مساعدة ابنتي زينب، وقريتي اكرام الشوك، والصديق محيي الصميدعي، والصديق أحمد أصفهاني وفي المقام الأول بدون مبادرة الصديق فخري كريم.

أنا الآن لم أعد أجد لذة في القراءة. وهذه الظاهرة بدأت تلازمني مع احساسني بالانطفاء. ولم أكن أتصور أن الانطفاء سيغال القراءة أيضاً. أنا منطف الآن، لأسباب بايولوجية. وهذا شيء بات يورث عندي أفدح أنواع الكآبة. فأنا أريد أن أكتب حتى النفس الأخير. أريد أن أكتب موضوعاً عن فن القراءة؛ وموضوعاً آخر عن مريم المجدلية والمسيح. لكن الشعلة أو الجذوة منطفئة. وهذا شيء غير عادل بالمرة. شيء ظالم بكل معنى الكلمة، أن لاتستجيب إلي طاقاتي في الكتابة. وفي أفضل الاحوال، تستجيب الآن بكل تقدير وشح، مع أنني قبل ذلك، ليس بزمن بعيد، كنت أكتب عشر صفحات في اليوم، وأحياناً أكثر. كان ذلك في عام ٢٠١٢، وحتى بعده، عندما كنت اكتب رواية (فرس البراري). فكتبت رواية أخرى بنفس النفس. ثم على حين فجأة جاء الانطفاء. فوجئت بأن الأشياء الهائلة مما تحفظه ذاكرتي النجبية تبخرت على حين فجأة. فكيف سيتسنى لي أن أكتب، أريد أن أكتب عن اهم امرأة في الدنيا، وأنا لا أدري كيف كنت غافلاً عنها قبل الآن. كنت في السنوات الأخيرة معجباً جداً بشخصية المسيح، إلى حد أنه هيمن على تفكيري واهتماماتي الروائية. فخلقت بطلاً روائياً يذكر بالمسيح في كتاباتي الروائية الأخيرة... ثم اكتشفت في سياق هذه الكتابات أن هناك امرأة كان لها دور هائل في حياة المسيح، وفي نشوء المسيحية. فلماذا كانت غائبة عن ذهني وأنا ملتصق بالمرأة في كل كتاباتي؟ فلأجد نفسي للكتابة عنها. ولأقرأ كل شيء عنها، كل شيء إن أمكن... لكن هذا غير ممكن، فهناك عنها مكتبة كاملة. مع ذلك، لأقرأ ما أقدر على قراءته.

آه، إنني لم أعد أستطيع أن ألتقط ما أقرأه. لم تعد هنا شاشة في رأسي

تسجل ما أقرأه. وحاولت الشروع بالكتابة عن الموضوع. لكنني صرت أكتب وأمزق أكثر من مليون مرة. إنه الانطفاء. وهذا ألعن من الموت. أيتها الأفكار لا تخذليني، ويا صفاء الذهن هلم إليّ ولو بجزء من طاقاتك.

آه، لا جدوى. بعد أشهر من المحاولات كتبت خمس صفحات فقط عن مريم المجدلية. المهم أنني كففت عن لعنة التمزيق. ولأعطي نفسي اجازة، وأترك الكتابة الآن، ربما لأعود إليها بعد أن أجد حافظاً من جديد.

في غضون ذلك اتصل بي الصديق فخري كريم، وبدأ كلامه غامزاً: «هل أرسلت مذكراتك إلى أكثر من عشرين شخصاً؟، أمطروني بملاحظاتهم الجارحة».

«لماذا».

«أنت تكتب بلا مراعاة للاعتبارات والحساسيات».

«لكنني أكتب مذكرات».

قال: «اتصل بي فلان، وفلان، وفلانة، وأخبروني بأنهم في صدد أن يطلبوا مني إيقاف نشر المخطوطة... تعلم، حول ما كتبتة عن الرفيق (.....)؟»

قلت: «أنا نقلت ما ذكره لي الرفيق (...). عنه، وكنا في نفس القاعة التي نقل إليها الرفيق (.....). وأنا كنت أشغل مقعده بعد غيابه، إلى جوار الرفيق (...).»

«اسمع، قال الصديق فخري: إن ما نقلته عنه قد يعرضك ويعرض الرفيق (...). إلى مساءلات لا موجب لها. اترك الأمر لي».

ثم تلقيت نداء آخر من الصديق فخري يؤكد فيه أن الرفيق (...). قد اعترض على إثارة هذا الموضوع، وهو يرفض الإشارة إلى اسمه، ويرى أن أنسى الموضوع بالمرّة».

عند ذاك اتفقت أنا والصديق فخري على حذف المقطع أو المقاطع التي يمكن ان تثير حساسية، ورأيت أيضاً أن أحذف اسم الرفيق (...). الذي كان في الصيغة الأولى مذكوراً. وإنتهى الإشكال، أو ما أدراني.

وهو على أية حال، لم ينته بالنسبة لي. فقد أثار عندي موضوع فن القراءة، أو فلسفتها، إن كانت للقراءة فلسفة. ولهذا الموضوع سابقة حدثت لي مع روايتي (السراب الأحمر). وهي تتعلق أيضاً بطريقة القراءة، والخلفية الثقافية للقارئ.

هناك فلسفة امريكية تقول: «الحق دائماً مع الزبون». فهل ينسحب هذا على القارئ؟ صحيح أن القارئ هنا مثل الزبون، لأنه هو الذي يبت برأيه في النص الذي يقرؤه. لكن هل القارئ مصون غير مسؤول عن النص الذي يقرؤه، مثل الملك العراقي، حسب الدستور؟ أنا أقول لا، إن القارئ ليس مصوناً في أحكامه على ما يقرأ. فالكاتب له حق أيضاً، وحقه مقدس. وفي كل الأحوال إن القارئ لا يحق له أن يتعالى على الكاتب، بل العكس هو الصحيح. الكاتب صاحب إنجاز. أما القارئ فليس أكثر من مستهلك.

حين صدرت رواية (السراب الأحمر)، أقام الصديق فؤاد التكريلي لي دعوة عائلية مشتركة، احتفالاً بالرواية. كنا يومذاك في عمّان. وكما

ذكرت، أعرب عن إعجابه بشخصية البطلة داليا، التي «أحبها» لأنها شخصية متميزة في رهاقتها، وتخلق في الرواية جواً محبباً إلى النفس بأنوثتها المرهفة جداً. والحق أن شخصية داليا كانت أو أصبحت محورية في هذه الرواية. وفي رأيي أنها أسهمت في «تألق» الرواية.

هذا في حين أنني علمت أن عدداً من قرائنا «التقدميين» أعرب عن امتعاضه من مشهد الحب الذي دار بين البطل وبين هذه البطلة الفاتنة، لأنه جرى في غرفته المجاورة لغرفة أمه، التي كانت نائمة (على أية حال). وكان هذا، ربما إلى جانب حديث صريح عن الجنس (طبعاً بغير إثارة)، هو سبب امتعاض أصدقائي القراء «التقدميين» من الرواية، بكل هذه الاختزالية التي ألغت كل مزاياها الأخرى.

هذه وأحكام تعسفية واختزالية أخرى جعلتني أبتس من طريقة تلقي بعض القراء النص الروائي والتعامل معه. وحركت عندي فكرة الكتابة عن فن القراءة.

أنا، كقارئ، لم أعجب بمشهد وصول البطل جوليان سوريل إلى غرفة حبيبته ماتيلد بواسطة استعمال السلم المحمول والدخول إلى غرفتها من النافذة المطلة على الحديقة. لم يكن اعتراضي على قيامه بعمل الحب مع حبيبته التي كانت غرفتها لصق غرفة أمها. بل على طريقة الوصول إليها «البهلوانية» التي كثيراً ما يلجأ إليها كتاب الروايات الغرامية السابقة للقرن التاسع عشر. لكن هذا الاعتراض لم يمنعي من الإعجاب الكبير بالرواية ككل. هل ذكرت أنني أتحدث عن رواية (الأحمر والأسود) لستندال؟

وسأشير هنا إلى قراءتي لهذه الرواية، وقراءة ستيفان زفايغ لها. أنا

أعترف بأن قراءتي هذه الرواية تختلف عن قراءة ستيفان زفايغ. فأنا لم أقرأ بارتياح الفصل الذي يتحدث فيه الكاتب عن اقتحام جوليان غرفة ماتيلد عبر نافذتها بواسطة السلم المحمول. كان هذا الفصل بطولياً، ويرفع من مقام البطل جوليان سوريل في عين ماتيلد المترفعة على كل طالب ودها، باستثناء جوليان، الذي عاملها بلا إبالية. لكن ثم ماذا. إنه مشهد تقليدي ليس إلا، لا يخرج عن نمط المكرور في عالم الرواية. أما أنا، فإن الشخصية التي حظيت بإعجابي الهائل، هي ماتيلد في تألق شخصيتها الرومانسية التي فاقت جميع الشخصيات الروائية. وفي رأيي أن ستندال لم يتألق في فصل اقتحامه غرفة ماتيلد، بقدر تألقه في الفصل الذي تحدث فيه عن «جنون» ماتيلد، أو غرابة أطوارها، التي فاقت فيها في رومانسيتها كل البطلات الروائية. وهو الفصل الذي جاء تحت عنوان «الملكة مارغريت». ويبدأ بدهشة جوليان عندما إلتحق بصالة العشاء، ووجد ماتيلد وحدها، دون بقية أفراد أسرته، مرتدية بدلة حداد سوداء. هذا المشهد زاد في حيرة جوليان تجاه تصرف ماتيلد. وقرر أن يسأل الكونت الإسباني التاميرا عن سرّ هذا السلوك. وعندما سأله جوليان، قال التاميرا: «ماذا أنت واحد من نزلاء هذا القصر، ولست تعرف عن تصرفها الجنوني هذا؟»

ويخبره بأنه كان يشهد هذا التصرف في ٣٠ نيسان من كل عام منذ ثماني سنوات، أي منذ كانت ماتيلد في الثانية عشرة من عمرها. ففي الثلاثين من نيسان من عام ١٥٧٤ تم قطع رأس قريبها الأقدم بونيفاس دي لامول، أكثر شببية زمانه وسامة بعد فشل محاولة سياسية. وكان هو موضع تولة الملكة مارغريت من نافاره. ثم قال الكونت لجوليان: «وتذكر أن المدموازيل ماتيلد دي لامول تسمى أيضاً ماتيلد مارغريت».

ثم قال الكونت التامير الجولييان سوريل المندھش: «أن ما أثار إعجاب ماتيلدا من هذه الكارثة السياسية القديمة هو أن الملكة مارغريت، ملكة نافارا، اختبأت في منزل قريب من موضع الاعدام، لتطلب من الجلاد رأس حبيها. وفي الليلة التالية، حملت الرأس في عربتها، وذهبت لتدفنه بيديها في كنيسة في مونتمارتر».

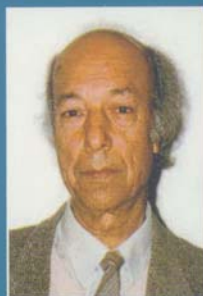
أنا أعجبت بستندال بصفة خاصة لاجتراحه هذه الشخصية الروائية التي لا تضاهيها بطلة أخرى في سلوكها الرومانسي. وقد تطرقت إلى ذلك كمثل على مزاجية القراءة.

هذه قراءات منزهة عن الغرض، لكن هناك قراءات تستبطن أغراضاً، أو تنطوي على مواقف مسبقة. وأنا أشير مرة أخرى إلى قراءات بعضهم لرواياتي. بعض هؤلاء القراء يملكون ذهنيات أيديولوجية متحجرة، أو يتمتعون بثقافة متخلفة. وينطلقون من هذه الخلفيات في أحكامهم على ما يقرأون. وهذا شيء مؤسف. والعيب هنا كما قلت، أنهم ينسون أنهم ليسوا أكبر من النص... لكنني أعلم أيضاً أن معظم القراء يتعاملون مع النص بحب واحترام... وسيسعدني أن أشير إلى قراءة الراحل كامل شياح لرواية (الأوبرا والكلب)؛ وإلى قراءة الصديق زهير الجزائري لرواياتي. فهو يقرأها بحب وارتياح، لكنه لا ينسى، أيضاً أن نزعتي كمتقف تغطي أحياناً على نزعتي كروائي. وهذا نقد نزيه.

الفهرست

| | |
|-----|------------------------|
| ٥ | إضاءة |
| ١٧ | الفصل الأول |
| ٣٣ | الفصل الثاني |
| ٥٥ | الفصل الثالث |
| ٧٥ | الفصل الرابع |
| ٩١ | الفصل الخامس |
| ١٠٥ | الفصل السادس |
| ١١٧ | الفصل السابع |
| ١٥١ | الفصل الثامن |
| ١٦٣ | الفصل التاسع |
| ١٧٩ | الفصل العاشر |
| ١٩٣ | الفصل الحادي عشر |
| ٢١١ | الفصل الثاني عشر |
| ٢٣١ | الفصل الثالث عشر |
| ٢٤٥ | الفصل الرابع عشر |

توهجت ثقافة علي الشوك في زمن الصعود والانتصارات التي شهدتها البشرية بعد الحرب العالمية الثانية والانتصار على الفاشية والنازية، وتركت بصماتها في كل ميدان من ميادين العلوم والثقافة والمعرفة بتنوعها وتعدد حقولها وتطبيقاتها ومنجزاتها في المجتمع والطبيعة وسبر أغوار الأكوان البعيدة.



كانَ علماً، يتوهج بثقافة، تتميز بالتنوع والغنى المعرفي والثقافي، والتعدد في الاهتمام باتجاهاتها الفكرية ومدارسها الفنية، غير هياب في تطويرها والتفاعل معها وهو يكتب ويؤلف ليتكرر لنفسه أسلوباً يميزه، وينحى مسلةً جماليةً قوائمها السرود والموسيقى ونقد النقد، متكناً على معرفة بالعلوم والرياضيات ملتقطاً شذرات من كل ميدان من ميادينها متماهياً في بحورها وتجلياتها.

يقول علي الشوك، كلما أراد أن يتوقف عند محطات إبداعه الفكري والأدبي أن كتاب «الأطروحة الفنتازية» يظل يحتل موقعاً أثيراً في مسيرة عطائه، فريداً من نوعه في العالم العربي، ويجد في اعتراف كل من أدونيس ومحمود درويش بقيمة الأطروحة دالة تُكرس قيمتها وسعة تأثيرها. ويرى الشوك أن «الأطروحة الفنتازية» كرسته كاتباً ذاع صيته بين أبرز مجاليه من الكتاب والمبدعين وجواز مرور إلى عالم الكتابة والأدب. والأطروحة قد تصلح مفتاحاً لفهم شخصيته التي تجمع بين الانفتاح على العلم المجرد المملوم بالمعادلات الرياضية ومتاهات نظريات الفيزياء والإبحار في عوالم الأدب والفنون، ومنهما تمكن من تطوير علم الرياضيات لصياغة عمل أدبي رفيع المستوى.

